

الأستاذ دار الخفاجة
وراء الخاء الخفيفة
العثماني ية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
رقم الإيداع
٢٠٠٥ / ٢٨١٢

وَأَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ بِدُونِ الْحِسَابِ

٢٢ درب الأتراك علف الجامع الأزهر

٥١٤٣١٤١ / ت

الأسرار الخفية

وراء إلغاء الخلافة العثمانية

طبعة مزودة ومنقحة

د. مصطفى حلمي

دراسة حول كتاب

النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة

لشيخ الإسلام مصطفى صبري

دار ابن الجوزي



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله، وأصحابه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

فإن التاريخ يسير بخطى وثيدة، لثمضى معه الأحداث الواحد تلو الآخر، وتسجل صفحاته أعمال البشر في سلسلة مترابطة الحلقات بين العلل والمعلولات، فيصبح ما نشاهده اليوم ونعانيه ثمرة أحداث السنوات التي مضت، والقرون التي انقضت.

وينطبق هذا التصور على الحدث الجلل؛ أي إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

عنت لي هذه الخواطر عندما تصفحت كتاب الشيخ مصطفى صبري - رحمه الله - لأقدم لطبعته الثانية، وأخذت أتأمل مدى التحولات الضخمة في بلادنا الإسلامية: سياسياً واجتماعياً ودينياً وثقافياً واقتصادياً، التي حوّلت مسار الأمة من خط سيرها في ظل الخلافة الإسلامية إلى خط الغرب، فكانت تفقد هويتها على مراحل خطوة خطوة، ثم جاءت (العولمة) لتجهز على البقية الباقية، بينما كانت الأمة محصنة برداء الخلافة الإسلامية على مدى تاريخها (الخلافة الراشدة، الأموية، العباسية، العثمانية)، وكانت المحافظة على الوحدة هي أكبر فضائلها التي قاومت بها الأمة مراحل الضعف، وصمدت في وجه النكبات.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

لذلك فقد صار إلغاء الخلافة منعطف رئيسي في تاريخنا المعاصر.. ونرى أن المنهج المناسب في بحث تاريخنا السياسي والثقافي والاجتماعي والديني من هذا المنعطف، إذ تشعبت منه، إما القيادات المحافظة على التراث، أو الآخذة من الغرب بكيته، أو التي تنتقي ما يوافق تراثها وتلفظ ما يخالفه. وإذا كانت المراحل التاريخية لأوروبا تنقسم إلى قديم وأوسط وحديث، فلنا أن تتبع التقسيم المنهجي لتاريخنا المعاصر ما بين: عصر الخلافة العثمانية، وما بعد إلغائها، ومنذ وقوع هذا الحدث الكارثي في تاريخنا بدأت الصراعات بين الآراء والاتجاهات، وأصبحت الغلبة للتيار الغربي مدعماً بالجيوش المسلحة - اقتداءً بأناتورك دجال اللادينية الأكبر في العالم الإسلامي بلا منازع - فأصبحت الأمة الإسلامية بسبب جريمته معمل تجارب لاستيراد الدساتير والقوانين والفلسفات والقيم والعادات من الغرب واستبدالها بالشريعة الإسلامية في السياسة والتعليم والتربية والثقافة والاقتصاد، وتقلص مفهوم الدين الإسلامي كعلاقة بين الفرد وربه - عز وجل - وحصر أتباعه داخل المساجد تقليداً للمفهوم الكنسي للمسيحية في العصور الوسطى، بينما انطلق الدين في الغرب يباشر دوره السياسي على أوسع نطاق بخلاف ما تزيقه أجهزة إعلامه لخداعنا.

وفي ضوء المتغيرات التي حدثت بتركيا وتبعثها البلاد الإسلامية منذ صدور كتاب الشيخ مصطفى صبري عام ١٩٢٤م فذلك يتطلب الطواف حول بعض القضايا المتصلة بمضمونه، ثم نختم هذه المقدمة بإيضاح غايتنا في نهايتها، للترجيح بين المشروعين: الإسلامي الحضاري، التغريبي التنويري.

ويثير مضمون الكتاب قضايا تحتاج إلى التدبر في ظل التجارب المريرة التي عايشها المسلمون منذ إلغاء الخلافة، فمنها:

عودة الغرب إلى الدين بعد مرحلة العلمانية.. ليعيد له مكانة القيادة بعد احتيازه مرحلة الأيدولوجيات - وأهمها الماركسية والقومية والوطنية - فتوحدت

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

أوروبا، وسعت أمريكا إلى فرض ثقافتها وأنماط حياتها على الكرة الأرضية باسم العولمة، وانطلقت الجماعات الأصولية والأحزاب اليمينية في أوروبا وأمريكا وإسرائيل لفرض برامجها وجذب الرأي العام إلى عقائدها.

أما بالمقارنة بخط سير أمة الإسلام - وفي مقدمتها تركيا.. فترى الاتجاه المعاكس، أى باعتناق القوميات وتقليد حضارة الغرب - عندما كانت تعادى الدين في القرون الوسطى - وتقليص دور الإسلام وحصره في دائرة العاطفة الفردية، فماذا كانت النتيجة في تركيا خاصة؟ (لقد كانت تركيا، كدولة إسلامية قوة عالمية، أما تركيا، التي تنتحل الآراء الأوروبية، فهي دولة من الدرجة الثالثة، لا يعدم العالم اليوم كثيراً من مثيالاتها).^(١)

أما في داخل تركيا.. فإن الجماهير لم تسلم طوعاً، وانتظمت في حركات مقاومة قادها في البداية الإمام النورسي، ثم انضمت إلى الأحزاب الإسلامية سعياً وراء التغيير في ظل الديمقراطية، وكانت المساجلات بالآراء والحجج بين الإسلاميين والعلمانيين، ولكن بعد أن أفرغ المنظرون من العلمانيين ما في جعبتهم عن الديمقراطية والحريات السياسية ومعارضة قيام الحكومات الدينية التي سستعيد - بزعمهم - سلطات رجال الدين في العصور الوسطى، وغيرها من الأفكار المكررة المترجمة عن التحارب الغربية، بعد الجادلات والمناقشات، اتضح إفلاس المعارضين للنظام الإسلامي، فتدخل الجيش بقوته لتنحية أى حزب ينادى بمبادئ الإسلام، مصمماً على استخدام العصا الغليظة لتهديد الجماهير في كل مرة تتحول بقطرها إلى دينها الذي انتزع منها كما يُنتزع الطفل الرضيع من حضن أمه!

وفي ضوء هذه المتغيرات الحادثة بعد تأليف كتاب الشيخ مصطفى صبري

(١) مقومات العمل الإسلامي، اتجاهات وبرامج وآراء للحركة الإسلامية، إعداد: جماعة مسلمي يوغوسلافيا، ط. شركة الشعاع للنشر، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

- يرحمه الله - فإن الواقع المرير الذي نعيشه يلجّ علينا لعرض ما طرأ على الساحة إقليمياً في تركيا، وعلى مستوى العالمين الغربي والإسلامي.

أتاتورك دجال اللادينية الأكبر:

تلقت الأجيال منذ أتاتورك تجربته كألها المنقذ من تدهور الأمة.. فتربت على أفكار العلمانية والقومية، واتخذت من تقليد الغرب طريقاً إلى التقدم، وتخرج من هذه الأجيال القادة والساسة والزعماء والثوريون، حيث قادوا الشعوب الإسلامية وراءهم، فحاضوا التحارب المريرة، ثم أيقنت الأمة في النهاية أن الآمال المعقودة على التقدم هي السراب بعينه، واتضح بعد فوات الآوان أن أتاتورك كان دجال اللادينية الأكبر.

فقد كان من الضروري أن نعيش عهداً من الأوهام والضلالات.. وأن نتجرع كؤوس الخمر في سيناء وأندونيسيا والباكستان، لكي نشعر بالخطر، وأن يكون بيننا من يفيضون في الحديث عن الحرية والازدهار والتقدم.. ولا يحققون إلا الظلم والفساد.. إن ذلك كله كان ضرورياً لحلّول عهد الصحوة.. وأن ثمة مخرجاً وحيداً للعالم الإسلامي مما يتخبط فيه: هو الرجوع إلى أصوله الروحية والمادية الخاصة به، أي الرجوع إلى الإسلام والمسلمين.^(١)

وإن صح اقتراض وصف التاريخ بأنه (معمل التحارب الإنسانية)، فإن الشواهد على صحة هذا الفرض هي:

أ . فقدت الأمة وحدتها وكيانها الحضاري الإسلامي المتميز.

(١) (مقومات العمل الإسلامي - واتجاهات وبرامج وآراء للحركة الإسلامية)، ص٦٦، إعداد: جماعة مسلمي يوغوسلافيا، شركة الشعاع للنشر، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ب. أسفر العداء الغربي الكامن بالقلوب عن وجهه، إذ لم تفتقر جهود البلدان الأوروبية لتحطيم الخلافة منذ قام محمد الفاتح بفتح القسطنطينية (فقد كان الفرنسيون - والغريون بصفة عامة - يدركون السر في قوة المسلمين والذي يتمثل في جانبين مهمين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة)، وعندما انتصر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وجّه الأساقفة الخطابات إلى القادة العسكريين لاحتلال الأستانة.

ج. حقق اليهود حلمهم بإقامة دولة في قلب الأمة الإسلامية، لأول مرة في تاريخها.

تحقيق الخلافة لوحدة الأمة ومشروعها السياسي العالمي:

فإن أفضل مدخل لمعرفة حقيقة الخلافة العثمانية ودورها في حماية الأمة الإسلامية وتوحيدها، هو عقد مقارنة بين ما آلت إليه الأمة الآن وما كانت عليه في ظل الخلافة.^(١)

وليس من غرض دراستنا العرض التاريخي، فإن شرحه يطول، حيث كانت هدفاً للصليبيين طول ستة قرون، بل يحتزئ بعض مواقفها العسكرية والسياسية في مواجهة الاستعمار الأوروبي، ثم نبحث في تحليل حركة أناتورك بحكم كونها رأس حربة للقضاء أولاً على الإسلام في قلعته، ثم الانسياح في ديار الإسلام تقتيلاً لعلمائه

(١) من نتائج الترحم على (الاستبداد العثماني) ومين عودتها بعد بضع وعشرين راية بدلاً من راية واحدة وضباع فلسطين وحواجز الحدود وحظر الانتقال من بلد إلى آخر إلا بعد تأشيرات وجوازات وهماك... الخ، ثم فقدان العزة والكرامة. ط ١٢١ من كتاب (جوانب مضيق في تاريخ العثمانيين الأتراك)، زياد أبو غنيم، ط دار الفرقان، عمان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وإعداداً لشريعته وتخريباً لأراضيه وغزواً ثقافياً لأهله، وما تمكن الاستعمار الغربي من العالم الإسلامي إلا بعد كسر هذا الحاجز المنيع الذي حال دون تحقيق مطامعه، وإذا كان العصر هو عصر ازدهار الصهيونية وسيطرتها على العالم فإنه في الحقيقة أيضاً عصر (التملل) عرى دولة الإسلام وتفتت شعوبه وإقصاء شريعته.

ولو صُحَّ استبداد السلطان عبد الحميد فلا يقارن باستبداد النظام الثوري لأتاتورك.. فإن صح استبداد الأول فإنه اقتصر على عملاء دول أوروبا من الجواسيس والمخربين والأعداء، بينما امتد استبداد أتاتورك إلى الشعب المسلم التركي بأكمله.

ثم قلدته (الثورات) التي تابعتها.. فأصبحت علماً على الاستبداد السياسي والعلمنة (إقصاء الشريعة) والتخريب والتخريب الاقتصادي والحرب الشعواء على الإسلام والمسلمين عقب إسقاط الخلافة.

وقد تواطأت الصليبية واليهودية على إسقاطها والقضاء عليها.. وهي رمز وحدة المسلمين وقوتهم.

وبدأت الخطة (عشية انتهاء الحروب الصليبية عام ٦٩٠هـ - كما يقول أحد مؤرخيهم ويدعى (ديجو فارا):

١٤٩٩ "إن الخطة للقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية قد بدأت عشية انتهاء الحروب الصليبية عام ٦٩٠هـ)، واستمرت حتى حققت أهدافها عام ١٩١٨م.. إن أصل العداء المزمع التي يشعر بها الأوروبيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام".^(١)

(١) الفقرة على العالم الإسلامي بحسب الدين الخليل، نقلاً عن العالم الإسلامي والمكانة الدولية لفتحى يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وفعلوها.. وأصبحنا الآن في حالة تمزق وتشفت وشرذمة لم تحدث في تاريخنا من قبل قط.. يقول أحد الباحثين: لقد انتهى إحسان الجابري عام ١٩٣٢م مع ابن جوريون، فحدثه هذا عن أن اليهود مصممون على انتزاع فلسطين من أيدي العرب مهما كلفهم الأمر، وأهم سيبلغون هدفهم هذا لا محالة، فرد عليه إحسان الجابري ساخراً: (أنتم تحملون! هناك ثمانون مليوناً من العرب مستعدون أن يفتدوا فلسطين بأرواحهم)، فقال ابن جوريون واثقاً: (ولكن عندنا سلاح سيتغلب على هذه الكثرة)، فسأله إحسان الجابري: (تعني إنجلترا وأمريكا؟)، فقال ابن جوريون بحزم: (لا، لا، بل أعني تفرق العرب).^(١)

وهكذا تحقق الهدف وأصبحنا في حالة تمزق.. وعندما نسعى للوحدة، في أي صورة من صورها الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية، تحول بيننا وبينها العراقيل، حتى تسرب اليأس إلى القلوب في أمة علمت البشرية فكرة الوحدة العقديّة، وحققت الرابطة العالمية.

(١) كتاب (اليهود في المعسكر الغربي)، داود عبد الغفور سنقراط، ص ٩، ط. دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ.

جرمة إسقاط الخلافة مدونة بمخطوطات مكتب السجل العام بوزارة الخارجية البريطانية، رقم: ٨٧٤/٧٨، بتاريخ: ١٨٥١/١١/٧م، رقم: ٤٢٧/٧٨، بتاريخ: ١٨٤١/٢/١٧م، ومصدق عليها من الملكة فكتوريا، وبدأت الجريمة على مائدة عشاء بين اللورد شافسيري واللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا، حيث قدم الأول للثاني مشروع الاستيطان اليهودي، وعندما وافق الثاني أعلن الأول أن الله قد اختار بالمرستون ليكون أداة لخير شعبه القديم. ثم وضعت الخطة لمساومة السلطان، وهي التي ذكرها السلطان في مذكراته، وعندما قاومهم وضع بالمرستون خطة للقضاء على السلطان والدولة. تقوم هذه الخطة على إحياء شباب تركيا وتزويده بالمال اليهودي حتى يتم صهره داخل الثقافة اليهودية، وبدأ التنفيذ وسقطت الخلافة.

ص ٣٢٤، من كتاب (المسيح الدجال)، سعيد أيوب، ط ١، الفتح للإعلام العربي بالقاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العلمانية

ويجز في نفس كل مسلم أن تصل أمتنا إلى هذه الأوضاع بينما هي التي قادت العالم إلى رباط العالمية التي أصبحت من سمات العصر.. فقد كانت روسيا (قبل الانهيار) تضم الملايين ويحس المواطن بالفخر أن الدولة التي ينتمى إليها تنافس قوة أخرى عالمية، بل كان الماركسي في أي جهة من العالم يشعر بهذا الفخر ولا تحرؤ الحكومات التي يحيا في ظلها أن تقبض عليه أو تلقى به في السجن إلا في حالات استثنائية، لأن (روسيا) كانت تتدخل بنفوذها السياسي للدفاع عنه!

ولا يحتاج الشرح لبيان فخر الأمريكي بالانتماء لأمته.. فهذا أمر ملحوظ ومشاهد في كل مكان.

كذلك أوروبا.. الساعية إلى الوحدة على أشلاء الملايين من بينها خلال الحروب الطاحنة التي كانت بين بلداتها لسنوات طوال.

فأين الأمة الإسلامية من رباط العالمية الآن؟

إننا نذكر بعض المثقفين بهذه الانطباعات ليعيدوا النظر في مقولة [الاستعمار العثماني] وغيرها من المصطلحات التي شوهت تاريخنا.

لقد فقد الفرد المسلم الغطاء السياسي الذي كان يحميه أيام الخلافة.. حتى في عصور ضعفها، فكان السفير الإنجليزي يستعطف الخليفة العثماني خشية إعلان الجهاد فيثور مسلمو الهند في وجهه إحتلنا آنذاك.

وأصبح المسلمون الآن هم الوحيدون في أنحاء العالم المستهدفون لحملات القتل والتشريد والإبادة بلا رادع من ضمير أو وازع من أخلاق.. فأحوال الأقليات - بل الأغلبية - لا تحفى على أى مراقب. وفي القمة لا يخفى على أحد الجرائم الوحشية - ولفظ الوحشية ربما لو عقله الوحوش لاحتجوا - على جرائم الصرب في البوسنة والهرسك التي تدين العصر كله وهي سبة في جبين الغرب بل العالم، أما

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

كارثة اغتصاب فلسطين فإنها العار الأكبر لحضارة الغرب.

وبعد... فإذا كنا قد وضعنا هذه الملامح لصورة العالم الإسلامي فلكي نعلم أن أحوالنا في ظل العثمانيين كانت أفضل بكثير، بل لا مقارنة بأحوالنا الراهنة.

انحسار العلمانية في الغرب وعودة الدين إلى المسرح السياسي:

يبدو للمراقب لتطورات الأنظمة الغربية أن العلمانية التي نشأت هناك للفصل بين الدين والدولة كانت تتسم - كما وصفها كارين آرمسترونج - بالتسامح، إذ نظر إليها في مراحلها الأولى، على أنها أسلوب أفضل للتدين، وكانت العلمانية الغربية أيضاً تتطور تطوراً إيجابياً، أدى في معظم الأحيان، إلى مزيد من التسامح.^(١)

ولكنها بالمقارنة بينها وبين العلمنة في الشرق قالت: (..) فإن عملية العلمنة في الشرق الأوسط كانت هجمة عنيفة قسرية^(٢)، مستدلة بذلك على ما فعله أتاتورك الذي صمم على "تغريب" الإسلام ومضى في طريقه بإغلاق المدارس الدينية وفرض الزنى الغربي بقوة القانون وتقليص الدين ليصبح عقيدة فردية بغير تأثير قانوني أو

(١) ص ٣٠٥ من كتاب (معارك في سبيل الإله) الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، كارين آرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، كتاب سطور بالقاهرة، سنة ٢٠٠٠م.

ويقول جيل كيل: (ينفتح الربع الأخير من القرن العشرين، في أوروبا الكاثوليكية على مفارقة: إذ يبدو المجتمع وكأنه لم يكن يوماً على هذا القدر الكثيف من الدنيوية العثمانية ومن اللامسيحية. ومع هذا فإن حركات معاودة تبعث وتولد في كل مكان.. أي جماعات في حفل الجامعات.. وعمليات الشفاء العجائبي.. ومنظمات مثل "التناول والتحرير" التي تريد إعادة خلق مجتمع مسيحي بعد "إفلاس العلمانية"، ص ٥٩ من كتاب (نار الله.. الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث)، ترجمة: نصير مروة، دار قرطبة، قرطبة، ط٢، سنة ١٩٩٨م.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الحلفاء العلمانية

سياسى أو اقتصادى وإخضاعه للدولة، وعندما قامت حركة العصيان بقيادة سعيد النورسى "سحقها أتااتورك بسرعة وحزم في غضون شهرين".^(١)

وارتفعت نغمة العصبية الدينية في أوروبا وأمريكا.. فرسمت إحدى المجلات الإنجليزية صورة رمزية للقائد اللبني في عودته من حرب فلسطين وكتبت تحتها: (العودة من الحروب الصليبية)، ووقع مائة عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزي على مذكرة للورد سيسل تتضمن المطالبة بإخراج الأتراك من الآستانة، وأرسل اثنا عشر أسقفاً في الآستانة برقية إلى رئيس أساقفة كانتربري يدعونه فيها إلى المساعدة على إخراج الأتراك من الآستانة.. كما أرسل أسقف نيويورك إليه أيضاً بهذا المعنى نيابة عن مائة أسقف، (وشكره على المساعي التي يبذلها في "الحروب الصليبية" التي تبذل ضد بقاء الأتراك في الآستانة..).^(٢)

وبنفس الدوافع الصليبية كتب القائد الفرنسي بير كيللر يقول: (إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية، وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين..).^(٣)

وأضاف الرئيس الأمريكى (بوش) في سبتمبر ٢٠٠١م أخيراً، برهاناً قاطعاً على صبغة الحرب الصليبية.. عندما صرّح بذلك علناً، (ولا يؤخذ تراجعها بعدها مأخذ الجدل لأن فلتات اللسان أصدق تعبيراً عما في النفس)، فهو يحضى سياسياً وعسكرياً وفق الشعار المرفوع منذ حرب الخليج سنة ١٩٩١م، وقبلها أصدر الكونغرس الأمريكى قراراً في منتصف الثمانينات معلناً أن الإسلام هو الخطر الأكبر في نظر

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٢) باختصار من كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، ج٢، ص ١٩-٢٠، للدكتور محمد محمد حسين، ط مكية الآداب بالجامعيز بالقاهرة، ط ٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩-٢٠.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الولايات المتحدة.^(١)

وما لم تقله أرمسترونج.. أن الكنيسة في الغرب استعادت سلطانها في التأثير في الأحداث السياسية المحلية والعالمية، ويرى الدكتور محمد يحيى أن المسيحية الغربية أصبحت الآن قوة دولية كبرى في مجال السياسة، وفي ميادين الإعلام والدعاية أولاً في مجلس الكنائس العالمي جهاز سيطرة وتوجيه وتوحيد أشبه بمفهوم (الخلافة) في الإسلام، وبالوكالة اليهودية عند الصهيونية.

ويا لها من مفارقة صارخة:

تعلمت أوروبا الوحدة من الخلافة الإسلامية، وتغلى عنها المسلمون وتقهقروا إلى الخلف بسبب الانقسامات ومحاكاة الغرب واستعارة نظمته في القومية والوطنية التي أصبحت من مخلفات القرون الماضية.^(٢)

واسترد الدين مكانته بالمفهوم السياسي الواسع.. كما عاد ليملأ الفراغ النفسي والوجداني بعد علل القلق والاضطراب النفسي الذي عانت منه المجتمعات هناك طويلاً.

(١) ص ١٦٩ من كتاب (سِرّ إسلام الأمريكيات)، تأليف Carol Lanway الباحثة الكهنوتية المسيحية، ترجمة محمد عبد العظيم، ط دار المنارة، المنصورة، مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. وسبقهم جيمس روسو (رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، مستشار الرئيس الأمريكي جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧م)، قال عندما أقيمت نذر الحرب الإسرائيلية: [.. بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية]، معلناً تأييد أمريكا التام لإسرائيل في حربها العدوانية.

ص ١٠٩ من كتاب (المسيح الدجال.. قراءة سياسية في أصول الأديان الكبرى)، سعيد أيوب.

(٢) الرد على العلمانيين، ص ٣٨ "ورقة ثقافية"، الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

تقول أرمسترون، ج أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد:

"فقد تقدّم الأيديولوجيات الإنسانية والتطلعات والحماس، الوعد بنوع من الخلاص، لكنها في النهاية لن تؤدي إلا للإحباط... وغير مستطاعة أن تهدئ القلق وعدم الرضاء الأساسي للبشر والذي يلجئ الكثيرين إلى السلوى التي يقدمها الدين ويقدمها الفن.

وبدراستها للفارق بين الأيديولوجيات الغربية، مثل القومية والاشتراكية، التي لجأ إليها بعض المسلمين، وبين الإسلام، تذكر أن النتائج لم تأت بالإرضاء المأمول كما توقع المصلحون من العلماء المسلمين، ولمعرفتها بالقيمة الكبرى للتوحيد في الإسلام، ولوعيتها بمحاذير الوقوع في الشرك تقرر أن (عظيمة الشرك تحذر المسلمين من تبني مثل بشرية خالصة مهما بلغ صلاحها في حد ذاتها، وذلك من الأهمية القصوى. يمكن، كي لا يتحولوا إلى الوثنية)".^(١)

لذلك.. فإن الإصرار على التاريخ المزيف ووضع الدولة العثمانية في مصاف الدول الاستعمارية، يحمل في طياته الرغبة في المضي قدماً في طريق التغريب وإقصاء شرع الله عن حياة المسلمين وتبرير تفتيت العالم العربي والإسلامي، مما يعطى سنداً قوياً للاستعمار الغربي وبقاء نفوذه الثقافي والسياسي والاقتصادي لاعتماده على هذه الانقسامات^(٢)، إضافة إلى حرمان الأجيال الصاعدة من أمل الوحدة الذي

(١) محمد ، كارين أرمسترون، ص ١٨٠-١٨١، ترجمة : د. فاطمة نصر ود. محمد عنان، ط٢ سطور، سنة ١٩٩٨م.

(٢) يذكر ليونارد بانيدر أن الحدود الإقليمية لبلاد الشرق الأوسط هي المقومات الشرعية والسياسية الأولى لوجودها، وكانت له الشجاعة الكافية للاعتراف بأن هذه الحقيقة متناقضة للمنطق، ولكنه يبررها بأنها ضرورية لأمن أمريكا الوطني في الشرق الأوسط. ص ٤١، ص ٣٩٩، من كتابه (الثورة العنصرية في الشرق الأوسط).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

يجعل من أمة الإسلام قوة يُخشى بأسُها ويحقق مصالحها في الرخاء والاكتفاء الذاتي وإنشاء جيش قوى يقف في مصاف جيوش الدول الكبرى، كما كان الشأن أيام الخلافة العثمانية وما قبلها منذ عصر النبي ﷺ.

يقول الدكتور أحمد صبحي بكتابه (في فلسفة التاريخ): "... ومادتنا التاريخية هي الحضارة الإسلامية، منذ أن انبثق نورها بالبعثة النبوية، إلى أن انقضى أجلها - ولكل أمة أجل - بانقضاء الخلافة العثمانية، ثم فترة من التاريخ أعقبتها، تزيد قليلاً على نصف قرن، تتأرجح بين الوطنية والقومية..."^(١).

ولا نشارك الدكتور أحمد صبحي في رأيه عن انتهاء أجل الأمة الإسلامية بانقضاء الخلافة العثمانية.. لأن الأمة تتميز بخاصية لا تشاركها فيها أمة أخرى، فهي باقية بالرغم من انقراض عقد الخلافة - أي الرابطة السياسية الجامعة لها - لأن القرآن الكريم يوحد بينها، وهو ما يراه الدكتور على عزت بيحوفيتش، فمع التسليم بتعدد شعوب العالم الإسلامي، فإن الشيء الذي يربط دوله هو القرآن الكريم.. (الذي يُقرأ في كل أصقاع العالم الإسلامي من الهند إلى الجزائر إلى نيجيريا)^(٢). ولم يفت الرئيس بيحوفيتش استكمال رأيه في كتاب آخر، حيث يقول:

- وبينما كنت أعد لكتابة هذه المقدمة طالعت عمراً بعنوان (الجيش الإسرائيلي يستعد لحركة تجريد كبرى للمقيمين في الخارج تحسباً لاندلاع حرب شاملة)، الأهرام في: ٢١/٧/٢٠٠١م. فشتان بين أمة كانت موحدة تحت راية "لا إله إلا الله.. محمد رسول الله" تجمع العقيدة والشريعة ووحدة الهدف وشرف الرسالة، فتفرقت دولاً ودويلات، وتفتت إلى قوميات ووطنيات متناحرة، وبين أمة أخرى كانت في الشتات لعشرات القرون ثم تجمعت وتوحدت.. فهل نعى الدرس؟! (١) ص ٢٦٥-٢٦٦، من كتاب (في فلسفة التاريخ)، د. أحمد صبحي، ط. مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، سنة ١٩٩٠م.

(٢) ص ١٧٠، من كتاب (البوسنة والمهرسك.. من الفتح إلى الكارثة)، للدكتور محمد حرب، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

(إذ المتفق عليه أن الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة على مدى العصور كلها حتى قيام الساعة.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، هو وحده ﷺ الذي ضرب المثل الأعلى في السلوك الإنساني
في مسالكه كافة، وقدم الحلول الصحيحة لما يعترضنا من أزمات كأفراد ومجتمعات
وأمة.

كذلك فإن اتباعه ﷺ يعصم المسلمين من الافتتان بكل ناعق، من هولاء
المصنوعين والمروّج لهم بأجهزة الإعلام التي يديرها اليهود، وتقود الشعوب إلى
حقتها.

يقول الرئيس على عزت بيحوفيتش بكتابه (الإسلام بين الشرق والغرب):
يوجد للإسلام مصدران أساسيان: هما القرآن والسنة النبوية يمثلان معاً الإلهام
والخير، الخلود والزمن، التفكير والممارسة، الفكر والحياة. والإسلام طريقة حياة
أكثر منه طريقة تفكير. وتشير جميع التفسيرات القرآنية إلى أنه بدون السنة النبوية..
أي بدون حياة النبي ﷺ يتعسر فهم القرآن فهماً صحيحاً. إنه فقط من خلال فهمنا
لحياة الرسول ﷺ يعرض الإسلام نفسه كفلسفة عملية أو خطة شاملة للحياة
كلها.^(١)

ولكن مع انحلال رابطة الخلافة السياسي، فإن الأمة الإسلامية باقية، وهو ما
اتفق عليه المفسرون، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ .. الآية.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) ص: ٣٠٤، من كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب)، ترجمة: محمد يوسف عيسى، مجلة النور
الكويتية ومؤسسة بافاريا، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

يقول النيسابورى: ﴿أُمَّةٌ وَسَمًا﴾ .. أى: عدلاً، وإنما أطلق الوسط على الخيار، لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والعيب، والأوساط محمية محوطة.

ثم يستطرد: والخطاب لجميع الأمة من حين نزول الآية إلى قيام الساعة كما في سائر التكليف، مثل: ﴿حُيِّبَ عَلَيْكُمْ آلِ حَبِيبَاتٍ﴾ ، ﴿حُيِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ ، فللموجودين بالذات وللباقين بالتبعية، لكننا لو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بأسرها لزالَت فائدة الآية، إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الآية حجة عليه، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر.^(١) ويُفهم من هذا أن الأمة باقية إلى قيام الساعة لأداء ما كُلِّفَتْ به، والله أعلم.

وهو ما يقر به لوينارد بانيدر، أستاذ العلوم السياسية في جامعة شيكاغو الأمريكية، إذ يرى أن مفهوم (الأمة) في الإسلام مازال قائماً في الإسلام (وباستمرار منذ أيام عهد السقيفة في المدينة المنورة)، كذلك لم يود انحلال الحكم الشرعي في التاريخ الإسلامى الممثل في الخلافة (إلى انهيال الدين أو انحلاله. وقد يمكن القول إن انحلال التنظيم السياسى الإسلامى أدى إلى تقوية التنظي الدينى، عن طريق تجسد الأخير في مجتمع المؤمنين كله).^(٢)

ومن هذه النظرة المتفائلة، يرى الرئيس على بيحوفيتش أن الاعتماد - بعد الله عز وجل - على الأجيال المسلمة المقبلة.. (هذه الأجيال التى تشكل مائة مليون شاب وشابة وُلِدُوا في الإسلام وتربوا في مرارة الهزيمة التى تربط فيما بينهم، والذين

(١) من كتاب (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، للنيسابورى، تحقيق وتعليق: د. حمزة النشترى، الشيخ عبد الحفيظ فرغلى، د. عبد الحميد مصطفى، المجلد الثانى، ص ١٢٨-١٢٩، ص ١٣١-١٣٢، ط. دار الغد بالقاهرة.

(٢) ص ١٨١، من كتاب (الثورة العقائدية في الشرق الأوسط)، تأليف: لوينارد بانيدر، وتعريب: خيرى حماد، ط. دار القلم بالقاهرة، سنة ١٩٦٥م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

سيرفضون العيش على الأجداد القديمة والمساعدات الأجنبية^(١).

فمن كان يصدق المخدار الماركسية وتحرر المسلمين من قبتها؟!

ومن كان ينتظر، بعد سنوات من البطش والقهر، انبلاج الظلام عن صحوة إسلامية تعم بلاد العالم؟!

لذلك فإن ثقتنا لا تتزعزع في ارتفاع موجات اليقظة واستمراريتها، نستقرؤها من حديث الرسول ﷺ ومطابقته مع ما أصاب الأمة من كوارث في القرون الماضية، ما تعانيه من شدائد في واقعنا المعاصر.

فقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة"

وفي تفسير الحديث، يقول ابن تيمية: (فإن هذه الأمة - والله الحمد والمثلة - لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف، لم يصيبها ما أصاب من قبلها من بني إسرائيل وغيرهم، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء، بل إن غلبت طائفة في قطر من الأرض، كان في القطر الآخر أمة ظاهرة منصور، ولم يسلط على مجموعها عدواً من غيرهم، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن).^(٢)

ونعود ننادي ببعث (الروح) في اقتراحات الدكتور السهنوري - يرحمه الله - وإحياء لعلاج الأمة من أمراض الانقسام والتشرذم وإنقاذها من (فخ) العولمة، فقد اقترح - عقب إلغاء الخلافة - تكوين "عصبة أمم شرقية تتمشى مع الاتجاه العالمي

(١) (البوسنة والمهرسك... من الفتح إلى الكارثة)، للدكتور محمد حرب، ص ١٦٩.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٤، ص ١٤٦، مطبعة المدن بمصر، بدون تاريخ.

التشاور الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

نحو التكتل والتجمع^(١).

وكانت دعوته أثناء انقسام العالم حينذاك إلى كتلتين: الاتحاد السوفيتي والولايات الأمريكية، وأصبحت الآن أكثر ضرورة وإلحاحاً في عصر (العولمة) التي تريد التهام العالم.

وفي النهاية.. بعد أن طوّفنا حول مأساة إلغاء الخلافة، فستقف لتأمل نتائج الحدث واستخلاص الدرس والمغزى، لأن الإسهام في بحثه من جوانبه الدينية والحضارية، يقتحم بنا مجال الدراسة المقارنة بين المشروع الإسلامي الحضاري، والمشروع التغريبي التنويري، ويغلب الأول على الثاني، إذ يوفر استقراء النتائج المستخلصة مما حدث لأمتنا في السبعين سنة الماضية الجهد في الحوار الدائر بين طرفي النزاع، لأنه تجلّي في الواقع المعاش والحقائق الواضحة وقدم الدليل التحريبي المستخلص مما حدث بالفعل، ونجاوز الإطار النظري الفلسفي.

ففي المقابل، أي بالمقارنة بما حدث بالغرب، يرى الدكتور جلال أمين رؤية الحدود التي قيدت التطبيق الواقعي (لمبادئ التنوير النظرية التي رفعت قبل قرنين من الزمان... أي ما فعلته النازية والفاشية بالحرية، واحتياج الديمقراطية الغربية لإشعال حرب عالمية ثانية أفدح ثمناً من الحرب الأولى، ومغزى إلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان دون وجود حاجة عسكرية إلى ذلك، وما فعلته الستالينية بالحرية والديمقراطية وتفسيرها الخاص للعلوم الاجتماعية، وما ألقته المكارثية من ضوء على مدى استعداد الغرب الحقيقي للتسامح مع الرأي المخالف... الخ).^(٢)

(١) مقدمة كتاب (أصول الحكم في الإسلام)، بقلم د. توفيق الشاوي، مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٨م.

وينظر كتابنا (حضارة العصر.. الوجه الآخر)، دار الدعوة بالإسكندرية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

(٢) ص ٥٢، من كتابه (التنوير الزائف)، سلسلة اقرأ، دار المعارف [٦٤٠]، سنة ١٩٩٩م.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة الملعونة

ويرى الدكتور جلال أمين طريق الخلاص بتحليص مفهوم التنوير مما دسَّ فيه،
(وإعطائه المضامين التي تتفق عنها أذهاننا نحن، لمواجهة المشكلات التي نقوم نحن
بتشخيصها وصولاً لأهداف نقوم نحن بتحديد^(١)ها).

وهذا حق، لأن المعنى^{المعنى} في المشروع التفريري - بعد الفشل المروع الذي عانت
منه الأمة عقب سقوط الخلافة، وتحول مسارها بقيادة أتاتورك ومقلديه - سيسهم
في المزيد من تبديد طاقات الأمة وجهودها في ميادين الاقتصاد والسياسة والتعليم
والثقافة والتربية والقوى العسكرية، لأن هذا المشروع ليس نابعاً من تراثنا، ولا يمثل
تواصلًا لتاريخنا الحضاري، فضلاً عن تآكل معالم هويتنا أمام زحف سرطان العولمة
الثقافية.

والله تعالى أسأل أن يسدد خطي أمتنا نحو الوحدة والنصر والعزة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في:

رجب سنة ١٤٢٢ هـ

سبتمبر سنة ٢٠٠١ م

(١) نفسه، ص ٥٨.

الأسرار البقية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد..

فإننا نقدم للقراء كتاباً له أهميته الخاصة في تاريخ المسلمين المعاصر، والفكر السياسي الإسلامي، ظل مطموراً في المكتبات العامة والخاصة لا يعرفه إلا القليل، بينما يتطلب موضوعه الإذاعة والنشر على أوسع نطاق، لأنه يصحح معلومات خاطئة كثيرة، ويكشف أسراراً عميقة.

مولفه الشيخ مصطفى صبري، شيخ الإسلام في الخلافة العثمانية، اختار له عنواناً يوحى بشدة غضبه، وعنق نقده، فسماه:

النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والإامة

وستوضح بعد القراءة صدق قصده.

فكرة عامة عن الكتاب

يحدثنا الشيخ مصطفى صبري - رحمه الله تعالى - في هذا الكتاب عن مأساة إلغاء الخلافة العثمانية، وقد رأيت وضعه بين أيدي المؤرخين ومفسريه والدارسين للنظم السياسية الإسلامية والدعاة، ذلك أن موضوع الكتاب يعالج أكثر القضايا اتصالاً بمآسى المسلمين في العصر الحديث، حيث انفرط عقد وحدتهم بإلغاء الخلافة التي ظلت جوهر النظام السياسي الإسلامي منذ وفاة النبي ﷺ.

والكتاب في مضمونه يعبر عن آراء الشيخ مصطفى صبري - آخر شيوخ الإسلام في عهد الخلافة العثمانية - وتمتزع آراؤه بتفاصيل تاريخية وسياسية وعسكرية وثقافية يصعب على القارئ الوقوف على حقيقتها وفهمها ما لم يعرف الخلفيات وراء هذه الأحداث.

لذلك رأيت ضرورة التعليق والشرح على بعض ما احتواه الكتاب من وقائع، والتعريف بالأسماء والجماعات السياسية المخفية وراء الأحداث التي صاحبها المؤلف عندما عايش المحنة من أولها إلى آخرها - فاضطهد وشرد هو وأهله ولاقى الأمرين من حكام تركيا الجدد اللادينيين ومن بعض الكتاب المصيرين الذين أوسعوه سباً وشتماً واتهموه بأفدع التهم، أقساها على نفسه قمة الخيانة، بينما كان الشيخ هو المدافع بلسانه وقلمه عن الإسلام كعقيدة وشرعة، وكنظام سياسي متحقق في (الخلافة) معتبراً ما فعله الكماليون بمثابة (هدم الدين من الداخل).

ونحن نقدر صعوبة أخرى أمام القارئ، نرجو الله تعالى أن يوفقنا لإزالتها،

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

حيث إنه تلقى معلوماته التاريخية المعاصرة من دوائر المستشرقين وتلامذتهم الذين صوّروا الخلافة العثمانية، بمظهر النظام الاستبدادي البغيض مكتفين بسننهم الأخيرة دون أمجادها الأولى حيث صدت هجمات الغرب العسكرية طوال ما يقرب من خمسة قرون!!

وقد قصدتُ من شرح وتحليل الأحداث التي عاصرها الشيخ مصطفى صبري أن يقف القارئ على خفاياها وأسبابها ليتمكن من استيعاب آرائه عنها، فيصبح وكأنه يشاهد رواية محبوكة الأطراف بأشخاصها وحوادثها و(العقدة) الرئيسية فيها، ثم ختامها المأساوي الذي أرجو الله تعالى استخلاص العبرة الكبرى منه فيصبح درساً مفيداً يقنع المسلمين بأنه لا بد للعلاج ما حدث - عاجلاً أو آجلاً - حتى يلتئم شملهم من جديد ويعودون إلى رباط الخلافة مرة أخرى، وهو مطلب ملح وضروري قد يصعب تحقيقه عاجلاً، ولكن يسهل بإذن الله تعالى تحقيقه آجلاً، على خطوات مدروسة، يتفق عليها قادتهم وزعماءهم، ولكن الخطوات الحثيثة بتوحيد نظام المعاملات الاقتصادية، أسوة بالسوق الأوروبية المشتركة، ثم إيجاد التعاون العسكري، ويأتي بعد ذلك التلاحم الذي لا بد منه، لأن نظام الخلافة هو (أيديولوجية الإسلام).^(١)

ولنقف هنا لتأمل ما حدث من تفهقنا عن النظام المثالي الذي نتحقق في عصر الخلافة الراشدة في القرون المفضلة الأولى، وظل يتحقق بصورة أو بأخرى مع الوهن الضعف والمساوي، ولكن كان محققاً لوحدة المسلمين في أحلك العصور التاريخية، وظلت قلوب المسلمين متعلقة به محافظة عليه حتى أرغمت بالقوة العسكرية على يد

(١) ينظر مقال الدكتور فهمي الشناوي (الخلافة أيديولوجية الإسلام)، مجلة المختار الإسلامي، العدد ١٤-١٥، رمضان سنة ١٤٠٠هـ / أغسطس ١٩٨٠م، ص ١٥-٢٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مصطفى كمال أتاتورك - ووراء أوروبا والمخطط اليهودي الصليبي - عن التحلى عنه وأخذت تطبق النظم الأوروبية الشرقية والغربية، في وقت بدأت فيه أوروبا تطور نظمها إلى الأحسن فتهتدى إلى ضرورة الوحدة وتحاول اللحاق بالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، لأن هاتين الدولتين قد سبقها بدورها إلى تحقيق نظام (العالمية)، حيث أذاب الروس الوطنيات والقوميات والشعوب في بوتقة (الشيوعية العالمية)، وبالمثل حققت الولايات المتحدة الأمريكية تكاتف الشعوب والجنسيات المختلفة التي هاجرت إلى العالم الجديد مندمجة في نظامها السياسي الموحد.

ألا يحق لنا أن نتمسك بعالمية النظام الذي حققته (الخلافة) في الوقت الذي يتجه فيه العصر إلى الوحدة والعالمية؟ إننا لو حققنا ذلك لا نكون مقلدين، بل نعير عن (انتفاضة) صحيحة تعلو بنا وبواقعنا المتردى إلى مصاف الدول الكبرى، لنؤكد الذاتية الأصلية لأمتنا من جديد، حيث حُرمت قسراً من نظامها الذي وحّدها طوال تاريخها.

وعندما نعرّف بالأشخاص الوارد ذكرهم في الكتاب، والوقائع التي اشتركوا فيها وأبرز الأحداث المصاحبة لها، عندئذ سيصبح بمقدورنا مشاركة المؤلف في أفكاره وعواطفه المتأججة بين الآلام والأحزان والفواجع، وبين السخرية والتهكم على نقاده ومعارضيه الذين ظنوا به الظنون، ووجهوا إليه الاتهامات، لأنه وقف وحده يصرح بما في وسعه ليُنَبِّه المسحورين بأتاتورك والمخدوعين فيه، منبهاً إياهم إلى عدائه للإسلام والمسلمين، وخداعه ومراوغاته ومكائده وعلاقاته الوثيقة بجمعيات الماسونية والمخطط اليهودية والاستعمار الغربي، مثلاً في إنجلترا حينذاك.

وقد تثبت من الروايات التاريخية التي سردها المؤلف بالرجوع إلى مصادر

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

متعددة، فتبين لي صدق الشيخ وأمانته، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما وصف به مصطفى كامل بأنه شارب حمر ومراوغ وخائن لأمته وأصحابه ومعاونيه، فقد أيدت مصادر متعددة - سيأتي ذكرها ضمن تعليقاتي - أيدت كل ما قاله الشيخ عنه، بل ثبت بمضى الأيام والسنين صحة ما توقعه الشيخ مصطفى صبري من كوارث أصابت تركيا والعالم الإسلامي بعد هذا المصاب الجلل. وها نحن نعيش هذه الكوارث التي تحيق بنا من كل جانب!!

ونجد ظاهرة أخرى تميز بها منهج الكتاب، إذ أشفع المن بتعليقات بمامش الكتاب يشرح بإفاضة ما أورده بالمن، ثم أتبع النص بتسجيل القرارات التي أصدرها مصطفى كمال بواسطة المجلس الوطني الذي صنعه واختار أعضائه، وكانت هي بخلافها معبرة عن الخطوات التي توقعها المؤلف منذ فصل أتاتورك بين الخلافة والسلطة وهادن المسلمين وخذعهم حتى تم له الأمر في النهاية.

وسيطالع القارئ رواية مأساوية تزعجه، بأساليب الخداع والكذب التي اتبعها مصطفى كمال أتاتورك، وحيله اللاأخلاقية التي لم تسلم منها حتى زوجته وأقرب المقربين إليه من أصحابه وزملائه ومعاونيه الذين استخدمهم للوصول إلى أغراضه ثم لفظهم في النهاية، كما توضح حقائق تاريخية مذهلة بكل أبعادها لدارسي التاريخ المكتفين بروايات أعداء الإسلام، حيث ظلوا يشوهون تاريخ الخلافة الإسلامية ومحمدون (الغازي) أتاتورك، بينما يبرهن كتاب (النكير...) على أنه مجرد خائن لوطنه ولأمته، وعميل مخلص لمخططات شيطانية استهدفت الأمة الإسلامية في وحدتها حتى تفتح أبواب الاستعمار الغربي والتبشير الصليبي والغزو الصهيوني!!

ويسهم هذا الكتاب في إيقاظ الوعي التاريخي وتعريف الأجيال الجديدة بتاريخها الصحيح، فما الغرض من دراسة التاريخ إلا فهم الحاضر - لأنه ابن

السرار البقية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الماضى - والسير بخطوات سليمة نحو مستقبل أفضل بعد الدراسة الواعية واستخلاص العبر والاستفادة من الأخطاء والتعلم من دروس التاريخ الصحيح المدعم بالوثائق.

ومحور الكتاب يدور حول إقناعنا بجدية نظام الخلافة للأمة الإسلامية، إن أراد المسلمون العودة إلى الكرامة والسودد والنفوذ العاملة والمكانة الدولية المهابة من جديد.

وكانت (كارثة) إلغاء الخلافة - كما أثبتت الأيام - هي التمهيد الحقيقي لإنشاء إسرائيل وضياع القدس - مسرى رسول الله ﷺ وبها ثالث المساجد التي لا تُشدُّ الرحال إلا إليها دون مساجد الأرض جميعاً - وكان الرسول ﷺ يرسم لنا الحدود الآمنة لدولة الإسلام التي ينبغي المحافظة عليها ليصبح المسلمون في مأمن من المخاطر، وإلا أصبح وجودهم في خطر كما هو الآن!!

وبينما كتاب (النكير...) في المطبعة أصدرت حكومة مصطفى كمال قرارها المعروفة بإلغاء الخلافة ونفى آل عثمان وإلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية والأوقاف، ونشرت الجرائد التركية أن الحكومة التركية ترمى في حركتها الأخيرة إلى وداع الدين، فقال الشيخ تحت عنوان:

(قطعت جُهيزة قول كل خطيب)

ولو كان القراء المسلمون طالعوا كتابي هذا، وقبل صدور تلك القرارات من حكومة أنقرة، لاحتل أن يجدوا لهجته خارجة عن حد الاعتدال، بل عن حد الحق، ويحملوا على المبالغة وشدة الخصومة على ما فيه من شدة (النكير) على الكمالين، فكان كتابي الذي صدر عن صميم قلب مثتهب ومكتتب، أبي الله لا أن

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

يقرن حججه الخامسة بحجة اعتراف الخصم.^(١)

والمشكلة^(٢) التي صادفتني هي كيفية شرح الحقائق والأسرار المختفية وراء إلغاء الخلافة التي ربما لم يسمع بها القارئ من قبل.

وتصبح مهمتي أكثر صعوبة إذا كانت فكرة القارئ عنها مغايرة للحقيقة والواقع. ولابد من الاعتراف بأن مررت بنفس التجربة، إذ خضعت في فترة طويلة من حياتي - كأقران وأبناء جيلي - إلى عملية تشويه للمعلومات وإساءة للتاريخ الإسلامي وعلمائه وقادته الأصليين الذين تعرضوا لحمولات تشهير واسعة النطاق.

كذلك كنت أحس بثقل التبعة، تبعة هذا الكتاب لإحاطة المسلمين بأهمية مضمونه والتعريف بمؤلفه، وظل هذا الإحساس يتتابئ منذ كنت أعد لرسالة الماجستير عن نظام الخلافة، إلى أن أذن الله تعالى وشاءت إرادته أن يمنحني - وأنا العبد الفقير لمولاي عز وجل - القدرة على تحقيق ما كنت أصبو إليه.

(١) ص ١٩٨، من كتاب (النكرو...).

مع العلم بأننا اكتفينا في طبع من الكتاب عند هذا الحد، حيث سجل المؤلف بعده قرارات حكومة أنقرة المشار إليها آنفاً، كما نشرتها المراجعة التركية، إذ رأينا أن مجرد بيانها إجمالاً يغني القارئ عن إثباتها بنصها خشية الإطالة والإملال.

وقد اعتمدنا على طبعة بيروت الصادرة في شعبان ١٣٤٢هـ / ٢٠ مارس ١٩٢٤م.

(٢) أما المشكلة الثانية فهي كيفية طبع المتن الذي كان أحياناً يتكون من نصين، أحدهما أصلي والثاني تعليق بالهامش.

لذلك حذفنا تعليقات المؤلف التي رأيت فيها تكراراً وإطناباً لا يفيد القارئ، مكتفياً ببعض التعليقات التي رأيتها هامة وتقدم الجديد، وميزت بينهما وبين تعليقاتي بالحرفين (م.ص) اختصاراً لاسم المؤلف.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

فالحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأً، واللهم إن أسألك الرحمة لمؤلف الكتاب،
والدعاء بحسن الجزاء لكل الذين عاونوني في نسخه وطبعه ونشره.
والله اجعل عملي فيه ذخر آخرتي. ✓

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

مصطفى حلمي

الإسكندرية في:
٧ المحرم سنة ١٤٠٥ هـ
٢ أكتوبر سنة ١٩٨٤ م

محتويات المقدمة وموضوعات الدراسة

- ❖ منهج البحث.
- ❖ الشيخ مصطفى صبري.. حياته وعصره.
- ❖ نظرات الشيخ وتحليلاته لأحداث العصر.
- ❖ علمه وخلقه.
- ❖ لمحات عن مواقفه العلمية وأقواله المأثورة.
- ❖ بعض الأسرار التي كشف عنها الكتاب.
- ❖ دور كمال مصطفى أتاتورك في القضاء على الخلافة.
- ❖ كلمة عن الخلافة العثمانية.
- ❖ العداء الأوروبي الصليبي.
- ❖ الخلافة العثمانية ليست استعماراً.
- ❖ آراؤه السياسية:
- عدم الفصل بين الدين والسياسة.
- الرد على كتاب (الإسلام وأصول الحكم).
- حكومة النبي ﷺ .
- حكومة أبي بكر الصديق.
- ❖ عدم جواز فصل الدين عن السياسة.
- ❖ حقيقة فصل الدين عن السياسة.
- ❖ معالم نظريته السياسية.
- ❖ السلطان عبد الحميد (الخليفة المفترى عليه).
- ❖ حقيقة مدحت باشا.

منتهى البحث

أولاً: بدأنا بمقدمة للتعريف بالشيخ مصطفى صبري والتيارات السائدة في عصره، لإعطاء القارئ فكرة عن الجهد الذي بذله المؤلف وسط اتجاه عام قوى مضاد.

ثانياً: عرّفنا بالأشخاص والجمعيات والأحداث البارزة حتى يتمكن القارئ من استيعاب نصوص الكتاب بعد مضي أكثر من نصف قرن على تاريخ تأليفه^(١) حيث أخفيت خلاله عن عمد وجهة النظر الإسلامية، وأبرزت وجهات النظر المضادة في كتب التاريخ وفي تعليقات معظم المحللين والمؤرخين وكتب المقالات.

ومما يؤسف له أن أغلب الأجيال الجديدة تعرف مصطفى كمال أتاتورك، بصفته الزعيم الوطني صاحب النهضة التركية الحديثة، ولا يكاد يعرف أحد - اللهم إلا القلة - شيئاً عن مصطفى صبري - آخر شيخ للخلافة العثمانية - بينما قاد الرجل - رحمه الله تعالى - حملة كبرى أعزلاً إلا من سلاح إيمانه، فهاجر بدينه من تركيا، ولم يلق إلا الجحود والرمى بالخيانة، ولكنه كان مثلاً لصبر المجاهدين!!

فهل آن لنا معرفة تاريخنا الإسلامي بأقلام أمينة وطرح المزيّف جانباً؟

وهذا الكتاب دليل، ما بعده دليل، على معرفة كيف تُزيّف الحقائق!!

(١) ولتذليل صعوبة استيعابه، حيث جرى تأليفه - كما وصفه الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله تعالى - على الطريقة العربية القديمة.

الاجتماعات الوطنية في الأدب المعاصر، ج-٢، ص ٦٩، مكتبة الآداب بالجماميز، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

ثالثاً: تبين لنا صحة توقعات المؤلف بناء على وقوفه على أسرار - ربما انفرد بها أو عرفها القليلون في عصره - وذلك نتيجة منهج المقارنة في دراسة الكتاب بين مضمونه وبين الوثائق التي نشرت أو ترجمت إلى العربية بعد ظهور حركة أتاتورك اللادينية.

ولعل الوثائق والمؤلفات الصادرة بعدها تضيء مزيداً من اليقين على صدق الشيخ في كل ما رواه، ولكنها في الوقت نفسه تحمل معلومات ووجهات نظر متناثرة جزئية.

أما كتاب الشيخ مصطفى صبري، فإنه ربما يعد من هذه الزاوية بمثابة الوثيقة الوحيدة المثبتة للخطط اليهودية والصليبية ضد الخلافة العثمانية، حيث سجلها خطوة خطوة، وشرح أبعادها كلها، وحذر منذ البداية من خطورة نتائجها. لذا، فقد أطلقنا على الكتاب عنواناً جديداً مطابقاً لما أسفرت عنه الانقلابات، فسميناه:

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

مع المحافظة بطبيعة الحال على اسمه الأصلي (النكير...)، والمؤلف نفسه أفادنا في الكتاب عن سبب (نكيره) على الحكام الجدد لتركيا.

وابتداءً: بجميع الحقائق والاهتمام بإبراز الدور الذي قام به مصطفى كمال ضد الخلافة الإسلامية والإسلام، حيث يدور محور الكتاب حول توضيح شخصية الرجل وتصرفاته العدائية إذ قام بدور مزدوج:

أحدهما: طعن الإسلام في عقيدته ونظامه التشريعي والسياسي.

والثاني: فرض النظام الغربي بالقوة المسلحة.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وقد أزاح الشيخ مصطفى، الستار عن صلته بطائفة (الدوغمه) اليهودية، كما اعترفه صنيعه الدولة الصليبية.^(١)

ونحن لا نحاكم الرجل، فالأولى بذلك أهله وقومه، ولكن ما يهمنا هو امتداد عدواه إلى المسلمين في رقعة بلادهم جميعاً، مما يحملنا مسئولية تعريته وكشف عوراته وعورات نظامه، لأنه مازال مع الأسف الشديد يعتبر نموذجاً في عقول كثير من المسلمين المخدوعين فيه وفي الدور الذي أداه، ويتخذ منه مثلاً أعلى للتحضر واللاحاق بمحضارة العصر!!

وخير شاهد على ذلك ما خاضه المسلمون من تحارب مقتنين آثار أتاتورك، فماذا حققوا؟!

إننا إذا استعرضنا صور الإخفاق المتعددة على أثر محاولتنا إقامة البنيان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وفق النموذج الغربي، وبعد أن منبنا بالهزائم العسكرية والسياسية، وأصابنا التدهور الاقتصادي، وفجعنا حقائق النكوص العلمي والأخلاقي، واستيقظنا على حقيقة نظرة أوروبا لنا بشطريها الشرقي والغربي كفريسة تريد التهامها، بعد هذا كله، أصبح على رواد الفكر إعادة تقديرهم أمام هذه النتائج المشاهدة:

١- الفشل في التقليد، وهذا يعني أن لنا أصولاً حضارية أخرى.

٢- أزمات الحضارة الغربية وإخفاق النظريات في مجال التطبيق، وظهور حركات جديدة بين شبابها تعبر عن أزمة إنسانية وأخلاقية حيث عجز الفلاسفة والقادة عن إيجاد العلاج.

(١) موقف العلم والعالم، ج ٤، ص ٣٣٦، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

ولا يصح النظر إلى هذه الأزمات على أنها تعبر عن فترات مؤقتة، أو أنها ظواهر عابرة، وذلك لسبب بسيط، وهو اعتراف مشاهير فلاسفتهم وعلمائهم أنفسهم بعمق هذه الأزمات وخطورة آثارها، وإنذارهم لبني قومهم بما ينتظرهم من كوارث الانهيار.

وإدرسوا آراء شينجلر وتوينبي وكولن ولسن وبرتراند رسل وجارودي وغيرهم.

٣- إن التجربة الكمالية المضادة لحركة التاريخ الإسلامي^(١) تصلح بذاتها كمنهج منهجي نقيس به التغييرات التي حدثت في العالم الإسلامي كله عقب إسقاط الخلافة الإسلامية على يديه وشق الطريق نحو الغرب، وكان خط الارتقاء والتطور الطبيعي يقتضى المحافظة على الذاتية الإسلامية وملاحقة خطوات التطورات العلمية - كما فعلت اليابان مثلاً.

إننا ننادى بضرورة الاحتكام إلى منهج ثابت في دراسة ما حدث في بلاد المسلمين في العصر الحديث عقب انقراض عقد وهدمهم، أي نظام الخلافة.

ونطرح على بساط البحث بعض الأسئلة التي تشكل الإجابة عليها إطاراً عاماً لمنهج أقرب إلى الصحة من غيره.

ومن الأسئلة التي نطرح لهذا الغرض:

(١) ولا نقول هذا جزافاً، لأنه ثبت أنه عندما كان يرقد على فراش الموت حشى ألا يجد شخصاً يخلفه للاستمرار في رسالته، فاستدعى السفير البريطاني ورجاه أن يخلفه في منصب الرئيس!! نشرت جريدة "الصنداي تايمز" برقية السفير إلى حكومته ونقلتها جريدة الأهرام في عددها الصادر في ١٥/٢/١٩٦٨م، وقد نشرها الأستاذ مصطفى السعدني في كتابه (الفكر الصهيوني)، ص ٢٢٠-٢٢١، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

١- ما مدى استمساك الأمة بعقيدتها وشريعتها؟

٢- ما أسباب التدهور والانحطاط الداخلية؟ وكيف يمكن علاجها؟ وما العقبات التي صادفت الزعماء المصلحين.. ولمَّ عجزوا عن التغلب عليها؟

٣- الصراع مع الاستعمار الأوروبي بدوله كلها ومتابعة خططه وأساليبه في بلدان العالم الإسلامي مع وضع يدنا على استراتيجية العامة، وبحث مدى استمراره في تنفيذها.

وفيما عدا ذلك فإننا نلاحظ أن مناهج البحث انحصرت في إطار الأفكار الوطنية أو القومية، والفلسفية أو التقدمية (بالمفهوم الغربي) والاشتراكية أو الديمقراطية.

ولا يستطيع الباحث بهذا المنهج تقييم الأحداث التي مرت بها الأمة الإسلامية من حيث تفردتها بخصائص ذاتية. واتخاذ أي من هذه النظم كمعايير للتقييم تفقد الباحث حيوط الترابط، وتضيع جهده في الدراسة، كما ضاعت جهود الأجيال السابقة وراء تقليد حركة أناتورك على أرض الواقع.

فقد كنا كمن يقف على مفترق الطرق يبحث عن امتداد خط السير الذي بدأ به، وربما انحرف عنه أحياناً ولكن الاتجاه نفسه كان صحيحاً، ولكن بالوصول عند المفترق، ضل السائق الذي أسلمنا له القيادة بدلاً من الاستمرار في طريقنا الذي عرفناه، انحرف عن الطريق إلى طريق آخر لن يوصلنا إلى محطة الوصول سالمين، بل سيصل بنا إلى ما يشبه الهاوية، إن لم تتداركنا رحمة الله تعالى وفضله.

بعبارة أخرى، فإنه من وجهة النظر الإسلامية فيما نعتقد، تعد حركة الردة الكمالية انتكاساً حضارياً وليست تطوراً إلى الأفضل، إذ حولت تركيا - ومعها العالم الإسلامي ببلداته المختلفة - إلى مجرد توابع لأوروبا، وذيل من ذيولها، بعد أن

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

كان في ظل الخلافة يقودها في عصورها الوسطى، ويهددها في عقر دارها في عصورها الحديثة!

ولإثبات هذا الواقع الذي نعيشه، رأينا من واجبنا إعطاء فكرة عامة عن شخصيتين من الشخصيات التي يدور حولهما تاريخنا المعاصر، ونقصد: السلطان عبد الحميد - آخر خلفاء المسلمين - وأتاتورك (الدونمي) لإزالة اللبس الراسخ في الأذهان عنهما، وتصحيح صورتيهما في عقول الأجيال الشابة.

وليس المقصود عرض السيرة الذاتية لهما، ولكن لأتبعهما يعبران في الكتابات والبحاث الغربية والمتغربة عن نظامين تقيضين، فقد شوّها سمعة السلطان عبد الحميد وقرنوه بالخلافة العثمانية (الإسلامية)، وكأته وحده يعبر عن هذه الخلافة عبر تاريخها الممتد نحو ستة قرون، ووصفوه بالحاكم المستبد (الأحمر).

ووضعوا على النقيض شخصية أتاتورك كفائد ثوري، سار بالشرق إلى الأمام نحو الحضارة!!

وسنرى مدى التحريف والتضليل في هاتين الصورتين، بناء على الرجوع إلى وثائق دامغة.

الشيخ مصطفى صبري حياته وعصره

أخذ العلم أولاً في بلده (توقاد)، ثم استأذن أباه للسفر إلى (قيصرية) لتلقي العلم، وكانت مشهورة بعلمائها بين مدن الأناضول، وسافر بعدها إلى الآستانة، وذلك كله لتحقيق رغبة أبيه الشديدة في أن يصبح عالماً من علماء الدين.

ثم عُين في سن الثانية والعشرين مدرساً بجامع السلطان محمد الفاتح - وكان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر بالقاهرة - ولكن أباه لم يرض على هذا التعيين إذ كان يوده استكمال تعليمه، فقال لبعض أصدقائه:

[استأذني لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية، فما ليث أن حصل على شهادة العالمية وتريع على كرسي التدريس، وكان الواجب عندي أن يستمر في التعليم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل].^(١)

وبلهجة المعتذر يخاطب أباه في مقدمة الكتاب، فيعدد الأسباب المعوقة لآمال أبيه فيه، حيث تولى وظيفة التدريس بمرتب الحكومة، ثم منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية.

ولكنه يختتم ذلك بذكر مجالات نشاطه وعمله وجهاده ليعوض أباه عما سلف ويكتسب رضاه وإعجابه، فيقول في عبارة جامعة لترجمة حياته في إجمال:

(١) مقدمة كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين)، ط. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلفاء العلمانية

[ولكنك لو رأيته وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق، في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح، معانياً من خلاله ألوان الشدائد والمصائب ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ، مع اعتقال فيما وقع بين المحترتين، غير محس يوماً بالتندامة على ما ضحيت به في هذا السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها - لأوليتني إعجابك ورضاك].

ثم يذكر أنه ألف كتابه الكبير، أي (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)^(١) في سنوات عمره الأخيرة أثناء توقيعه في المهجر، عن الجهاد السياسي متفرغاً للجهاد العلمي الديني، فجمع فيه (ما يحتاج المتعلم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصري، وناضلت أشتاتاً من أهل العلم والأدب في الشرق والغرب أحياناً وأموثاً)^(٢)

ومن المصادر النادرة التي تستمد منها ترجمة لحياته: كتاب الدكتور محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، نقلاً عن الأستاذ إبراهيم صبري^(٣) - أستاذ اللغات الشرقية بجامعة الإسكندرية سابقاً، وهي:

(١) ومن كتبه المطبوعة بالعربية:

١. مسألة ترجمان القرآن. ٢. قول في المرأة. ٣. تحت سلطان القدر. ٤. القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون (ثم جعله أحد فصول كتابه الكبير). (٢) نفسه، ص ٢. (٣) علمنا أنه توفي - رحمه الله تعالى - في سبتمبر سنة ١٩٨٣م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

[غادر الشيخ مصطفى صبري الأستانة فراراً من الكمالين قبيل استيلائهم عليها سنة ١٩٢٣م، فحضر إلى مصر، ثم انتقل إلى ضيافة الملك حسين في الحجاز. ثم عاد إلى مصر، حيث احتدم النقاش بينه وبين المتعصبين لمصطفى كمال، فسافر إلى لبنان، وطبع هناك كتابه "النكير على منكرى النعمة"، ثم سافر إلى رومانيا ثم إلى اليونان، حيث أصدر جريدة "بارن" ومعناها: "الغد". وظل يصدرها نحو خمس سنوات حتى أخرجته الحكومة اليونانية بناءً على طلب الكمالين، فاستقر في مصر إلى أن توفي بها سنة ١٩٥٤م/١٣٧٣هـ.

وقد بدأ مصطفى صبري نشاطه السياسي بعد إعلان الدستور الثاني سنة ١٩٠٨م، إذ انتخب وقتذاك نائباً عن بلدته (توقاد) في الأناضول، فبرز اسمه وقتذاك لمقدرته الخطابية، ولم يلبث حين تبين سوء نية الاتحاديين أن انضم إلى الحزب الذي تألف من الترك والعرب والأروام الذين يعارضون النزعة الطورانية التي اتسم بها الاتحاديون وقتذاك، وكان نائباً لرئيس هذا الحزب المعارض.

ولما استفحل نفوذ الاتحاديين فر من اضطهادهم سنة ١٩١٣م، فأقام في مصر مدة، ثم تنقل في بلاد أوروبا حتى عاد إلى الأستانة مقبوضاً عليه عند دخول الجيوش التركية إلى بوعارست في الحرب العالمية، حيث كان يقيم لاجئاً إليها وقتذاك. وقد ظل معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة تركيا وفرار زعماء الاتحاديين، فعاد إلى نشاطه السياسي في الأستانة، وعُيِّن شيخاً للإسلام وعضواً في مجلس الشيوخ العثماني ونائب عن الصدر الأعظم في رئاسة الوزارة أثناء غيابه في أوروبا للمفاوضات. وظل في منصبه إلى أن استولى الكماليون على العاصمة، ففر إلى مصر.^(١)

(١) الاتحاديون الوطنيون في الأدب المعاصر، جـ ٢، ص ٣٢٧-٣٢٨، مكتبة الآداب بالجامعة، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وقد مرت حياته السياسية بمواقف صعبة ومحن مستمرة، منها:

♦ العداء الذى لقيه فى مصر بسبب خداع مصطفى كمال أتاتورك الذى أصاب غالبية الشعب المصرى، فضلاً عن تشجيع الإنجليز واليهود لبعض العناصر لمضايقته وإلحاق الأذى به والقامه بالخيانة.

♦ التمس الأمر بينه وبين شيخ الإسلام الأسبق (عبد الله بك درى زاده)، حيث نسبت إليه صحف مصر الفتوى التى أصدرها الثانى أيام الخليفة محمد وحيد الدين، معلنة بنفى مصطفى أتاتورك وخروجه على الإمام.

ويبدو أن خصومه استغلوا هذه الفتوى لإثارة العامة ضده حينما كانت الفتنة بأتاتورك قد عمت الجميع.

♦ كان يعاني من الفاقة طوال هجرته، فقد اضطر إلى بيع كتبه للحصول على نفقات سفره مع أسرته من الأستانة إلى الإسكندرية ولم يستطع إلا ركوب الدرجة الثالثة.

♦ واستدل بذلك على استقامته ونزاهته وطلبه للرزق الحلال، إذ بالرغم من توليه منصب المشيخة الإسلامية أربع مرات فإنه لم يوفر عشرات الآلاف من الجنيهات التى كان فى إمكانه الحصول عليها لو فرط فى نزاهته وعان أمانته وقبل التعاون مع الاتحاديين.

وقد نقل لنا الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة بعض أبيات الشعر التى تفيض بالأسى والحزن، إذ قارن فيها بين زهده الجبرى وزهد غاندى الاختيارى وقتذاك، وجاء فى نهايته هذه الأبيات التى قال فيها:

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخليفة العثمانية

في سبيل الإسلام ما أنا لاق
فليعيش رغم مسلمي العصر دين
وكان مثلي يموت جوعاً ولا يُعرف
لو كان شيخهم شيخ هندياً^(١)

ولئن متُّ فليعيش هو بعدى
ضيعوه ولم يقووه بعهد

(١) عبد الفتاح أبو غدة: صفحات من صبر العلماء على شدايد العلم والتحصيل، ص ٦١، وينظر تعليقنا ص ٢٢٢ بهذا الكتاب.

نظرات الشيخ وتعليقاته لأحداث مصر

تلاحقت الأحداث أثناء حياته، وكأما كانت على موعد معه ليبدى آراءه فيها، فتصلنا عبر مؤلفاته لتتير للمسلم المعاصر طريق الرؤية الصحيحة وسط الضباب الكثيف الذى أحدثه دخان المعارك ضد الإسلام والمسلمين.

وتتصل تحليلاته وتعليقاته بوحدة فكرته النابعة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو شبيه في تفسيره لفلاسفة التاريخ.

وكانت أهم الكوارث التى أصابت المسلمين في مقتل هي:

أولاً: تضافر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية باعتبارها التجسيد الحى للأمة الإسلامية وقتذاك.. فأخذ الغرب يقطّع أجزاءها، فاقتطعت روسيا منذ عهد كاترين سنة ١٧٦٢-١٧٩٦م بعض الأراضى والولايات، ثم توالت بعدها الحملات العسكرية الاستعمارية، فهاجم نابليون مصر عام ١٧٩٨م، ثم توالت بعدها الحملات العسكرية الاستعمارية، فهاجم نابليون مصر عام ١٧٩٨م، ثم احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م وتونس عام ١٨٨١م ومراكش عام ١٩١٢م، كما احتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١م. وكانت الدول متفقة على اقتسام ميراث السلطنة العثمانية عند زوالها من الوجود، فكانت بريطانيا تطمع في بترول الموصل وضمن إنشاء خط ثانٍ للهند وهو خط برى يمتد من فلسطين إلى الخليج الفارسي.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وكانت فرنسا تجاهر بأنها ستصيب استقلالها الاقتصادي بما تجنيه من القطر في حلب ومن الحرير في لبنان والصوف في سوريا، وكانت إيطاليا مقتنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول. وكانت روسيا تطمح في قسم من تراقية وآستانة وأرمينيا وكردستان.^(١)

كما احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩م، وبسطت حمايتها على الخليج والمحميات من حدود اليمن الجنوبية إلى شرق الجزيرة، وكان الإنجليز قد استولوا على الهند قبل ذلك، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين، ثم استولوا على مصر عام ١٨٨٢م، وعلى السودان عام ١٨٩٨م، واستولت هولندا على جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) وحوصرت أفغانستان تحت الضغط الإنجليزي والروسي، كما حوصرت إيران.

ولم يكفّ الغربيون عن إشعال الثورات في داخل الدولة العثمانية.. باعتبارها الدولة الإسلامية التي تمثل المسلمين، فحرضوا شعوب البلقان على الثورة منذ عام ١٨٠٤م، وأمدقهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الخلافة سنة ١٨٧٨م، كما حرضت اليونان على الثورة منذ عام ١٨٢٠م، حتى استقلت عن الخلافة سنة ١٨٣٠م. ولم يكتف أهل الغرب بذلك، بل شجعوا الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب، وحركوا الثورة العربية بواسطة عملائهم، كلورنس وجلوب، وأثاروا فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية بغرض التفرقة والتفتيت.^(٢)

ثانياً: انتهت حركات التطويق والإغارات والتفتيت بإلغاء وجود الدولة الإسلامية في شكلها الأخير - ويعني بذلك الخلافة العثمانية - على يد مصطفى

(١) أوجين يونغ، الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية، ص ٥٨، مطبعة النهضة بمصر، سنة ١٩٢٨م.

(٢) صيخ عاطف الزين، عوامل ضعف المسلمين، دار الكتاب اللبناني، ص ٢٢ وما بعدها.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

كمال أتاتورك. وكان للفتنة اليهودية دورها في سلسلة محكمة الحلقات، فمنذ تأمر عيد الله بن سبأ الذي أطلق فكرة تأليه البشر وتأمر على قتل الخليفة الثالث وأشعل أتباعه نار الفتنة في واقع الجميل وصفين، نجد هذا الدور يؤديه آخرون بالدهاء والخبث نفسه، فقام ابن كلس وزير الأخشيدي بإفشاء أسرار البلاد للمعز لدين الله الباطني، وهو لا يختلف عن دزرائيلي الذي اشترى لقومه أسهم قناة السويس.^(١)

وأخيراً.. ظهر رأس الرمح الموجه للقدس بيد ثيودور هرتزل الذي ظل ست سنوات كاملاً يحاول بمجهود متواصل ورجاء المتوسل الملح أن يتمكن من مقابلة السلطان عام ١٩٠١ ليضع خدمات اليهود في خدمة الدولة تمهيداً للحصول من جلالة على تصريح لصالح اليهود.

وعندما رفض، أخذوا يتحينون الفرص مع السعي الذي لا يهدأ، وكتب يقول:

[إن الأمور تتأزم في تركيا، إذا ازداد هذا التأزم بخصوص المسألة الشرقية وانتهى إلى حد يقضى بتقسيم تركيا في المؤتمر الأوروبي، فقد نتمكن من أخذ قطعة أرض محايدة لأنفسنا].^(٢)

ولم تكن هذه الأرض بطبيعة الحال سوى فلسطين.. التي وصلوا إليها عن طريق القسطنطينية. وإذا كان هناك من يشك في هذه الواقعة فعليه قراءة بروتوكولات حكماء صهيون، واستيعاب الرسم الرمزي لها المشبه بالأنف، حيث

(١) د. محمد بدیع الشریف، الصراع بين الموالى والعرب، ص ١٧٩، دار الكتب العربی، مصر، سنة ١٩٥٤م.

(٢) زهدی الفاتح، لورنس العرب، ص ٤٢-٤٨-٤٩.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

تظهر القسطنطينية كأنها المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم.^(١)

وكان الأخطبوط اليهودي يعمل في دأب مستغلاً أحوال العالم الإسلامي المنهارة ليخطط الخطوة تلو الأخرى.. ولذا نرى تلاحق الأحداث وصلتها بعضها ببعض، فقد انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في (بال) بقيادة هرتزل عام ١٨٩٧م، وتلاه عام ١٩١٦ عقد معاهدة [سايكس - بيكو] بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام بلاد المسلمين التي كانت تابعة للخلافة.

وفي نفس العام قامت الثورة العربية.. بقيادة (الشريف) حسين للتخلص من حكم الأتراك واستقلال البلاد العربية، فكانت نتيجتها وبالأعلى على العرب والمسلمين.

وفي عام ١٩١٧م.. صدر وعد بلفور ليعطي اليهود حق إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

وفي عام ١٩١٨م.. هُزمت تركيا واحتل الإنجليز فلسطين.^(٢)

وكان الشيخ مصطفى صبري وهو مؤلف كتابه (النكير...) يرقب هذه الأحوال ويحذر من فتنة اليهود، موجهاً الأنظار إلى استثنائهم في المعاملة دون باقي الأتراك.

ولا يدهشنا بعد ذلك إزاء فداحة الخطب أن يعبر عن إلغاء الخلافة فيصفيها بأنها بمثابة (طعن الدين من الداخل)، وقد ثبت أنه أصاب الحقيقة.. فما استطاعت الأصابع اليهودية الامتداد إلى القدس بخاصة وفلسطين بعامة إلا على أشلاء الخلافة العثمانية.

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) عبد الله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ص ٢٣٠-٢٣١، دار القلم، ١٩٦٥م.

السراير الخفية وراء إلقاء الخلفاء العلمانية

أضف إلى ذلك تحذيره من إثارة النزعات القومية والنزعات الإقليمية والعداوات بين المسلمين. وهنا تظهر أيضاً صحة توقعاته عندما عارض فكرة القومية الطورانية، وسخر من شعر (ضياء كوك آلب) الذي كان يتغنى به، فأخذ أتباعه يعدونه قرآن الترك.

فماذا حدث بعده؟

لقد نجح الاستعمار بنوعيه الشرقي والغربي في تفتيت الجسد الواحد، وحوله إلى دول ودويلات، لكل منها حاكم وعلم ونشيد وحدود جغرافية مصطنعة، وغاها بأفكار القومية والوطنية، فأصبح ولاء الأمة إما لأشخاص الزعماء والقادة ورجال الحكم والسياسة أو للأفكار والمذاهب والفلسفات الواردة، وبذلك حول الشعوب الإسلامية عن الولاء الوحيد الذي ينبغي أن تخضع له دون سواه، وهو الولاء لله الواحد القهار، وأتباع الرسول ﷺ، ولكي تنسى هدفها الأساسي المتضمن للآية: ﴿مَنْكُمْ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتسعى جاهدة لتجعل كلمة الله تعالى وحدها هي العليا.

واستطاع المؤلف بحكم معرفته بما يدور حوله من أحداث - راقبها وشارك فيها - أن يربط الأسباب بالمسببات، كذلك أراد بحكم معرفته بشخصية مصطفى كمال جيداً، أن يفتح أعين المسلمين على ما يُراد بالإسلام، ومكنته حصيلة الوافرة من المعرفة التاريخية. وخطط أعداء المسلمين^(١) - امتلاك القدرة على التعليل والتفسير، بدلاً من أن يعيش الأحداث منفصلة في الزمان والمكان، فأخذ يقارن بين خطوات الكماليين وما فعلته الثورة الفرنسية قبلهم، ويحلل الدوافع الكامنة وراء

(١) لأنه ناب - كما مر بنا - عن الصدر الأعظم في رئاسة الوزارة أثناء غيابه في أوروبا للمفاوضات.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

التصرفات التي بدت في ظاهرها إصلاحية جزئية، أو انتصارات مؤقتة، فحدعت الكثيرين من معاصريه، ولكنها لم تحدعه، ولهذا جاءت الحوادث كلها مؤيدة لصدق حدسه!!

علمه وخلفه:

كان الشيخ حافظاً للقرآن الكريم، محيطاً بالسنة النبوية فأهلاً لعقيدته الإسلامية حتى الفهم، فقيهاً عالمياً بأصول الفقه - وربما قارب مرتبة الاجتهاد - واثقاً بنفسه، معتزاً بإسلامه وأمته وحضارته، محيطاً بما يدور في عصره سواء في بلاد المسلمين أو العالم الخارجي.

لذلك تمكن من وضع يده على مكامن الانحراف في عقائد معاصريه من العلماء، ولم ترهبه أسماءهم ولا مراكزهم الوظيفية، لإحساسه بثقل المسؤولية على كاهله، لاسيما أنه كان شيخ الإسلام في الخلافة العثمانية^(١)، وهو مركز علمي مؤثر كان له النفوذ الواسع أيام أيجاد الخلافة.^(٢)

كما نظر إلى حضارة الغرب بنظر المعتز بإسلامه، الفخور بتاريخ الحضارة الإسلامية ومكانة الشريعة الإسلامية التي تعلو على سائر الشرائع.

(١) يقرر الدكتور عبد العزيز الشناوي، أن الدولة العثمانية كانت حريصة كل الحرص على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية، فأنشأت لذلك الغرض الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وجعلت لها اختصاصات واسعة، ورصدت لها موارد مالية ضخمة، وكان شيخ الإسلام هو الذي يرأس هذه الهيئة. وكانت تعاونه بمجموعات من كبار علماء الدين.

من كتاب (الدولة العثمانية.. دولة إسلامية مقترى عليها)، ص ٢٣، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٨٤م.

(٢) لمزيد من التفاصيل، ينظر المرجع السابق، الفصل الرابع عشر، من ص ٣٩٦ إلى ص ٤٢٠.

الأسرار الخفية وراء الفهم الخلفاء العلمانية

لهذا كان يتعجب من المفتونين بكل ما يرد من الغرب الزاحف على المسلمين عسكرياً وثقافياً واقتصادياً، ويطالبهم بالتخلص من هذا المرض النفسي، ولا يرى سبباً للتخاذل أمام دول تزعم التحضر وهي في الحقيقة طامعة حاكمة تفهم العدل بمقاييسين: أحدهما لمواطنيها، والآخر للتعامل مع الدول المغلوبة!!

وبلغت محنة الرجل ذروتها عندما كان يقرأ ويسمع ويشاهد (الازدواجية) بين الحقيقة والواقع، وبين البيانات المزورة المعلنة للجماهير المسوقة بعواطفها وراء قادة خونة، وحملة أقلام غير أمناء.

وتعجب شيخنا أكثر ما تعجب عندما أطلقت تغاريد النصر ورفعت أكايل الفخر على هامة مصطفى كمال، بينما يقتضى الواجب ذرف الدموع ساخنة على ما ينتظر المسلمين من مآسى!!

تعجب لأن الجميع هلّوا لأتاتورك لانتصاره (الظاهري) على إنجلترا وإخراج اليونان من أزمير.^(١) بينما استطاع الشيخ مصطفى بدراسته العميقة لشخصية أتاتورك وأعماله وتاريخه وانتماءاته، استطاع أن يوقن بأن ما حدث كان تمثيلية وراءها (سر عميق).. فقد عقدت إنجلترا مع مصطفى كمال، صفقة عمرها - بل صفقة عمر أوروبا كلها - حينما تنازلت بمحض إرادتها، أجل، بمحض إرادتها وهي الخارجة المنتصرة من الحرب العالمية الأولى، تنازلت عن أزمير لتظهر أتاتورك أمام العالم الإسلامي بأنه (المنتصر) و(الغازي)، ثم تفرض شروطها عليه لتتخلص - وبصفة نهائية كما يشهد التاريخ المعاصر - من المقاومة الفعالة المؤثرة للاستعمار الغربي في ظل راية (الجهاد) الذي كان يعلنه خليفة المسلمين كلما تعرض أى بلد من بلادهم لخطر الغزو والاستعمار.

(١) وكانت اليونان قد احتلت أزمير بمعاونة الحلفاء، ولكن استطاع الأتراك بعد تقلى الإنجليز عن اليونانيين أن يستردوا مدينة أزمير.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وكان لها ما أردت..!!

ورأى الشيخ مصطفى صبري أن واجبه يقتضي الوقوف في وجه تزيف الحقائق وإظهار ما وراءها من أسرار.

ولتقريب فهم الدور الضخم الذي قام به الشيخ، نحمل موقفه في هذه الدوائر الثلاث:

١- إظهار حقيقة انتصار (الغازي) لأنه في الحقيقة هزيمة للمسلمين وضياع للخلافة الإسلامية.

٢- فصل الدين عن السياسة لينفرد كل منهما باختصاصه وشئونه كما زعم أتاتورك^(١)، ولكنه في الحقيقة إبعاد الإسلام عن الحكم وتحويل النظام الحاكم في تركيا إلى نظام لا ديني، بل معاد للدين وللمتدينين.

٣- أن التقدم والتطور إلى الأمام وراء أوروبا هو في حقيقته تراجع وتقليد ومهانة.

وكان الشيخ يصرخ بأعلى صوته، وهكذا نشعر عند قراءة صفحات كتابه، كان يصرخ منفعلاً أشد الانفعال، واصفاً بالكفر الصريح الكماليين قاطبةً ومن سار على نهجهم من الكتاب العصريين، الذين يسحرون الناس بأقلامهم وهم يبطنون الإلحاد ويخشون إعلانه.

(١) يقول الشيخ مصطفى صبري: (إن الراغبين في تجريد الحكومة من الدين يسمونه فصل الدين عن السياسة تخفيفاً لخطره وسوء تأثيره في سمع الأمة المتدنية، فهم يتوسلون على القضاء على دين الحكومة بأن يعيروا عن هذا القضاء بالفصل بين الدين والسياسة، ثم يتوسلون بالقضاء على دين الحكومة إلى القضاء على دين الأمة). ص ٢٩١-٢٩٢.

الأسرار الخفية وراء إقام الخلفاء العلمانية

وهنا تتضح مع علمه وفقهه وإخلاصه، صفة أخرى خلقية يتميز بها العلماء المخلصون، ألا وهي (البطولة).

أجل.. إن الجهاد الذي قام بأعبائه في وجه عتاة الكماليين ليقاس أيضاً بجهاده العلمي إذا وزناه بميزان إحساسه بالغربة وسط العلماء المندفعين وراء تيار (التفريع).

لقد احتاج الشيخ إلى جهد خارق للمحافظة على ثقته بدينه وبنفسه وبأمنه وسط تيار شعبي مخدوع من ناحية، ومجموعة كتاب تريد الانسلاخ من الإسلام تحت شعارات لا مضمون حقيقي لها، تحمل لافتات: التجديد والتحديث والتقدم، وهي كالطبول الجوفاء تخفي وراءها وجوهاً كالحلقة، وجوه الإلحاد وتقليد الغرب تقليداً أعمى في كل شيء، مع الجهل أو التجاهل بحقيقة الإسلام وعقيدته وشريعته.

إن لم تكن هذه بطولة.. فما هي إذن؟!

لنتخيل قائداً يقف بمفرده أمام الأعداء ينادي جنده الفارين من حوله: (هلمَّ إلى.. الحق معي والنصر لي)، ولا يكاد يصدقه أحد!!

ثم تسير عجلة الزمن وتمضي الأعوام تلو الأعوام، وتنصهر الأمة في تجارب طاحنة ذهب ضحيتها الملايين، وذاقت خلالها المذلة والهوان، وتخلقت فألحقت بذيل الأمم بعد أن كانت في المقدمة.

وتبين - ولكن بعد فوات الأوان - صدق فراسة الرجل وصواب آرائه وشجاعة مواقفه!!

لمحات عن مواقفه العلمية وأقواله المأثورة

مع أن الكتاب مخصص لفكر الشيخ مصطفى صبري السياسي، غير أننا لا يمكن أن نغفل موقفه العلمي ودفاعه عن عقيدة الإسلام، لأنه لا يرى الفصل بين الدين والسياسة كما سنرى.

ومن هنا نراه مدافعاً بشدة عن عقائد المسلمين الأوائل، منكراً على المنحرفين فهمهم للإسلام بدعوى (التحديث) أو (العصرية).

وقد أخذ على عاتقه صد هجمات عنيفة مع كثير من العلماء، ووقف وحده يغالب الميهورين بمحضارة الغرب فاضطروا إلى إنكار أو تأويل بعض الأصول في العقيدة الإسلامية، واعتبرهم منحرفين عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية، قال في هذا الشأن:

[وأصل المسألة للمتعلمين العصريين من الكتاب عقيدة راسخة، أرسخها في أذهانهم العلم الحديث المادى الذى يؤمنون به فوق إيمانهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهى إنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات والنبوة بمعناها المعروف عن المليون، إذ لما رأوه منها فى كتب الحديث طعنوا فى صحته، ولما رأوه فى القرآن أولوه].^(١)

وكان الشيخ أمام موجة عاتية من تأويلات مسرفة تحشى عليها من إنكار أصول فى الإسلام ومن أهمها الإيمان بالغيب.

(١) ص ٢٤، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

وقد لاحظت المعركة التي دارت بين فرح أنطون منشئ مجلة (الجامعة) وبين الشيخ محمد عبده، ومن أقوال أنطون التي أثارت ودفعته إلى تأليف كتابه الكبير الآنف ذكره، هذا الرأي:

[إن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور وآخر غير منظورة، ومعجزة ووحى ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب في الجنة والنار، وكلها غير محسوسة ولا معقولة.. ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين في كل ملة ينادون بإبعاد العقل من الدين].

قرأى الشيخ مصطفى في هذا الرأي دافعاً لتأليف كتابه المسمى (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسالته)، وسبقه بالكتاب المشار إليه بالهامش.^(١)

وإن النظرة الفاحصة لأسماء العلماء الذين أورد ذكرهم في كتبه متقباً عن آرائهم ومعتزلاً على بعضها، هذه النظرة تساعدنا في تكوين فكرة عن أنقال المسئوليات العلمية التي ناء بحملها، فمن هؤلاء:

فريد وحدي، الشيخ محمد عبده، الشيخ رشيد رضا، قاسم أمين، طه حسين، دكتور محمد حسين هيكل، الأستاذ العقاد، زكي مبارك، الشيخ المراغي، الشيخ عبد العزيز البشري، الأستاذ أحمد أمين، الشيخ شلتوت.

ولكنه وجد أعواناً له التمسها في آراء أمثال الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ محمد زهران والشيخ محمد يس والعالم الهندي مولانا شبلي النعماني.

كذلك كان غيوراً على سنة رسول الله ﷺ لأنه لاحظ أن (الطائفة العصرية) لا تعول على كتب الحديث، حيث أوضح أن اعتماد السنة يجب أن يكون صنو

(١) المصدر نفسه، ص ١٩.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

الأخذ بالقرآن الحكيم، وعلى العكس فإن (التشكيك في أمانة منابع الإسلامية عن آخرها بالنسبة إلى الأحاديث يستلزم التشكيك في تلك المنابع بالنسبة إلى القرآن أيضاً).^(١)

وعاش الرجل في عصر فتنة العلم الغربي التحريري الذي طغى على العقيدة النصرانية في الغرب، وحاول المثقفون المتأثرون بأوروبا نقل الفتنة بحذافيرها إلى الشرق الإسلامي، ولم ينتهوا إلى اختلاف التصورين للعلم بين الإسلام والنصرانية، وعلاقته بالعقيدة في كل منهما.

ولم يعيش الشيخ معنا ليرى انتصار الدين في عصرنا هذا بعد انحسار موجة فتنة العلم، وأصبح العلماء يتجهون إلى الدين من جديد (وكذلك الساسة كما سيتضح لنا) بتواضع ومعرفة لأقدارهم.

ولكن كفى الشيخ صبراً فخرأ أنه لم يخضع لموجة الفتنة، ورفع رأسه عالياً شامخاً معتزاً بعقيدته الإسلامية المؤيدة بالعلم والعقل، وأخذ يكافح المشككين وعلمهم الحديث الذي اتخذوا منه دعامة لشكوكهم.

ومن العجيب أنه اعتبر منهج الشيخ محمد عبده يمثل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية أمام خصوم الإسلام الغربيين المتسلطين على كتابه.^(٢)

كذلك أثار عجبنا الدفاع عن (علم الكلام) وربما نجد له العذر في سيطرة

(١) نفسه، ص ١٧٤.

(٢) موقف العقل والعلم، ج ١، ص ٣٤٧. وتنبه إلى أن معارضة الدين باسم العلم ليست عامة بأوروبا، فإن في الغرب مسائل فلسفية ورجالاً آخرين كثيرين انتقدوا مذهب المادة الإلحادية والإلحادية الوضعية انتقاداً شديداً ولم يوافقهم على القول: بمخالفة العقل والعلم للدين، ص ٣٦٤-٣٦٥.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

الثقافة الإسلامية بالمناهج المعروفة آنذاك، فظن أنه لابد للمدافع عن الإسلام من علم الكلام الثقيلدى لصد هجمات المثقفين ثقافة غربية.

وتعذره أيضاً لأن اطلاعاته الواسعة على كتب معاصريه ربما حجبت عنه قراءة منهج علم الكلام عند شيوخ السلف أمثال ابن حنبل وابن تيمية وابن القيم، فضلاً عن تأثره بالاتهامات الباطلة الموجهة حينذاك لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولم تكن كتيه قد طبعته وراجت بمثل الرواج الذى نعرفه اليوم. ولو كانت هناك فرصة للاطلاع عليها ودراستها لأنصف الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بدل تقديمهما واتهامهما بالابتداع!!

من أقواله المأثورة

♦ في الغرب نزاع وجدال بين العلم والدين ناشئ عن خصوصية دين الغربيين، وليس في الشرق هذا النزاع إلا في قلوب مقلدى الغرب الذين لا يعرفون الإسلام رغم أنه دينهم. (ج ٢، ص ١٨).. وهذا الأسلوب المفرق بين العقل والقلب ينتهي إلى القول بأن الإنسان يؤمن بالعقائد الدينية ولا يؤمن بعقله، وهذا القول كما ينطبق على الدين المسيحي لكن الإسلام لا يوجد في عقائده ما لا يقبله العقل. (ج ١، ص ٤٣٩)

♦ لا نعتزف بأن الأمم المتحضرة المتغلبة بأنهم أعقل الأمم. نعم لعقولهم تقدم في الماديات لا في المعنويات. (ج ١، ص ١٢) ويقول: إن العقل الحر في دائرة قوانينه الخاصة حسب المسلم نبراساً في إنارة طريقه إلى أصول العقائد الدينية. (ج ٢١، ص ٣٢٨)

♦ إن السقوط الديني للشرق الإسلامي أفضع عندي وأعظم خطراً وأكثر مساساً بكرامته من سقوطه السياسي. (ج ١، ص ٣٥٩)

♦ لو قارنتم ما فعل السلف من علمائنا مع فلسفة اليونان، بما فعل الخلف مع فلسفة الغرب، لوجدتم الفرق بين قوة السلف وضعف الخلف هائلاً. (ج ٢، ص ١١٢)

♦ من آثار الإلحاد في النفوس، الخلاء الموحش بسبب فقدان الأنيس الروحي الذي هو الدين. (ج ١، ص ١٠٣)

♦ قال عندما أقموه بالجمود: أذيب الجلامد فتحجم الجاحد. (ج ١، ص ١٠٣)

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

- ♦ إن استعمار القلوب أصعب من الاستعمار العسكري. (ج ١، ص ٤٤٢)
- ♦ إن في الشرق اليوم شخصيات وأسماء أكرمت واتخذت قدوة في الزيف عن محجة الإسلام. (ج ١، ص ٤٤٥)
- ♦ إن ما يحدث في تركيا تحت إكراه حكومتها تحصل بمصر في هدوء وطواعية. (ج ١، ص ٤٤٤) ويتلخص نقد الشيخ مصطفى صبري لما كان يدور في مصر حينذاك في (مساعدة الوزراء المصرية في أمر الدين وضعف التمسك به في أوساط المثقفين الجدد المعتلين بتقليد المبادئ الغربية من ناحية، وتقليد الشيخ محمد عبده من ناحية الذي أحدث بما أسرف من تأويلاته لنصوص القرآن مادة جديدة في الإسلام، أو باطنية جديدة متمشية مع مادة الغرب). (ج ١، ص ٣٢٣)
- وقد اعترض - على طول الكتاب وعرضه - على أبرز القضايا التي تفجرت في عصره، منها: كتاب طه حسين في (الشعر الجاهلي)، على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم). فللمسلم قوتان: قوة من دينه وقوة من عقله، ولا قوة لمن لا دين له، والمسيحي في حرب مستمرة بين دينه وعقله المتعارضين.
- ♦ أهمية العقيدة وضرورة العناية بها وتصحيحها: (مما يدل على عظم عطوبة الناحية الاعتقادية في الإسلام التي هي الناحية العلمية، بالنسبة إلى الناحية العملية، مع كون الثانية أصعب من الأولى.. إن شارب الخمر بالفعل أو الزاني بالفعل مثلاً لا يكفر مادام يُعَد نفسه آمناً فيما يفعله، ويكفر من لم يزن ولم يشرب الخمر ولكنه أباحهما) خشيت من التحول العصري من النبوة إلى العبقرية، ويرى أن الكلام عن عبقرية النبي ﷺ يخفي عدم الإقرار بالنبوة (وعلاصة هدف كتاب العبقرية - باستثناء العقاد - جعل محمداً ﷺ نبياً عصرياً إن زالت زعامته للمسلمين كافة فلا يزال زعيماً للعرب).

العناية بالعمل مع العلم:

وبانضمام العمل إلى العقيدة يحصل الكلام في الإسلام وينتفع المسلم الكامل بدينه في الدنيا قبل أن ينتفع به في الآخرة.

قال بعد أن أورد أقوال شاهدين كبيرين من فضلاء المسيحيين هما صليب سامي باشا وصاروا باشا الرومي: (إن الإسلام له تشريع مستقل بُني على نصوص الكتاب والسنة أو استنباط أئمة الفقه المجتهدين منهما. وهذا التشريع الإسلامي المنطوي على كل ما تحتاج إليه فرداً وأمة ودولة، نراه موجوداً بأيدينا وفي خزائن دور الكتب التي ورثناها من أسلافنا، أئمن من كل كنسز أئري وغير أئري يوجد في الدنيا، وقد عملت به الدول الإسلامية العظمية إلى أقرب عهد منا. فوجود الشريعة المباركة القسيحة الأرجاء التي يحجز عن الإتيان بمثلها بل بعشر معشار مثلها لو أعد له أكبر لجنة من العلماء القانونيين، من حقه أن يكون أعظم مانع لنا من فصل الدين عن السياسة).

الخلافة إذن هي التي بمعنى الخلافة عن رسول الله ﷺ عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين، لأنه إنما يكون بهذه الطريقة خليفة عن الرسول ﷺ.

♦ ظل لنظ الأتراك يستعمل أحياناً طويلة على لسان الغربيين كمرادف المسلمين.

♦ تناقلت الألسن حكايات القضاة المرتشين حتى اتخذ منها أعداء الإسلام، من الأجانب والمسلمين المتفرجين، دعاية مستمرة ضد المحاكم الشرعية، إلا أن تلك المحاكم وقضاها الشرعيين المفروض كونهم مؤمنين بالله وبقوانينه المنسزة لا يمكن

الأسرار الخفية ورام إلهام الثلاثة العلمانية

أن يميلوا عن الحق أكثر من المحاكم غير الشرعية وقضائهما غير المربوطة رؤوسهم بحكومة الله.

♦ نقد قاسم أمين في تناوله لقضية المرأة منبهاً إلى أن كتابه (قولى في المرأة) كان أسبق من كتاب قاسم أمين. وأزعجه بداية الاختيار بسبب رفع الحجاب والرقص وضياح الحياء وفقد الغيرة على النساء.

♦ ونقد الدكتور محمد حسين هيكل في منهجه المتبع بكتاب (حياة محمد) ﷺ ، وموقفه من الأحاديث النبوية.

♦ اعترض على كل من توفيق الحكيم وأمين الخولى بمناسبة رسالة قدمت للجامعة المصرية تطعن في قصة أصحاب الكهف.

♦ كما انتقد اتخاذ الجامعة المصرية لشارة (الفرعونية) واعتبرها جامعة (لا دينية) في مواجهة جامعة الأزهر.

♦ قال: إن النهضة الفكرية المزعومة على أيدي المتفرجين لا تخيف المستعمرين بل تخيفهم القرآن.

♦ رأى أن أعظم الواجبات هو تصحيح عقيدة الخاصة كما يقال: (حاميتها حراميتها - هاديتها معاديتها).

♦ اعترض على زكى مبارك، على ثورته على الأمور الغيبية.

♦ كما نوه بأن شبيل شبيل هو ناشر فكرة الإلحاد في البلاد العربية.

♦ مع إعجابه بالأستاذ العقاد بكتابه (عقيرة محمد ﷺ) ونقده لياقوى مؤلفي

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة الملمانية

العقربيات، يرى خطأ العقاد لتبنيه فكرة هيؤ الزمان والمكان لنبوة رسول الله ﷺ ، ويقول:

(القرآن هو سبب النجاح وليس التهيؤ المزعوم لظروف البيئة والزمان).

♦ هاجم الشيخ شلتوت لإنكار الشيطان كما صوره القرآن شخصاً يرى ويسمع ويقول ويجادل ويتكبر فيؤمر بالسحرة لأدم ويعصى الله ويعد ويمجن وينسل ويعيش إلى يوم الوقت المعلوم.. وهاجمه أيضاً بسبب إنكاره رفع عيسى عليه السلام.

♦ نقد بعض علماء الدين الجاعلين ديدنهم قيمة الأدلة المتمشية مع أهواء المتعلمين.. أى اخضاع الشرع للتفسيرات العلمية المتغيرة بتغير العصور والاكتشافات في حقول التجارب وأجهزة المعامل، فتوسعوا في داء التأويل، وكان من الآفات الكبيرة في التاريخ العقدي للمسلمين.

♦ كما هاجم بشدة التأويلات المخالفة لتفسير السلف أو تكذيب الرواة.

♦ نقد بشدة غلوة فكرة القومية عند الترك وعند العرب، وكان يفضل العرب على الترك، لأن القرآن نزل على لغتهم، ولغة العرب أفصح جميع اللغات وأفضلها، ولأن فيهم - أى العرب - فضلاً عن محمد بن عبد الله ﷺ المبعوث إلى الناس خاتم النبيين ورحمة للعالمين، رجالاً ممتازين مثل أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - لا يوجد ولا يمكن أن يوجد نظيرهم في الإسلام والإنسانية في غير العرب.

♦ لم تنطل عليه تصريحات (ويلسون) رئيس الجمهورية الأمريكية الأسبق عن الحرية لكافة الشعوب، لأنه انتهى إلى وضع بلاد المسلمين - وهى التابعة للقوانين السماوية - تحت انتداب الدول الإنجليزية والفرنسية العاملة بالقوانين الأرضية:

الأسرار الخفية وراء إلفام الخلافة العثمانية

(فكأنما أراد أن يجعل الأرض سماءً والسماء أرضاً).^(١)

♦ نُبّه إلى تأييد الاستعمار لحركات التجديد الهدام للإسلام ومعاداة الحركات السلفية.

(١) ويقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود بمناسبة مولد ميثاق (عصبة الأمم) عقب الحرب العالمية الأولى: «كلمة النصر الفرنسي تتكرر وتتمرر... لويد جورج التغلب البريطاني يستأسد ويزار. أما ويلسون فقد بدأ طريقه وهو صاحب دعوة، ثم أنقاه وهو صاحب ادعاء. ووضعت مصائر الشعوب على مائدة المؤتمر كصحائف طعام بمائدة ذئاب، لقد تغير الشعار، لم تعد الحرية لكافة الشعوب، بل أصبح الآن (الويل للضعيف والويل للمغلوب) من كتابه: صليبية إلى الأبد، ص ٢٢، الحقبة المصرية للكتاب، سنة ١٩٧٥ م.

بعض الأسرار التي كشف عنها الكتاب

فإن علة اختيارنا لعنوان الكتاب يتصل بالأسرار التي كشف عنها مؤلفه، وهي تستحق وقفة تأمل ودراسة لاستخلاص الدروس والعظات، مما حدث ويحدث في العالم الإسلامي بكافة أقطاره.

السر العميق:

ويؤيد ذلك ما نُشر أخيراً من وثائق سمحت بها الحكومة البريطانية، ومنها ما نشرته جريدة (صنداي تايمز) عندما عرض أتابورك على السفير البريطاني تولي رئاسة جمهورية تركيا!!

إن أعضاء جماعة الاتحاديين والكماليين - وهم الحكام الجدد اللادينيون - تابعون جميعاً لمخفل الشرق أى من الماسونيين، كذلك فإن مؤيديهم من الكتاب والصحفيين أصحاب الأقلام (المستأجرة) من الجمعيات السرية النافذة في العالم.

وقد أثبت ذلك بواقعة ثابتة حدثت أيام كان نائباً عن (توقاد) وسمعه هو ومعه من النواب أكثر من مائتين، حيث وصلت رسالة من طرابلس بليبيا قرأها صاحبها (وعيناه تدمعان)، وفحواها أن جميع أحزاب إيطاليا آنذاك متفقة على احتلال طرابلس باستثناء (البنائين الأحرار) والاشتراكيين، وحجتهم في ذلك ما قاله

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

أحدهم: (لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتها في أيدي البنائين الأحرار)!!

ويوقفنا على سر آخر هام يؤيد به ويدعم استنتاجاته من واقع الحال التي عاصرها وشاهدها بنفسه - إذ لاحظ بيقين أنه لم يسلم من اعتداء الكماليين والاتحاديين إلا اليهود. وفيما عداهم فقد وقع الاضطهاد على كافة عناصر الأمة من الألبان والعرب والأكراد والروم والشراسة والأتراك. لذلك فهو يحمل حكام تركيا إثارة العداوة بين المسلمين والنصارى مستنداً على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٨٢].

ويرى تقصير المسلمين في التنقيب عن وقائع الفتن اليهودية، منذ عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ومنهياً إيانا إلى منهج تعليمي تربوي خلاصته (إننا معاشر المسلمين الحاضرين لمقصرون في التنقيب عن تلك الوقائع الهامة وتدریس مسائلها في مدارسنا، لنعلم الطلاب والشباب، قبل تعلمهم بتاريخ الأجانب، تاريخ الإسلام وما يحوط بحياة النبي ﷺ وخلفائه من الشئون بتفاصيلها فيعتبر بها ويعتبر الطلاب والشباب ويتأدبوا بأداب الإسلام في عصره الذهبي).

وكشف الستار عن أخطر الأسرار وأكثرها غرابة، حيث وقف أمام هزيمة الإنجليز وقفة تأمل، غير مصدق أنهم هُزموا بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى، فكيف يُعقل أن ينسحبوا - وهم المنتصرون في هذه الحرب - أمام مصطفى كمال أتاتورك في أزمير؟! إنهم لو أرادوا الانتصار عليه لتحقيق لهم ما أرادوا، ولكنهم وازنوا - بدهاء - بين انتصاره (المصنوع على أيديهم) وما رتبوه من نتائج، وبين قبول الهزيمة أمامه، واختاروا الاختيار الأول ورجحوه، لما سينجم عنه من مكاسب كبرى تفوق - كثيراً - انسحابهم من "أزمير".

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

وأعلن خطأ الظن؛ بأن انسحاب جيوش إنجلترا وفرنسا من استانبول كان بسبب الخوف من مصطفى كمال.

ومن الأسرار المهمة التي كشف الستار عنها أيضاً، ونرجو أن تأخذ طريقها لإيضاحاً ونشراً بين الباحثين والمؤرخين، أن جمال باشا (السفاح) كان قاتل العرب والترك معاً. وهذه العبارة أوضح الشيخ مصطفى صبري أن الاضطهادات التي وقعت على العرب كانت يبدى أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، أي أتباع أتاتورك - ومنهم هذا السفاح - وقد شملت اضطهاداتهم الأتراك والعرب جميعاً.

دور مصطفى كمال أتاتورك في القضاء على الخلافة

طال بنا العهد منذ حركة الانقلاب الكمالية على الخلافة العثمانية حتى نسي الجيل الحاضر أنه كانت هناك أمة إسلامية واحدة. تضافرت عليها القوى المعادية للإجهاز عليها.

والواقع أن معالجة الخلافة بالطريقة التي تدرس بها حالياً في المدارس والجامعات ما هي إلا مجرد ترديد لآراء المستشرقين من اليهود والنصارى ذات القوالب التفسيرية التي تساوى بين الخلافة والاستعمار، ومجدد الثورة العربية وغير ذلك من آراء غريبة، لا يمكن لباحث مسلم - أو حتى محايد - أن يوافق عليها، إذ تتضمن تزويراً للتاريخ وتشويهاً للحقائق، لاسيما حينما تصور مصطفى كمال أتاتورك في صورة البطل المنقذ.

فتجاهل مثل هذه الأبحاث واقعتين هامتين:

أولاهما: رفض السلطان عبد الحميد، بيع أرض فلسطين لليهود، فقام أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بحركة انقلاب ضده وأقصوه عن الخلافة، وقدم له (قرصوه) - وهو يهودي - قرار العزل نكابة فيه وانتقاماً منه لرفضه إجابة المطلب اليهودي، ثم شوهوا سمعته وأساءوا إلى تاريخه في صفحات الكتب.

وينبغي على كل من يتعرض لبحث العلاقة بين اليهود وإسقاط الخلافة أن يقرأ

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مذكرات السلطان التي نشرت أخيراً.^(١)

الثانية: كان مصطفى كمال أتاتورك من طائفة (الدوغمه) ذات الأصل اليهودي.

ولمن شاء أن يعرفه، فليرجع إلى المدافع عنه وكاتب سيرته "أرمسترونج" الذي ضمّن كتابه كثيراً من الأوصاف التي تجعل منه منافساً لأعني جيايرة التاريخ. والحق أن الكتاب بأكمله يعد وثيقة إدانة لا سجل شرف وفخر كما حاول أرمسترونج أن يفعل.

مثال ذلك قوله: (ولو أنه وُجد في عصر جنكيز خان لبزّه في عبقريته الحربية وعزيمته الجبارة التي لا تضعفها عاطفة أو رحمة أو وفاء...)^(٢)

ولم يحتاج إلى الرحمة والوفاء.. وقد خلع رداء الإسلام فانقلب كالوحش الكاسر ضد الشعب التركي طاعناً إياه في عقيدته؟

فقد كان معروفاً للملأ، إهماله للدين في حياته الخاصة، ومخالفته لكل قواعد اللياقة، وسخريته من كل الأوضاع "المقدسة".^(٣)

ولو مضينا في تتبع أدوار حياته لخرجنا بفكرة صحيحة عنه.

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة د. محمد حرب عبد الحميد، ط. دار الأنصار بالقاهرة، ١٩٧٨م.

(٢) أرمسترونج: مصطفى كمال، ص ٢٤٤، ترجمة حلمي مراد، دار المعارف بمصر، سلسلة "اقرأ" ١٤٠٧، سنة ١٩٧٦م.

(٣) أرمسترونج: مصطفى كمال أو الذئب الأخير، ص ٢٠٦.

كلمة عن الخلافة العثمانية^(١)

إذا التزمنا بمنهج الدراسة التحليلية لتاريخ الخلافة العثمانية، فإنه ينبغي التدقيق في بحث عوامل ثلاثة تشكل أعمدة هذه الدراسة، وهي:

أولاً: الالتزام بمنهج التصور الإسلامي في نظرتنا للتاريخ، حيث تتشكل أحداثه وتمضي حركته وفق قاعدتي:

(أ) المد والجزر:

إن المد والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الإيمان وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين.^(٢)

(ب) حقيقة الدفع بين أهل الحق وأهل الباطل:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين

(١) يسرنا التنويه بالموسوعة التي أصدرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي تحت عنوان "الدولة العثمانية.. دولة إسلامية مفترى عليها" في ثلاثة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤م.

(٢) أبو الحسن الندوي: المد والجزر في تاريخ الإسلام ص ٩٢، الشركة المتحدة بيروت، دمشق، دار القلم، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

كما دفع عن بين إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود هلكوا.. كما قال تعالى:
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَارَ مَتَّ صَوْبُهُمْ وَبَيَّعَ صَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ
فِيهَا أَشْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].^(١)

ومثل هذه النظرة تحذرنا، علمياً وإسلامياً، من اقتفاء أثر كتابات المستشرقين الذين نظروا إلى الخلافة نظرة حاكمة متحيزة، سببها ما ورثوه من آباءهم وأجدادهم عن الدور التي لعبته هذه الخلافة في تاريخ أوروبا، فقد كانت جيوشها بين كرك وفر حتى طرقت أبواب "فيننا" إلى جانب خطأ وضع الخلافة في مصاف الدول الاستعمارية وتشبيهها بها.

ولعلاج مساوئ هذه النظرة: على الباحث أن يتحرر من نظريات المستشرقين وآرائهم، لأنهم مهما زعموا من حييدة في البحث فإن بصمات الحقد والعداء لا بد وأن يظهر أثرها في مؤلفاتهم.

على الباحث إذن البدء في التصور الإسلامي للخلافة كنظام للحكم ورابطة دينية وسياسية وحدت المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، في إطار واحد، فأوجدت روح التضامن بينهم، وميزتهم (كأمة إسلامية) بصرف النظر عن تضارب المصالح أو ظهور الاختلافات التي لا بد منها بين عناصر الأمة.

والدراسة طبقاً لهذا المنهج تقتضي بحث ما آلت إليه الخلافة العباسية بعد انحلال رابطتها على أثر سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ، مع استمرارها في شكل ولايات متناثرة - حافظت على اسم الخلافة - ثم قيامها مرة أخرى على أسس

(١) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٣٠٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الأسرار الخفية وراء إقام الخلافة العثمانية

قوية بواسطة الأتراك العثمانيين الذين قاموا بفتح القسطنطينية - العاصمة الشرقية للدولة الرومانية - بواسطة محمد الفاتح. ولا ينبغي أيضاً إغفال الدور الكبير الذي قام به السلطان عبد الحميد في المحافظة على الخلافة في وجه أعدائها.

يقول الدكتور الرئيس رحمه الله: "إن تاريخ الخلافة الإسلامية في الدول التي تفرعت عنها كانت سلسلة من أمجاد، وحلقات من انتصارات، ففى عهودها حدثت المواقع الهيدة: في اليرموك والقادسية وهاوند وأجنادين وبابلين والقيروان وغيرها، ثم مواقع حطين وعين جالوت والمنصورة وأمثالها. فليت لنا اليوم جزءاً من قوة أو أمجاد الخلافة الإسلامية والدول الإسلامية التي كانت مرتبطة بها أو مماثلة لها".^(١)

وبعدئنا التاريخ بأن الخلفاء أو السلاطين العثمانيين الأوائل أبلوا بلاءً حسناً في رفع شأن دولتهم وفي نصرته الإسلام ونشر لوائه.. وظلت الخلافة مزدهرة ومؤثرة في سياسة العالم في القرن الخامس عشر والسادس عشر، فكانت الدولة العثمانية - وهي تمثل الإسلام - أقوى الدول في أوروبا كلها، وربما العالم.^(٢)

أما الانحيار.. فقد ظهرت بوادره في القرن الأخير وقبل إعلان سقوطها بواسطة حركة الانقلاب العسكري بواسطة أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي)، حيث أسهم أعضاء هذه الجمعية بالقسط الوافر في إتهالها، وثبت أنهم لا ينتمون إلى السلالة التركية العثمانية ولكنهم خليط من أجناس وأديان وقوميات مختلفة، وقاموا بحركة

(١) د. محمد ضياء الدين الرئيس: الإسلام والخلافة في العصر الحديث (تقد كتاب الإسلام وأصول الحكم)، ص ٢٨٤، منشورات العصر الحديث، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) نفسه ص ٤٠-٤١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد بسبب رفضه السماح لليهود بشراء أراضي فلسطين.^(١)

وفي هذا الصدد كتب السيد رشيد رضا في مجلة (المنار) آنذاك يقول: "وإن ملاحدة الترك هم الذين يثبون الدعوة إلى تشويه الدولة العثمانية ويثبون الدعوة إلى الإلحاد ويحرضون الزنادقة والمرتابين على ترك الإسلام واحتقار تشريعه وآدابه وليس قلائس الإفرنج وإثارة الغيرة القومية والعصبية الجنسية.. وقلما ثبت هؤلاء الملاحدة نسب صحيح في الشعب التركي الذي صار عريقاً في الإسلام، بل هم أو شاب منهم الروسى والرومى والبلغارى واليهودى الأصل، وقد سلطوا على إفساد هذا الشعب بدعاية العصبية الجنسية وترجمتهم للقوانين الأوروبية وليسهم البرنيطة، وأن السواد الأعظم من الترك يحقتون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يحقتون إخوانهم الاتحاديين".^(٢)

(١) والآن وبعد نشر مذكرات السلطان عبد الحميد وظهور كثير من الوثائق التاريخية فضلاً عن واقع أحوال المسلمين بعد كسر شوكة الخلافة ومعرفة الأسرار وراء حركة إلغائها - الآن ينبغي إنصاف هذا السلطان المفترى عليه وكتابة تاريخ الخلافة العثمانية أيام سلطته بأمانة وصدق نحو آثار الأكاذيب التي أحاطت بها المؤرخون الغربيون من اليهود والنصارى لدوافعهم التي لم تعد عاقبة.

ولناسبة حديثنا عن الخلافة، فإن الرجل - رحمه الله تعالى - كان يحكم موقعه يدرك تماماً أهمية هذا النظام السياسى الإسلامى وحشية الدول الأوروبية منه: قال في مذكراته: "ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوباً مسلمة عديدة في آسيا وأفريقيا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله، لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إلغاء الدولة العثمانية"، ص ٦٧ من مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم د. محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

(٢) ينظر كتاب الأستاذ أنور الجندى: (تاريخ الصحافة الإسلامية)، الجزء الأول، المنار ص ١٤٩، دار الأنصار بالقاهرة، سنة ١٩٨٣م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

لذلك يقتضى البحث الاستناد إلى المصادر الإسلامية التي أبعدت عن عمد في الكتب المدرسية وقُدمت بدلاً منها مصادر الدوائر الاستشرافية وتلاميذها.

ونقصد بالمصادر الإسلامية، الكتب التي ألفها العلماء المسلمون المعروفون بالصدق والنزاهة العلمية، والذين نذروا أنفسهم لخدمة الحق وتصوير التاريخ بحسنة ومساوئه.^(١)

ينظر نقاد الخلافة من زاوية واحدة ويتجاهلون العوامل الآتية:

١- روح العداء الصليبي واليهودي نحو الخلافة الذي ظل حياً لم يخب، ويظهر في أشكال المعارك العسكرية الضارية والغزو الثقافي المتواصل.

والقساريء لكتاب "الدولة العلية" كمثال يلاحظ أن الدول الأوروبية كثيراً ما فرضت الحروب على الدولة العثمانية فرضاً، وكان معظم السلاطين يتفادون الحرب لاسيما السلطان عبد الحميد.

(١) ونقصد مؤلفات أمثال الأفاضل: مصطفى كامل بكتاب (المسألة الشرقية)، وعبد فريد (تاريخ الدولة العلية)، مصطفى صبري (النكر على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة، موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين - الجزء الرابع)، د. محمد ضياء الدين الرئيس (الإسلام والخلافة في العصر الحديث، الشرق الأوسط في التاريخ الحديث). الموسوعة التاريخية للأستاذ أنور الجندي ومقالاته عن الخلافة العثمانية، موسوعة الدكتور عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها) في ثلاثة أجزاء. وما كتبه عن الخلافة العثمانية أمثال الأستاذة: د. فهمي الشناوي (لاسيما بمجلة المختار الإسلامي)، والأستاذ سعيد الأفغان، والأستاذ فتحي رضوان، والشيخ رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان.. وينظر أيضاً مذكرات السلطان عبد الحميد التي نشرت حديثاً وصححت كثيراً من المفاهيم بعد أن فضحت التاريخ المزور في العصر الحديث.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

٢- التفوق العسكرى الغربى الذى أخذ يعمل لتحقيقه منذ صدمة الغرب لمزيمته فى الحروب الصليبية، فعاد بروح الانتقام والتصميم، فطوى العالم الإسلامى بالسيطرة على المحيطات (البحر والبر).^(١)

٣- لم يحقق أتاتورك أغراضه إلا بكسر إرادة الجماهير المسلمة التى خدعها فى البداية ثم تنمر عليها، فقمع ثورات المسلمين وعلمائهم بأشد أنواع القوة والقسوة، وتاريخ حركة الجهاد الإسلامية بقيادة الشيخ سعيد النورسى تشهد بذلك.

وقام أتاتورك بقمع الحركات الإسلامية الشعبية بالقوات العسكرية والمحاكم الثورية الظالمة التى لا تحمل من حقيقة (المحاكم) إلا الاسم، لأنها كانت تنفذ أحكاماً صدرت قبل انعقادها!!

٤- هذه العوامل وغيرها ينبغى أن نحققنا إلى دراسة ذلك كله بمنهج التفسير التاريخى. وبالنظر إلى أحداث التاريخ بمنظار (التدبر القرآن) فإننا نرى استمرار تدافع الحق والباطل، ولكى نمسك بخيوط التدافع فى عصرنا الحاضر، لا بد أن نبدأ بالغزو الغربى وموجات الاصطدام بالشرق الإسلامى. وأيضاً فإن (النكبة) التى سببها أتاتورك مازالت تتفجر لتهدم ولا تبنى.

٥- البحث عن المخطوطات المدفونة فى المكتبات الشرقية والمنهوية فى المكتبات الغربية واتخاذها كمصادر جديدة بدلاً من الحلقات المفرغة الدائرة فى فلك نفس المصادر المعتادة والتى روجها أعداء الخلافة العثمانية.^(٢)

(١) وما يجدر ذكره هذا الصدد أن فى استانبول وهى العاصمة التى لم يتم غزوها وبالتالى لم تتم سرقة مخطوطاتها وآثارها من قبل المستعمرين.. ففى تركيا حوالى مليون مخطوطة ومائة مليون وثيقة!! ينظر استطلاع سليمان الشيخ عن (إعادة كتابة التاريخ الإسلامى فى مركز الأبحاث باستانبول) مجلة العربى العدد ٣١١ أكتوبر سنة ١٩٨٤م.

العداء الأوروبي الخليبي

لا يمكن إغفال العوامل الآتية في أى بحث يريد النفاذ إلى قلب الحقيقة:

١- الهجمات المتلاحقة من الدول الأوروبية بما تحمله من ضغائن للإسلام ودولته الممثلة في الخلافة العثمانية حيث لم تفتقر المعارك العسكرية في ميادين القتال^(١)، وإثارة الفتن والقلاقل في داخل البلاد، وإذا حللنا عوامل الحركة العدائية نجد أكثرها وضوحاً في التعصب الصليبي والعداء اليهودي.

أما عن الأول، فإن الأمير شكيب أرسلان يطالعنا بمقاله المسهب في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) على خفايا مذهلة بعنوان "التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي؟" فقد لحّص فيه مضمون كتاب (المسيو دجو فارا) [مائة مشروع لتقسيم تركيا].. أجل مائة مشروع تقدم بها أوروبيون من أجناس مختلفة ومناصب ومهن متباينة، منهم الأمراء والعسكريون والملوك ورجال الكنيسة. ومما يثير الدهشة أن منهم الفيلسوف ليبنتز صاحب المشروع الرابع والأربعين عام ١٦٧٢م، وقد أعده بغرض محو تركيا، وظل يحorre أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وجاء ضمن اقتراحاته "إنه إذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم إلى البوار".^(٢)

(١) يقول باول سمتر: "تلك الخلافة أجهزت عليها الدول التي قادت الحروب الصليبية"، ص ٢٦، من كتاب (الإسلام قوة الغد العالمية).

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، ج ٣، ص ٢٦٣.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

والقارئ لرسائله المتضمنة مشروعه يرى فيها - كما يصفها عبد الفتاح عبد المقصود - (صورة مكتملة المعالم، واضحة الظلال جلية الأضواء، لأحلام الغرب الصليبي التي تداعب خيال الملك الفرنسي الكبير.. يستهلها الفيلسوف فيدعو العاهل الفرنسي "مولاي: الملك المسيحي" ويختتمها مثيراً لجشعه الذي يشبعه المشروع المطروح، فيقول:

[.. وأنه لمشروع ميسور التحقيق، خليق بأن يعيد الطريق تحت أقدام الفاتحين الغزاة، لاستعادة أبحار الإسكندر الأكبر!!].

وفي تعليقه "غزو مصر" يقول: (لأنها وكر الدين الإسلامي، وملاذ المسلمين الأشرار).^(١)

وحق "فولتير" الذي اشتهر بالإلحاد والسخرية من الدين، كان هو أيضاً ينظم الأشعار الحماسية لمقاتلة الترك.^(٢)

وقال نابليون: "من ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود الدنيا"، ووصفها مرة أخرى بأنها (مفتاح العالم).^(٣)

ومما بلغت النظر أن أحد هذه المشروعات تضمن نصاً يذكر فيه أنه تقتطع من أراضي الدولة العثمانية ما سماه (المملكة العراقية أى فلسطين).^(٤)

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: صلية إلى الأبد، ص ٢٣٦، ٢٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥ م.

(٢) حاضرم العالم الإسلامي ج ٣، ص ٢٧٩.

(٣) نفسه ص ٢٩١.

(٤) نفسه ص ٢٩١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وخلاصة الأمر كله يحمله المسيو دجو فارا الوزير الروماني بقوله: "مدة سنة قرون متتابة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية. وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مائة".^(١)

وأضيف ها هنا بعض الوقائع البارزة الضرورية لاستكمال دراسة هذه القضية العظيمة الشأن والأثر في حياتنا معشر المسلمين المعاصرين، حيث كنا نظن أن زمن التعصب الديني قد ولى وانتهى أوانه، ولكننا نقرأ ونسمع بما ينضج بالعكس تماماً. وينبغي في رأينا أنه على حملة الأقلام التخلص من الأحكام المتسرعة في تناولهم الكتابة عن الخلافة العثمانية، ونود لو قرأوا بعض المصادر التي فضحت حقيقة ما دار من مؤامرات لهدمها، هذا الهدم الذي قصد به فتح الطريق لدول أوروبا للتغلغل في بلاد المسلمين استعماراً للأراضي ونهباً للثروات وإذلالاً للشعوب. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى ما ينهل ويثير، حيث لمسنا تفجر العواطف الشديدة التعصب - والمتوارثة منذ عصور الحروب الصليبية - لتركب أبشع صور الجرائم في القتل والذبح للنساء والأطفال وترسل الحملات تلو الأخرى لإرغام المسلمين على (التنصر)، وكانت فرنسا وإيطاليا وإنجلترا على رأس الدول التي آتت بالمخازي والشنائع.^(٢)

ولنكتف بنبذة يسيرة لتصوير بعضها، بينما المصادر مليئة بكل ما هو مشين وحجل للزاعمين بأنهم أهل الحضارة والرقى:

(١) نفسه ص ٢٩١.

(٢) ويغل ذلك شكيب أرسلان بقوله: "وهذا كله إنما هو راسخ من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التي لم يتمكن العلم المعاصر من اقتلاع جذورها من رؤوس الأوربيين".

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

فماذا فعلت فرنسا في مسلمي المغرب؟!

إنها أصرت على تنصير المسلمين، فبدأوا بهذه السياسة في الجزائر، وفصلوا بين الأمة البربرية والعرب، وبنوا الدعاة والقساوسة، وشادوا المستشفيات والمدارس الفرنسية بنية تنصير الأهالي، وتعهدوا رفع التعليم الديني الإسلامي بقدر الاستطاعة، وبلغ المهوس بالسلطة الفرنسية بمنع أي مسلم عربي من دخول مناطق البربر وتركوا الرهيان يحولون في بلاد البربر كما يشاءون.

ومنع الحاكم الفرنسي سكان إحدى البلاد من بناء مسجد وأعطى الأرض التي كانت مخصصة له للرهبان لبنوا فيها كنيسة، بينما لا يوجد بهذه البلدة (زموور) إلا الحاكم الفرنسي.

وحدث ولا حرج عن إلقاء بعض السكان بالسجن لأهم مطالبوا بالإبقاء على قضائهم الشرعيين.. وغيرها من إجراءات مخالفة لما تعهدت به فرنسا في معاهدة (الحماية) التي نصت على "أن جميع الإصلاحات التي تقوم بها داخل المغرب لا تمس الدين الإسلامي في شيء ولا تجلب ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان".^(١)

وهناك فظائع أخرى ارتكبتها إيطاليا، يتوقف القلم عندها متردداً من هول ما يجب أن يخطط، وما هي في الحقيقة إلا نزر يسير من جرائم عملاً بجلدات، حيث ارتكب جنود إيطاليا موبقات طوال عشرين سنة في طرابلس الغرب مما (لم يسبق له مثيل إلا في القرون الوسطى، وقد يكون من باب النادر في القرون الوسطى نفسها!!).

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٣، ص ٣٤٢، وتتضمن ما فعلته إيطاليا من جرائم أيضاً، وما عفى كان أعظم!!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

وهروى لنا شكيب أرسلان أحد هذه المويقات التي تتلخص في إخراج ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم، وأسكنوهم في صحراء قاحلة، وأمانوا بذلك جانباً كبيراً منهم وجميع مواشيهم، وارتركبوا في حق هؤلاء المساكين من الفضائع والشنائع مالا عين رأت ولا أذن سمعت، وأخيراً اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور وإناث ممن هم فوق سن الأربع إلى سن ١٥ سنة وحملوهم إلى إيطاليا لأجل تنشئتهم في الدين المسيحي.^(١)

خلاصة القول: إن نظام الخلافة - ولو في شكله الضعيف الأخير - كان كفيلاً بصد هجمات الغرب الاستعماري الذي جاء غازياً بروح الحروب الصليبية في القرن العشرين. وكان يكفي أن يعلن الخليفة الجهاد^(٢) حتى يهب العالم الإسلامي على قلب رجل واحد بسبب وحدة العقيدة والهدف والتماسك والوجدان، والخضوع لأمر رجل واحد هو الخليفة، لعلمهم أنه يمثل الخلافة الإسلامية منذ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، فالخلافة جمعت في أذهان المسلمين وقلوبهم ذكريات الخلافة الراشدة، وتاريخ الأمة، وأهم أمة واحدة، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم، استمرت هذه الرابطة حتى آخر حلقة من سلسلته، فقد كان للسلطان العثماني في قلوب المسلمين مكانة خاصة في مشارق الأرض ومغاربها (فكانوا يرفعون أصواتهم مؤمنين على دعاء الخطباء يوم الجمعة حينما يدعون بالنصر لسلطان المسلمين ولوزرائه وقواده وعساكره في البر

(١) نفسه جـ ٣، ص ٣٤٠، والمآسى مازالت مستمرة وما مذابح صبرا وشاتيلا بلبنان منا بعيد.

(٢) مر بنا قول السلطان عبد الحميد (ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوباً مسلمة عديدة في آسيا، مثل إنجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله، لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إلغاء الدولة العثمانية) ص ٦٧ من مذكرات السلطان عبد الحميد.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

والبحر إلى يوم الدين، وقد كان السلطان هو المجاهد والغازي في سبيل الله وحامي
حامي الحرمين الشريفين).^(١)

وأدرك نابليون ذلك فتوّه في منشوراته بصدّاقة فرنسا للسلطان وأنه جاء
لتخليص مصر من حكم المماليك وإرجاعها للسلطان.

ثم دار الزمن دورته، وقامت الحرب العالمية الأولى، وكان توسع السلطان
العثماني إعلان الجهاد ضدّ الإنجليز قهيب المسلمون في الهند والبلاد العربية وغيرها
من البلاد التابعة لإنجلترا وفرنسا، فقامت إنجلترا بدهائها المعروف للحيلولة دون
ذلك، بأن اتصّلت بالشريف حسين أمير مكة (لأنه يتوقّف عليه دعم هذا الجهاد
الإسلامي، حيث كان عليه أن يرسل راية الرسول ﷺ من مكة إلى تركيا، دلالة
على بدء الجهاد وانضواء العرب والمسلمين تحت لوائها. وفضلاً عن ذلك فإن شبه
الجزيرة العربية تحتلّ مركزاً استراتيجياً يمكن إرسال حملة منه لإفساد أي هجوم قد
تشنه تركيا على القواعد الإنجليزية في مصر وغيرها من البلاد الأفريقية).^(٢)

وباقى الرواية معروف حيث كان لمساعدة العرب - باعتراف الإنجليز - الأثر
الفعال في كسب الحلفاء العرب وهزيمة تركيا، وأسفر القدر البريطاني عن اتفاق
(سايكس - بيكو) في مارس سنة ١٩١٦م الذي نصّ فيه على تقسيم البلاد
العربية.^(٣)

وكان للإنجليز الدور الأكبر في هذه الجريمة النكراء، حيث تعاون المكر

(١) محمد سيد كيلان: الأدب المصري في ظلّ الحكم العثماني، ص ١٨، دار القومية العربية للطباعة،
سنة ١٩٦٥.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع العربي، ص ١٤٣، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٦٨.

(٣) نفسه، ص ١٤٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الإنجليزى مع (غفلة) بعض العرب في دفعهم إلى طعن أنفسهم بأيديهم قبل أيدي غيرهم.. وفي هذا المجال حقق (لورنس) - الجاسوس الإنجليزى الثعلب - نجاحاً يفوق الخيال، حيث نجح في تفكيك رباط الوحدة بين العرب والترك بعد معايشة كاملة للعرب في بلادهم، دارساً لعقائدهم وتقاليدهم وأحوال معيشتهم ونفسياتهم.. فضلاً عن صلته الوثيقة بالشريف حسين، وقد خلص من تجاربه إلى القول بأن [نشاط الحسين مقيد لنا - أى للإنجليز - إذ أنه ينسجم مع أهدافنا المباشرة وهي تفكيك الرابطة الإسلامية، وهزيمة الإمبراطورية العثمانية].

ويصف العرب بالمقارنة الأتراك فيذكر (أن العرب أقل ثباتاً من الأتراك)، ثم يحدد السياسة التي اتبعتها إنجلترا ومازال الغرب حريصاً عليها كل الحرص إلى أيامنا هذه، وإلى أن يفيق العرب من سباتهم بعدما عانوه من كوارث وأهوال. قال: [إذا تمكنا من التحكم بهم بصورة صحيحة، فإنهم سيقون منقسمين سياسياً إلى دويلات تجسد بعضها البعض ولا يمكن لها أن تتحد].^(١)

وليت العرب اكتفى بالبلاد والعباد عقب انحلال عقد الخلافة، ولكنه طمع في تغيير دينهم كما بنا وكما تشهد به خطط التبشير الماضية قدماً في أنحاء البلاد الإسلامية.^(٢)

ولكن ربما وجدنا العزاء في بقاء الحق وأهله مهما حدث، ولعل بعض أهل الغرب ممن ينصت لصوت العقل والضمير يلفت أهله لهذه الحقيقة، لأنه منذ الحرب

(١) عبد الفتاح عبد المقصود، صليبية إلى الأبد ص ١٨.

(٢) وقد أصاب شكيب أرسلان في مقاله عن (التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي) حين قال: (إن الاستبداد المطلق، لا سيما في الدين، هو مروع أوربي محض ولا يقاس المسلمون بالأوربيين في هذا الأمر في قليل ولا كثير) حاضرم العالم الإسلامى جـ ٣ ص ٣٤١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

العالمية الأولى بصفة خاصة وسقوط الخلافة الإسلامية في شكلها الأخير، اعتقد بعض الأوروبيين (أن سياج الإسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مد اليد إلى دين المسلمين كما امتدت إلى دنياهم. وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الأوروبي بحقائق أحوال العالم الإسلامي مهما زعم مطلع عليها).^(١)

(١) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، جـ ٣، ص ٣٣٧.

الخلافة العثمانية ليست استعماراً

يتوهم الكثيرون بسبب النزعة القومية والوطنية، والاقتصار في الحكم على الدولة العثمانية في عصور انحطاطها والمظهر اللامع للتطبيق الديمقراطي في شعوب أوروبا وأمريكا - القاصرة عليها وحدها دون شعوب العالم الثالث التابعة لها سياسياً واقتصادياً - يتوهمون بسبب كل هذا أن خلافة العثمانيين تقترون بالاستعمار الغربي بآثامه ومآسيه وفظائعه وأهواله التي مازلنا نعانى من آثاره الظاهرة والخفية.

إن عواطف التأثير بأزمة الضعف والانحلال الأخيرة التي عانت الشعوب الإسلامية خلالها فعلاً كثيراً من المظالم والآلام، هذه العواطف تقودنا إلى الوقوع في الكثير من الأخطاء، بينما الحكم على دولة امتد عمرها نحو ستة قرون يقتضي آفاقاً أبعد، وتفاصيل أعمق.

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام - أمين الجامعة العربية الأسبق: (ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف، لاستحال أن يقوم ملك آل عثمان ستמאל سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف ميتور).^(١)

وكان يعبر عن الرأي المضاد الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (مصر الإسلامية) الذي كالم الطعنات للخلافة العثمانية ورأى أن مصر الإسلامية لم تعرف

(١) من مقالة في (الأهرام)، بتاريخ: ١٠/٢٢/١٩٤٤م، بعنوان: [آخر الخلفاء]، نقلاً عن الكتاب الكبير للشيخ مصطفى صبري، ج١، ص٨٦.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

من المخطوب والنكبات نكية أعظم من الفتح العثماني بسبب الضربة التي أصابت الإسلامى من جرائه. وشبه تصرفات الترك بأعمال السفك والتخريب الهائلة التي بدأها هولاءكو وبرابر التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الإسلامية واستأنفها تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر.

وأيضاً اعتبر ما فعله السلطان سليم من بعثة العلماء ومهرة الصناع إلى القسطنطينية - اعتبر ذلك (نفياً) لهم، واعتبر نقل الكتب والآثار النفيسة إلى الآستانة تخريباً.^(١)

ويتدخل الشيخ مصطفى صبري ليصحح هذه المعلومات.. فيذكر صاحبها بأن معظم الآثار كانت كتباً مخطوطة، دينية وعلمية، فنقلها السلطان إعجاباً بها واعتناء بشأنها إلى عاصمة ملكه، بعد أن أصبحت مصر جزءاً من بلاد الدولة، لا فرق بينها وبين الآستانة في ذلك. فكيف يساوى بين عمل السلطان سليم وهولاءكو الذي قذف بما في خزائن بغداد من كتب إلى الدجلة والفرات؟!

أما نقل علماء مصر وزعمائها ومهرة الصناع فيها، فلا يعد نفياً، بل ليكونوا من المقربين إليه، وليصبح نفعهم عاماً لجميع البلاد، إذ لا فرق بين المسلمين بسبب أوطانهم أو جنسياتهم. ولم يكن غرض السلطان سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية.

أما إذا اعتبره الأستاذ عنان انتزاعاً لمصر من حكم المماليك الشراكسة (فقد كانوا هم الآخرون انتزعوها من حكم المماليك البحرية الترك وهم مماليك هولاء المماليك، ولم تكن مصر يومئذ تحت حكم فاتحيها العرب، ولا المقصود من الفتح

(١) نفسه ص ٨٤.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

التحكم على الشراكسة والمصريين العرب^(١).

والحق أننا لا نستطيع هذه الصور من التنافس على السيطرة.. لأننا لا نضعها في إطارها التاريخي الذي حدثت فيه، بينما هي في الحقيقة تخضع للعرف الدولي (حينذاك). ثم نعود فنتحفظ لأن هذا العرف يشكل قانوناً مستمراً ينظم العلاقة بين القوى والضعيف.

ودعونا نقوم الواقع الدولي الراهن.. هل يختلف عما كان يحدث في التاريخ القريب والبعيد؟.. إن بلاد العالم الثالث مقسمة بين الدولتين المتعالتين - روسيا وأمريكا - كل ما هنالك أن الدول في العصور الماضية افتقدت وسائل الإعلام التي تصور الأشياء بغير حقيقتها، ولم تكن عقول حكامها بنفس الدهاء الذي اخترع أشكالاً من الاستعمار والسيطرة تحت أسماء (الوصاية) و(الانتداب) وغيرهما!!.. أو وضعت نظاماً شكلية باسم الاشتراكية والديموقراطية و(الكومنولث) لخداع الشعوب وإلحائها عن حقيقة أوضاعها، وإيهامها بأنها تحكم نفسها بنفسها، والحقيقة أنها خاضعة خضوعاً تاماً للقوى الكبرى!!

نعود لأراء الشيخ مصطفى صبري التي أوردتها عن الدولة العثمانية.. فاقبس نصاً من كتاب (أ.د. انكلهارد: تاريخ تطورات الدولة العثمانية) يذكر فيه أن (الإسلام الذي قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة ناظماً، فقد كان القانون المدق متحداً مع القرآن) ثم يفصح عن نوايا دول أوروبا المسيحية التي ظلت تعمل على تفويض الدولة العثمانية بالقوة طيلة خمسة قرون، فلما فشلت اتبعت الحيلة لكي تحول حكومة آل عثمان (من الروحانية إلى الدنيوية

(١) نفسه ص ٨٥.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العثمانية

بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي).^(١)

وكان هذا هو السبب الرئيسي للعداء.. لأن أوروبا ظلت في حالة حروب صليبية مستمرة منذ عهد السلاجقة الأتراك، لتيقنها من حقيقة دور العثمانيين في الدفاع عن الدين وعن بلاد المسلمين الذين لا يفرقهم وطن ولا لون ولا جنس ولا قوم. كل ما هنالك أن الحروب الصليبية المبتدئة منذ عهد السلاجقة الأتراك كانت فيها أوروبا هاجمة والسلاجقة مدافعون، وانقلب الحال في أيدي الأتراك العثمانيين فأصبحوا مهاجمين، وظلت أوروبا تعمل لهم ألف حساب لأنهم يجمعون العالم الإسلامي تحت رايتهم، ويصدون الخطر الاستعماري الأوروبي الفادح.

ليست إذن العلاقة مشابهة بين دولة مستعمرة (بفتح الميم) وأخرى مستعمرة (بكسرهما) ولعل من أقوى الأدلة على ذلك أنه بمجرد انفصال الدول العربية، بعد نجاح الثورة بقيادة الشريف حسين، حتى انقلب (النجاح) وبالأعلى الشعوب، لأن الثورة - ثورة العرب التي كسرت الحماية العثمانية - أسهمت في كسر شوكة القوة العثمانية التي كانت تقف في الأطماع الاستعمارية التي تدفقت بعدها كالسيول الجارفة تقضي على الأخضر واليابس، أو كالوحوش الكاسرة التي ما إن رأت السور الحديدى الفاصل بينها وبين ضحاياها ينكسر حتى التهمت في ضراوة وقسوة!!.

ولنقارن بين الأحداث التي لحقتنا تبعاً، وبين ما فعله العثمانيون مع غير العرب من دول أوروبا، ولنسأل أنفسنا هل يُعدّ ما فعلوه استعماراً؟.. يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام:

(١) نفسه ص ٨١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا، وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية. فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع والارستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقيق الشركسي والصقلي، وغيره، إلى أكبر مقام في الدولة، كما وصل النابه من عامة الناس، حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها، سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل.^(١)

إن هذه القيم تنفي عن الدولة العثمانية قمة الاستعمار تماماً. فما كان دور الغرب معنا؟ .. لعلنا نصدم القارئ - كما صُدمنا - بحقيقة تقييمه لنا. إنها حقاً صدمة غير متوقعة لأنها صادرة عن (منتسكيو) صاحب كتاب (روح القوانين) الشهير الذي يقول:

[إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لانتفاذ الزنوج عبيداً، فإن أقول: إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تر بداً من أن تستعيد شعوب أفريقية لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة. والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة من أحمس القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترتئ لها. ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى - وهو ذو الحكمة السامية - قد وضع روحاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - في داخل جسم حالك السواد]!!^(٢)

(١) نفسه ص ٨٦.

(٢) نص مترجم من الفرنسية، بقلم الدكتور محمد عوض محمد، بكتابه «الاستعمار والمذاهب الاستعمارية» ص ٣٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م

آراؤه السياسية

عدم الفصل بين الدين والسياسة:

لما يطلو التاريخ بعد، صفحة الفصل بين الدين والسياسة، حيث نعيش آثاره ومآسيه، إما في كتابات بعض المقتفين آثار (الإفرنج)، أو في واقع الأحوال حيث أبعد الإسلام عن الحكم والتشريع.

لذلك فإننا عندما نعرض لأفكار الشيخ مصطفى صبري واجتهاداته، فإننا لا نعيد للأذهان تاريخاً مضى وانتهت أيامه، ولكن نذكر أنفسنا والقراء معنا بضرورة تصحيح مفاهيمنا الإسلامية التي أصابها الكثير من (التشويش) بسبب المناهج الدراسية وأذنان الغرب وأبواق الدعاية المسمومة وحملة الأقلام من المغترين والماركسيين.

ولكن نحمد الله تعالى، لأنه قيض لهذه الأمة من يدفع عنها كيد الكائدين، فيصحح عقيدتها ويأخذ بيدها إلى الطريق القويم دائماً.

ونحسب أن الشيخ مصطفى صبري منهم، في هذه المسألة بالذات، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً.

ونقسم البحث إلى بندين:

الأول: الرد على كتاب الأستاذ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم).

الثاني: مبدأ عدم الفصل بين الدين والسياسة.^(١)

أولاً: الرد على كتاب (الإسلام وأصول الحكم):

كان أول من أثار المسألة نظرياً وألف كتاباً عنها هو الأستاذ على عبد الرازق بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) وكان قاضياً شرعياً بمدينة المنصورة، وأراد بتأليفه تأييد ما فعله مصطفى كمال في تركيا من إلغاء الخلافة - وإن لم يصرح في كتابه بهذا التأييد - بل إنه تجاوز ما فعله الكماليون في تركيا، لأنهم كانوا يقتصرون في نقد الخلفاء وتزييف الخلافة على التكلم في ما بعد عهد الخلفاء الراشدين على الأقل، [فابتدأ قاضي المنصورة، التزييف من خلافة أبي بكر مدعياً أن رسول الله ﷺ لم تكن له حكومة حتى يكون أبو بكر خليفة فيها، وإنما كانت له نبوة وهي لا تقبل الخلافة].^(٢)

لذلك فقد تُرجم الكتاب إلى اللغة التركية بسرعة، واستغله حكام تركيا الجدد في أغراضهم اللادينية.^(٣)

وقام علماء الإسلام الغيورون على دينهم حينذاك بواجبهم في الرد على أفكار الأستاذ على عبد الرازق، فاحتجوا وناروا ودبحوا المقالات وألفوا الكتب لشجب بدعته التي شذها على إجماع علماء الإسلام في طول العالم الإسلامي وعرضه

(١) خصص له الجزء الرابع من كتابه الكبير «موقف العقل والعلم...».

(٢) موقف العقل والعلم والعالم... جزء ص ٣٦٠.

(٣) ويقول في تعليقه [والمسلم الجاد في إسلامه تحرق كبده كمداً أن يرى مصر العربية في حالة الزيف يستغلها ملاحدة الترك الجدد، بعد أن كان قداماؤهم المسلمون أخذوا دينهم من العرب جزء ص ٣٦٦].

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وشماله وجنوبه منذ ظهور الخلافة كنظام للحكم في الإسلام حتى العصر الحديث.. وكان منهم الشيخ الخضر حسين.

وقد اقتصر الشيخ مصطفى صبري في رده على مضمون كتاب (الإسلام وأصول الحكم) على تنقيد دعويين كل منهما مصادم للبداية:

أولهما: زعم على عبد الرازق أن الرسول ﷺ لم تكن له حكومة، فكانه لم يكن يأمر ولا ينهى أو لم يكن مطاعاً في أمره ونهيه.

الثانية: كانت لأبي بكر حكومة لكنها حكومة لا دينية أي حكومة زمنية لا صلة لها بالدين.^(١)

١ - حكومة النبي ﷺ :

لم يعترف الأستاذ على عبد الرازق في كتابه بوجود حكومة النبي ﷺ ، وبالتالي لا تصبح حكومة أبي بكر بعده خلافة عن حكومته.

وعندما صدمته حقائق التاريخ عن جهاد الرسول ﷺ تضارب في أقواله وتخييط في تفسير آيات الجهاد والدعوة إلى الله تعالى وعبادته وتوحيده، فتارة ينفي أن رسالة النبي ﷺ اعتمدت على القوة، وإن كان قد لجأ إلى القوة والرهبة، فذلك لا يكون على سبيل الدعوة إلى الدين وإبلاغ رسالته إلى العالمين بل في سبيل الملك ولتكوين الحكومة الإسلامية، ولا تقوم حكومة إلا على السيف، وبحكم القهر والغلبة.^(٢)

وتأول آيات الجهاد حيث أحصى الآيات الناطقة بأنه لا إكراه في الدين، وأنه

(١) موقف العقل والعلم والعالم جـ ٤ ص ٢٩٢.

(٢) موقف العقل والعلم جـ ٤ ص ٣٦٨.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

ﷺ ليس عليهم، مسمي، وإنما هو نذير، وما عليه إلا البلاغ .. إلى غيرها من الآيات الدالة على هذا الغرض.^(١)

ولكن الشيخ مصطفى صبري يرى بأن الآيات قد نزلت في أوائل عهد الدعوة حين كان المسلمون في قلة وضعف، ولعلها تسلية للنبي ﷺ ودفع الحزن عنه على عدم إيمان قومه، ويستطرد قائلاً: [والأستاذ يعترض علينا بالتاريخ ونحن نعترض عليه بآيات القرآن الصريحة الحاتئة على الجهاد في سبيل الله تعالى إنما حث، فهل يمكن أن يكون الجهاد المذكور في القرآن الموعود من الله الجنة ثمناً له، عملاً غير ديني؟]^(٢)

وهكذا صرف جل عنايته لشرح غزوات النبي ﷺ لإثبات حكومته، لأن هذه الغزوات، كما قهرت الكفار وكسرت حضورهم - فهي تقضي على الكتاب ودعوى مؤلفه الباطلة.

إن مؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) يعترف بأن النبي ﷺ أمد بصره إلى ما وراء جزيرة العرب، واستعد للانسياب بجيشه في أقطار الأرض، وبدأ فعلاً يصارع دولة الرومان في الغرب ويدعو إلى الانقياد لدينه كسرى الفرس في الشرق، ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر.. الخ.^(٣)

وينتهي من تقرير كل ذلك إلى أن: محاربات النبي ﷺ كانت لتأييد زعامته لأمته وتقوية سلطته على الناس المبعوث إليهم لدعوتهم إلى الإيمان بالله وحده، تلك السلطة التي يلزم أن لا يعوزها الأنبياء، وأن يكونوا من ناحيتها أقوى وأملك من الملوك.

(١) نفسه ج٤ ص ٣٦٨

(٢) نفسه ج٤ ص ٣٧٠.

(٣) نفسه ج٤ ص ٣٦٧.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ويكتفى الشيخ مصطفى صبري بهذا الإقرار لهدم أساس الكتاب.^(١)

ووقف الشيخ مصطفى صبري - بمناسبة الحديث عن الجهاد - أمام ظاهرة لفتت نظره، حيث رأى موقف على عبد الرازق وغيره من الجهاد الإسلامي موقف التهيب والحرب من تصوير الواقع، وذلك ناشئ في تعليقه من قوة الغرب المتغلب على الشرقيين، ورأى أن هذه العلة - أو العقدة النفسية - قد تغلغلت في قلوب كتاب مصر وعلمائها عند الدفاع على استنكار الغربيين لحروب الجهاد، بينما ينبغي رد الاتهام مضاعفاً إلى أمم الغرب نفسها، بل توجيه التهم الأقوى إليها لأنها تحارب للاستعمار وإذلال الشعوب واغتصاب أراضيها وأموالها. ورأى أيضاً أن أعيب المعايير على الأمة أن تحارب هي وتبوع غيرها، إذ تحارب لغاية حسيسة منشؤها الشره المعيب الحيوان ويتساءل [وأين هي بالنسبة إلى حرب دينية يقصد بها إعلاء كلمة الله تعالى وسوق الناس إلى ما يرشددهم ويسعددهم في الدارين؟

هذا فضلاً على أن المحارب لله تعالى فمنعه مخافة الله عز وجل من أن يظلم في الحرب، وتجعل له فيها حدوداً لا يجاوزها أثناء المحاربة ولا بعد انتهائها بالغلبة، وهذه الحدود لا تشبه ما يسمى حقوق الدول التي هي ملعبة في أيدي المتحاربين لا سيما في يد الغالب.^(٢)

لم يلق شيخنا إذن بالأل للثل هذه الاتهامات الصادرة عن نفوس تعمل في طياها الحقد للإنسان وعقيدته وتاريخه وحضارته، ورأى أنه من قبيل الهزيمة النفسية إيجاد تبريرات غير صحيحة وتأويل الآيات القرآنية تأويلاً ياباه التفسير الصحيح ويخالف حقيقة دور الأنبياء والرسل في جهادهم لأعداء الله تعالى، فذهب - على الضد من

(١) نفسه ج٤ ص ٣٧٣.

(٢) نفسه ج٤ ص ٣٧١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

هذه الروح المنهزمة أمام قوة الغرب - إلى التأكيد بأن القوة لازمة للدفاع عن الحق، وكان ذلك دأب الأنبياء والرسل عليهم السلام.

٢- بعد ذلك يصبح من السهولة بمكان إثبات أن حكومة أبي بكر الصديق رضى الله عنه كانت بدورها حكومة دينية.

والدليل على ذلك، الواقعة التاريخية المدونة في كتب التاريخ الإسلامى الموثقة، إذ أن النبي ﷺ استخلف أبا بكر رضى الله تعالى عنه في خطبته بعد اختياره خليفة للمسلمين (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

ويعلق على ذلك بقوله:

[غاية في الغرابة والشذوذ ادعاء أن يكون رئيس حكومة كهذا رئيس حكومة لا دينية، فهل رأيتم أو سمعتم حكومة زمنية لا علاقة لها بالدين تدور رئاستها مع الإمامة في الصلاة؟]^(١)

ثانياً: عدم جواز فصل الدين عن السياسة:^(٢)

استأثر هذا الموضوع البالغ الأهمية بعناية الشيخ مصطفى صبري، فألف الكتاب الذى بين يدي القارئ، كذلك خصص الباب الرابع بأكمله بكتابه الكبير لعرضه وتحليل أبعاده ومناقشة المعارضين من المنفرجين المقلدين للغرب في فلسفاته ونظمه وثقافته، وكانت آراؤهم تنشر بالصحف والمجلات وفق حملة مدروسة ومنفذة بمعرفة

(١) نفسه ج ٤ ص ٣٧٤.

(٢) يقتصر حديثنا على عرض آراء الشيخ مصطفى صبري وهو يمثل الإجماع لدى علماء المسلمين.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

بعض الدوائر الاستعمارية لتدفع عن مصطفى كمال قهمة الكفر والخيانة، ولتغري أيضاً وتشجع حكام البلاد الإسلامية على تقليده.

كما صدر أول كتاب يدافع عن الخطوة الكمالية ويبررها وأحدث صدوره دويماً هائلاً، وهو الكتاب المعروف بعنوان (الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ على عبد الرازق.

ولكن لا يفوتنا ملاحظة التطورات التي حدثت في أوروبا - كعبة المقلدين منا والسائرين نحو الغرب وحضارته.. ويدهشنا - ولكن لا يفاجئنا - أن أحد مبادئ الإسلام الأساسية المقررة منذ عصر النبي ﷺ - أي عدم الفصل بين الدين والسياسة - قد أخذ مكانه الآن على المسرح الأوربي والأمريكي السياسي:

ففى أوروبا.. (نجد نمو علاقة جديدة - بين الدولة الشيوعية والكنيسة - بحيث تسمح للبابا أن يأتى في عقر دارها، ويخاطب (رعايه الكاثوليك) فوق رؤوس الحكام خلال أزمة خطيرة بالغة التعقيد).^(١)

وفي أمريكا.. قال أحد رؤسائها في أحد خطباته: (إن هذا الكتاب المقدس - وكان يحمل في يده الإنجيل - يحمل الحل لكل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية).

وفي خطاب آخر قال: (إنه لا يوجد شيء اسمه الفصل بين الدين والسياسة، وإن القائلين بالفصل بين الدين والسياسة لا يفهمون القيم التي قام عليها المجتمع الأمريكي).

(١) الأستاذ أحمد هاء الدين: مقال (القائكان والكريمين وبولندا من زاوية عالمية) جريدة النساء، ١٩٨٣/٦/٢٩م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

وقال أيضاً: (إن الأخلاق القومية لا يمكن أن تقوم إلا على الدين...)^(١).

إن مثل هذه المواقف تسلط الضوء على حقيقة التدين في الغرب، فالقول (بأن أهل أوروبا تخلو عن دينهم، فلننفع نحن مثلهم قول فيه الخطر أكثر مما فيه من الجهل، فإن لمحنة أوروبا الحديثة لمحنة قائمة على ثورة دينية سعت إلى السيطرة على العالم، لا بالآلات والأسلحة فحسب، وإنما بالفكر والارتكاز على المقومات الروحية للشخصية الأوروبية في إطار الزمان والمكان)^(٢).

ووقف الشيخ مصطفى كما رأينا، مجاهداً في وجه أتاتورك وأعوانه.. لأنهم فصلوا بين الخلافة والسلطة أولاً، ثم قاموا بنفي السلطان عيد الحميد وأسرته من آل عثمان، وأبعدوا الإسلام عن الحكم وأحلوا محله القوانين الفرنسية.

ومن العجب أن هذا العمل الذي لم يسبق له مثيل في تاريخنا كله، لقي من مدحه ويجهذه - لا من حملة الأقلام المستغربين وحدهم - ولكن من بعض علماء الدين أنفسهم، وكانت هذه هي القاصمة الكبرى التي أزعجت الشيخ أينما إزعاج ودفعته إلى شدة (النكير..). على أتاتورك ومؤيديه، وتجنيد قلمه في كتابه الكبير لتجلية القضية، ووضعها في مكانتها، بحيث ألحقها - لأهميتها القصوى وأثرها الخطير - ببحوثه في العقيدة الإسلامية، حيث بدأ في إثبات وجود الله عز وجل إثباتاً علمياً بحقيقة معنى الكلمة، ثم عن إثبات وجود رسل الله تعالى ومعجزاتهم ليكون بحسب الدين من قبل الله تعالى اللازم لكونه مستنداً للأخلاق فضلاً عن أن

(١) مقال الأستاذ نفسه بجريد المساء تحت عنوان (الدين يقتحم السياسة في أمريكا أيضاً) بتاريخ: ١٩٨٤/٩/٢٤.

(٢) د. عون الشريف: مجلة الدوحة، ذو القعدة ١٤٠٣هـ / سبتمبر سنة ١٩٨٣م مقال بعنوان (موقف الغرب من الدين).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وجودهم لازم لوجود نشأة أخرى يحاسب الناس فيها على أفعالهم في حياقم الأولى محاسبة منطقية على تليغات الرسل.

ويصل بعد هذا الترتيب المتسلسل إلى لزوم أن تكون حكومة الأمة الإسلامية متدبنة أى خاضعة للدين.

وفي نص جامع يقول الشيخ مصطفى صبري:

[هذه فلسفة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلسفة عقيدتنا نحن المتدينين التي تتوقف سعادة الدارسين للأمم على أن تركزها في قلوبها أفراداً وجماعات وتنشئ أبنائها على مبادئها وآدابها. إلا أنها في حالتها الحاضرة لا تتعدى أن تكون أقوالها مكتوبة في هذا الكتاب أو بالأصح حبراً على ورق].

ويتساءل بعد ذلك: فمن ينقذها ويعمل بها وينشرها ويجعلها خطة مرسومة مطاعة إن كانت أقوالاً مقنعة مطابقة للحق؟

وإذا تكلمنا عن الإصلاح، هل يكون صلاح الأمة بحركات فردية أو بواسطة هيئة تتولى أمرها وتكون لها سلطة عليها؟

إن الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى تردد، فإن الوضع الصحيح أن الحكومة هي التي تصلح الأمة إذ لو أمكن صلاح الأمة من تلقاء نفسها لاستغنت كل أمة عن اتخاذ حكومة ذات سلطة عليها!!

ويقرر بعد هذا التمهيد المنطقي الدال على وضوح الفكرة وقوة أسانيدها، أن مقتضى هذا الأساس [أن مبدأ الديانة إن كان حقاً مسلماً به وكان التمسك بالدين لازماً للأمة - لا سيما الأمم الإسلامية - وشرطاً حيوياً لكيانها، فاللزام أن تكون

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

حكومتها متدينة أى خاضعة للدين حتى يتسنى تدين الأمة ويسلم لها البقاء على دينها^(١).

ولكن ما السبب الذى دعا الشيخ إلى إلحاق مسألة فصل الدين عن السياسة مع مسائل الألوهية والنبوة المتصلة بعلم (أصول الدين) - أى عقائد الإسلام، بينما تنصل مسألة الفصل بناحية العمل؟

يجيب على ذلك بأن: مسألة فصل الدين عن السياسة ترجع إلى مسألة (وجوب نصب الإمام) المحدودة من المسائل الكلامية. ووجوب الإمامة فى اصطلاح علماء الإسلام يعنى مباشرة وتلقائياً أنه لا بد من تحكيم شرع الله تعالى.

يمثل هذا الفهم، كان المدخل الصحيح لشرح المسألة - على خطورتها وأهميتها - والدافع إلى ذلك ما رآه معه كل غيور على أهل ملته بعيون دامعة من تشتت شمل المسلمين وهبوطهم إلى حضن الدل والمسكنة منذ ضعف اعتصامهم بدينهم القوى القوم (فهم فى حاجة إلى تدارك أمرهم بالرجوع إلى حضنة الإسلام فيتربوا فيها ويعثوا من جديد إلى حياة الدنيا والآخرة. ولا ينفعهم البحث عن أسباب البعث فى حضانات أجنبية فينشأوا أمة ممسوخة لا شرقية ولا غربية ولا مسلمة ولا كتابية^(٢).

(١) موقف العقل والعلم، ج ٤ ص ٢٩٠-٢٩١.

(٢) نفسه، ج ٤ ص ٢٨٧.

حقيقة فصل الدين عن السياسة

مر بنا أن مروّجى الفكرة صوروا المعنى على أنه مجرد فصل الدين عن السياسة، بأن لا يتدخل كل منهما في أمر الآخر.

ويتصدى الشيخ مصطفى لهذا التفسير.. فيقنده مستنداً إلى شرح العلاقة بين الحكومة والدين، وإلى تاريخ المسلمين منذ خلافة الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم، وإلى النتائج التى ترتبت على هذا الفصل فى تركيا اللادينية:

١- أن مسألة الفصل ترمى إلى أكثر من هذا وأمر، لأن السياسة التى تتولاها الحكومة التى تتخلى عن الدين، معناه وضع الدين تحت أمر الحكومة ولهيها مع كل ما يدخل تحت سيطرتها، وبمجرد هذا الوضع ينافى عزة الإسلام، الذى يعلو ولا يُعلى عليه، كل المناقاة، ويوجب الكفر، حتى ولو احترمت الحكومة دين الأمة ولا تمسه بشيء من الاضطهاد مع كونها قادرة عليه، من حيث سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين.

ويضرب على ذلك مثلاً بوضع مصر تحت حماية الإنجليز.. أى أن وضع الدين فى حماية الحكومة مثله كمثّل وضع مصر فى حماية الإنجليز، فأيهما المسيطر على الآخر؟

إن هذا الموقف بلا شك يمس كرامة الدين كما مس كرامة مصر، فضلاً عن أن السائل كثيراً ما يبغي على المسوس، والسيد على المسود.

فأين هذا الوضع المعكوس من وضع الدين فى الدولة العثمانية(المرحومة)؟!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

إن حكوماتها وسلطانيتها كانوا خاضعين للدين، ويوضح ذلك أيضاً المثل التركي الذي معناه بالعربية [إن الرأس مربوط بالرئيس والرئيس مربوط بالشرعية].^(١)

٢- ويستخلص الشيخ مصطفى صبري من تاريخ المسلمين، الدليل القاطع بأن فصل الدين عن السياسة هو في حقيقته تجريد الحكومة من الدين لتعمل بعقلها القصير متحللة من أوامر الدين وأحكامه، وهذا ما لم تجرؤ عليه حكومة من قبل طوال التاريخ الإسلامي، بل لم تكن الفكرة تطوف ببال أي حكومة من حكومات المسلمين مهما كانت فاسقة مستهترة بأفعالها.

إن الحكومات الإسلامية منذ عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم إلى عهد أتاتورك يحكمون على الأمة، ويحكم عليهم الإسلام من فوقهم، فإذا خالفوا حكماً من أحكام الدين اعتبر ذلك إثمًا وذنباً على الحكومة الفاعلة، كما يقترف أحد من المسلمين إثمًا متبعاً هوئى نفسه من مخافة الله ومخافة الناس.

ولم يحدث قط في تاريخ المسلمين وحكوماتهم، المجاهرة بالخروج عن رقابة الإسلام ومحاولة فصل الدين وعزله عن السياسة - وهو في حقيقته عزله عن حكمه على الحكومة - (ووضع هذه المسألة موضع البحث في شكل مشروع جديد ومذهب اجتماعي جديد ومحاولة تقليد الحكومات الأجنبية عن الإسلام في ذلك).^(٢)

أما ما حدث في هذه (السنوات النحسات) فإنه إعلان حرب من الحكومة على الإسلام - كما هو المعتاد في الحروب - تعلنها الحكومة، ثم يعتبر ذلك إعلاناً من الأمة أيضاً.^(٣)

(١) نفسه، ج٤ ص ٢٩٣.

(٢) موقف العقل والعلم، ج٤ ص ٢٩٢.

(٣) نفسه.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

٣- لينظر من لم يفهم قبل الانقلاب التركي الكمالى، مبلغ خطر فصل الدين عن السياسة على الإسلام، وضرره به، لينظر اغيار أحكام الإسلام وقيمه عقب ما حدث.

أما الذين فهموا فظاعة الفتنة اللادينية في تركيا، فقد توقعوا انقراض عقد الإسلام عروة عروة (فقد حذفت في عهد مصطفى كمال الكلمة القائلة في الدستور التركي القديم بأن دين الدولة الإسلام واستبدل معها القانون المدنى السويسرى.. وأمر بليس القبة وأبيح زواج المسلمات من غير المسلمين.. ومنع السفر لأداء فريضة الحج وغير ذلك حتى ترك الحلف باسم الله في الإيمان الرسمية)!!^(١)

هل هناك من يزعم بعد ذلك أن فصل الدين وتبديل القوانين وحذف دين الدولة وغير ذلك، هل يزعم أن هذا كله لا يضر الإسلام!!؟

ويرى الشيخ مصطفى - بعدما آلت إليه الأحوال في تركيا اللادينية - أن المروجين لفصل الدين عن الدولة أحد اثنين: إما مستبطن للإلحاد، أو جاهل بمعنى ما يقول، لأن ترويج الفكرة لا يتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله ﷻ، وأن أحكامه المذكورة في الكتاب والسنة أحكام الله تعالى بواسطة رسوله ﷺ. ^(٢)

ولم يغب عنه ملاحظة ما بدأ يحدث في مصر، تقليداً لتركيا، فإن (فصل الدين واقتصاؤه عن السياسة أخذ يعمل به من زمان قسماً في مصر وتاماً في تركيا الجديدة).^(٣)

وحرص الشيخ - لشدة غيظه على الإسلام - على التنبيه إلى ما بدأ يحدث في

(١) نفسه، ج٤ ص٢٩٤.

(٢) نفسه، ج٤ ص٢٩٤.

(٣) نفسه، ج١ ص١١.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

مصر حينذاك من خطوات تمهيدية تهيء الأذهان إلى تكرار ما حدث في تركيا، فأخذ يعارض وينقد المروجين لفصل الدين عن السياسة بمصر، ولم يبق بالألمن يتقده لأنه يتدخل في شئون بلد آخر غير بلده (والعالم يرى الوطن فقط فوق كل شيء، مع أن المسلم يرى الوطن مع الإسلام، فهو يتوطن مع الإسلام ويهاجر معه).

وبهذه العقيدة وقف بعنف لوجهة النظر القائلة بأن (في إمكان أي حكومة إسلامية أن تخرج عن دينها فتصبح حكومة لا دينية، وليس في هذا مانع من أن يبقى الشعب على إسلامه كما هو الحال في تركيا الجديدة).^(١)

ويدفع الشيخ مصطفى صبري هذا الرأي بواقع الحال الذي آل إليه الجيل الجديد في تركيا.

إنه يرى ادعاء عدم لزوم الدين للحكومة، يزعم أن في دين الأمة كفاية، شدة الضرر الذي سيعود على الأمة من جراء ذلك، لسبب بسيط واضح لا يحتاج إلى كثرة الجدل، إذ أنه من البديهي أن الحكومة تستطيع التأثير في الأمة ولا تستطيع الأمة التأثير في الحكومة ما دامت خاضعة لحكمها (فليس في مقدور الأمة التأثير في حكومتها غير تغييرها. فإذا لم تغيرها أو عجزت عن تغييرها فلا شك في تأثير الحكومة فيها وتمشيها على هواها وتنشئة أبنائها على مبادئها دون تأثير من الأمة في الحكومة).^(٢)

وأخذ ينبه أيضاً إلى نوايا إسماعيل صدقي باشا الذي اقترح في مجلس النواب توحيد القضاء في مصر إدماج المحاكم الشرعية في المحاكم الأهلية، وهذا الاقتراح فصل مهم من مبدأ فصل الدين عن السياسة، حيث عارضه النواب العارفون لحقيقة

(١) كان صاحب هذا الرأي هو الشيخ المراغي، جـ ٤ ص ٢٨٥.

(٢) نفسه، جـ ٤ ص ٢٩١.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

نوايا الباشا، وأعلنوا أن الإسلام ليس دين عبادة فقط بل دين حكم أيضاً، وإدماج المحاكم الشرعية في المحاكم الأهلية المتضمن لإلغاء المحاكم الشرعية، يناق كون الإسلام دين حكم.

ويعلق الشيخ مصطفى على ذلك ساخراً بقوله:

[لكن دولة إسماعيل صدقي باشا، الذى لا يجهل كون الإسلام دين حكم، يريد إلغاء هذا الحكم، لكونه ممن لا يقبلون حكومة الدين على الناس].^(١)

يتفق الشيخ مصطفى صبرى في موقفه، مع إجماع علماء المسلمين، أن الإسلام لا ينحصر في العبادات (بل يعم نظره المعاملات والعقوبات وكل ما يدخل في اختصاص المحاكم والوزارات ومجالس النواب والشيوخ، فهو عبادة وشرعية وتنفيذ ودفاع.. الإسلام ينطوى على كل ما تحتاج إليه الدولة والأمة من القوانين).^(٢)

وما دام الأمر كذلك، فلا يصح تقليد الغربيين في الفصل بين الدين والسياسة، لعدم وجود القانون الإلهي عندهم، كذلك ليس لديه علم الفقه المستنبط من كتابهم

(١) نفسه، ج٤ ص ٢٨٢.

كذلك ينبغي الانتباه إلى خدعة إطلاق أسماء على غير مسمياتها لتنمويه والتضليل، وعلى سبيل المثال فإن ما وصف إسماعيل صدقى لاقتراحه بأنه (توحيد للمحاكم)، يشبه تماماً ما فعله مصطفى كمال من قبل، حيث سمى إلغاء الأحكام الشرعية توحيد المحاكم، وسمى منعه للعلوم الإسلامية وإبطالها توحيد للتعليم التركى، وسمى تفضيله للقوانين الأوروبية الأساس كقانون سويسرا للأحكام الشرعية إشاراً للأحكام الحديثة. وتحت زعم الحرية الدينية فإنه يسمح بالحرية الدينية للوثنيين أو اليهودى أو النصران ولا يسمح بها للمسلم، حيث يجبر إيجاباً على استباحة شرائع الإسلام من حلال وحرام.

(ينظر الجزء الأول من كتاب الأستاذ أنور الجندى (تاريخ الصحافة الإسلامية)، ج١، ص ٢٣٤، (المنار) وصاحبها رشيد رضا، دار الأنصار بالقاهرة، سنة ١٩٨٣ م.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم، ج٤، ص ٢٩٥.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

وسنة نبينهم ﷺ ولا أصول الفقه، فكيف نترك تراثنا التشريعي العظيم ونستورد قوانين من وضع البشر؟!^(١)

إن ضرورة المحافظة على استقلال المسلمين أيضاً، أفراداً ومجتمعات، تقتضي الامتناع عن تقليد الأمم الأخرى (والمسلم المتعلم إنما يكون مسلماً متعلماً بالاستقلال في العقيدة الدينية، ولا يجوز للمسلم المتعلم تقليد غيره من المسلمين في العقيدة.. فما ظنك بتقليد غير المسلمين)؟!^(٢)

هذا فضلاً عن الفارق الكبير بين التشريع الإلهي والقانون البشري، بل لا نسبة بينهما إذا بحثنا كيفية إصدار القوانين بواسطة المجالس النيابية. ويكفي أن نعرف أن النظام الديمقراطي يدار بأجهزة ومؤسسات لا تعبر تعبيراً صحيحاً عن الأمة، وعلى سبيل المثال يمكن تلخيص هذه الانتقادات فيما يلي:

- ١- أن أكثر الآراء البشرية نسبية في الوصول إلى الحق أو معرفته.
- ٢- العبرة في النظام هناك بعدد الآراء لا بمدى قوتها وأصالتها، ودعك من التلاعب وتضارب المصالح حيث تولد الاستبداد والافتئات.
- ٣- الشبهات قوية في صحة نيابة أعضاء هذه المجالس النيابية عن الأمة التي يمثلونها.^(٣)
- ٤- أن القانون البشري يتخذ أداة لتقسيم الناس إلى طبقة حاكمة وأخرى محكومة، فتضيع العدالة.^(٤)

(١) نفسه، ج١، ص ١٣.

(٢) نفسه، ج٢ ص ٣٣٢.

(٣) نفسه، ج٢ ص ٢٤٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

فلا عجب إذن أن يظهر أحد المصلحين في أوروبا لينادى بضرورة إدخال الدين في نظام الحكم، فقد قال المصلح الشهير كلفن [الملك الذى لا ينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما لصوصية].^(١)

أين هذا من الحاكم في الدولة الإسلامية، إنه القانون بتمام معني الكلمة لأنه القانون الإلهي وكفى، والكل - حتى الخليفة - تحت حكمه وسلطته.. والحديث (قاضيان في النار وقاضى في الجنة) يعبر عن الحكومة الإلهية أصدق تعبير.^(٢)

ولم يغفل الشيخ مصطفى صبرى، الرد على المعارضين على تطبيق الشريعة الإسلامية، وحججهم تلتخص في رأيين:

١- وجود الأقليات غير المسلمة.

٢- القانون السماوى يوجد امتيازاً لرجال الدين.

الأقليات غير المسلمة:

أما توهم غير المسلمين المتوطنين في بلاد الإسلام لا يأمنون جور القوانين الشرعية، فمردود عليهم بالمفهوم الديمقراطي نفسه، حيث يشكل المسلمون أغلبية تضمن لهم التغلب في ظل القوانين الوضعية - منصفين أو جائرين - هؤلاء أنفسهم تمتنعهم الشريعة الإسلامية إذا احتكوا إليها من الجور والظلم على غيرهم.

وكانت حافظة الشيخ مليحة بما يؤيد ذلك، فانتقى منها واقعة واحدة عاصرها وحدثت أمامه عندما كان نائباً عن (توقاد) حيث قام نزاع بين الأروام والبلغار

(١) نفسه، ج ٤ ص ٣٣٥.

(٢) نفسه، ص ٣٣٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

العثمانيين على الكنائس الموجودة في (مدونيا)، كانت حينذاك من أجزاء البلاد العثمانية، وادعى كل من الفريقين استحقاقه لها، فأحالت الحكومة موضوع النزاع إلى مجلس النواب للفصل فيه، فقام (آد يستيدى باشا) الرومى نائب أزمير خطيباً، فقال:

[إن لهذه الدولة داراً للفتوى تفصل في المسائل المعروضة عليها بموجب القوانين الشرعية فأحيلوا الأمر على رأى تلك الدار ونحن الأروام راضون عما ستصدره من القرار].

من هذا نرى أن الباشا الرومى احتكم إلى دار الفتوى، وهو موقف ألفا حق وأن الوزارة بسلطانها لا تقدر على استمالتها إلى خلاف الحق.^(١)

والدارس لتاريخ الخلافة العثمانية لا يسعه إلا الإقرار بأن التسامح الدينى وحرية التدين كانت أحد الظواهر اللافتة للأنظار وتعكس حرص السلاطين على تنفيذ الإسلام بروحه ونصوصه.. قال المؤرخان لافيس وراميو: [إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كسائر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد دينى. وكانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه، وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية].. ثم نقل هذان المؤرخان من القرآن هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتِيلُونَكُم وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّمَا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ كُنِيَ الْإِشْدَاقُ مِنَ الْغَيْ﴾.^(٢)

وحدث مرة أن السلطان سليم الأول أراد توحيد عناصر السلطنة وإحيار المسيحيين على إحدى عطلتين: الإسلام أو الرحيل، فقام في وجهه شيخ الإسلام

(١) نفسه، جـ ٤ ص ٣٤٠.

(٢) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى، جـ ٣، ص ٣٢٥.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

(ذنبيللى على أفندى) وقال له: (لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم).^(١)

ولا نظن أن هناك مثيلاً لهذه المعاملة الكريمة الراقية التي تعكس عدالة الإسلام حتى ولو رأى ذلك إلى حدوث قلاقل وفتن، وقد فسر أحد مشاهير أساتذة الحقوق والعلوم السياسية (المسيولويس دنول) علل أحد أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية بالحرية المذهبية والمدرسية للأمم المسيحية.^(٢)

ويقول الأمير شكيب أرسلان:

[ولقد كانت السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون واغرين مترفعين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامى. فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الترك بأوضاع الإفرنج وقلدوهم في كل شيء وعولوا على سياسة (التمغرب)، لم يبق في جميع الأناضول إلا فئة قليلة جداً من المسيحيين أى عدة آلاف].

(١) نفسه، ص ٣٢٨.

(٢) نفسه، ص ٣٢٧.

وينظر أيضاً كتاب الأستاذ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، حيث عرض بأسهاب لرأى المؤرخ الأمريكى لير الذى رأى أنه لو نفذ السلطان سليم قرار لنجم عنه مزبأ كبرى للدولة، من بينها أنها كانت ستتعلم بوحدة العقيدة الدينية وسيحدث اختلاط واتصهار بين الرعايا المسيحيين والرعايا المسلمين وأيضاً فإن وجه التاريخ في الشرق الأدنى كان سيتغير تغيراً جذرياً.

ويرى الدكتور الشناوى أن رأى شيخ الإسلام يعتبر تحدياً للسلطان ورجوعاً إلى الحق وممسكاً بمبادئ الشريعة الإسلامية ودليلاً على شجاعته الأدبية، ج ١، ص ٤١٧.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ويقرر في النهاية أن هذا برهان ساطع على سماحة الشرع الإسلامي وإمكان
تساكن المسلم والمسيحي واليهودي في ظلّه بالأمان والاطمئنان.^(١)

امتياز علماء الدين:

أما الظن بأن العمل بالقوانين الدينية يوجد امتيازاً لعلماء الدين على غيرهم،
فإنه مردود أيضاً، إذ الخطأ في هذا الظن ناجم عن قياس علماء الإسلام برجال
الكنائس ولا مجال للمقارنة بينهما. فقد كان رجال الكنائس يضعون القوانين الدينية
من عند أنفسهم، وكان الحال في أوروبا - قبل فصل الدين عن السياسة - يتمثل
في استبدادهم بقوة التشريع، فانتقل هذا الاستبداد بعد الفصل إلى رجال الحكومة
الزمنية الناجحين في انتخابات النواب.

والمقارنة - كما يرى الشيخ مصطفى صبري - غير صحيحة وغير مطابقة
بالمرّة عند تناول الشريعة الإسلامية، لأن علماء الإسلام المجتهدين - فضلاً عن
دولهم - لا يرون لأنفسهم حق التشريع أبداً، إنما التشريع في الإسلام لله تعالى
ولرسوله ﷺ يوحى من الله عز وجل.^(٢)

وهو الرأي الذي يذهب إليه أحد فقهاء الفكر السياسي الإسلامي في العصر
الحديث مطابقاً لإجماع علماء الإسلام على امتداد العصور.

يقول الدكتور حامد ربيع: (لقد درج المحدثون على فهم النظم الإسلامية من
منطلق المفاهيم الغربية المتداولة، وقد سبق ورأينا كيف أن سلطة التشريع في التراث

(١) شكيب أرسلان، حاضره العالم الإسلامي، ج ٣، ص ٣٢٨.

(٢) نفسه، ص ٣٤١.

الأسرار القيمة وراء إلقاء الخلقة العلمانية

الإسلامي إنما تعني عملية تخريج الأحكام، وليست مرادفاً لفكرة سن القانون بالمعنى المتداول.^(١)

(١) د. حامد ربيع: مقدمة كتاب [سلوك المالك في تدبير المالك]، ص ١٣٢، الجزء الأول، ط. دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. وأبحاث الدكتور حامد ربيع تشكل أحد الصخور الشائعة التي تنحطم على حافتها أمواج الفكر السياسي الغربي وتابعيه في العالم الإسلامي، كما ترسخ جوانب الأصالة والامتياز والتفوق للشرع الإلهي التي عززت الأنظمة المعاصرة عن اللحاق به!!

محالم نظريته السياسية

وله نظرية سياسية متكاملة قائمة على أنقاض النقااص الملاحظة عند التطبيق في النظامين الماركسي والديمقراطي:

١- فإن الماركسية تستند على الإلحاد وتغري الفقراء بالثورة على الأغنياء. وعند التطبيق يتضح أن الطبقات الدنيا تعاني من كبت الحريات والمظالم التي تقع من جانب رؤوس الحزب البلشفي.

٢- وفي الديمقراطية، يتحزب أصول الوطن الواحد، وتتصارع القوى وتتضارب المصالح الشخصية.

والقاسم المشترك الجامع بين النظامين: البعد عن الدين والقيم الأخلاقية والسماح باختلاط الرجال بالنساء. والانحلال والتدهور الاجتماعي.^(١)

أما الديمقراطية الإسلامية كما يراها الشيخ مصطفى صبري فإن أبرز معالمها هي:

١- الإيمان بالله تعالى وتحكيم الشرع والخضوع للقيم الأخلاقية الثابتة.

٢- عالمية الدعوة الإسلامية وتفوقها على الشيوعية من حيث إخضاع الناس لله رب العالمين.

ولكن من الضروري أن يعمل علماء الإسلام على توضيق الهوية بين طيفين

(١) موقف العقل، ج٤، ص١٦.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الأغنياء والفقراء ومحاربة الترف وحث الأغنياء على أداء حقوق الفقراء في أموالهم.

٣- عدم الفصل بين الدين والدولة، وهو متحقق في نظام [الخلافة]، التي هي عبارة عن كون حكومة ما نائبة مناب رسول الله ﷺ في القيام بأحكام الشرع الإسلامي، فلها ركنان: حكومة ونيابة.^(١)

٤- مجلس الشورى للخليفة وله دوره كمستشار للخليفة مع بقاء الحكومة والإجراء في يد الخليفة.

وقد حرص الشيخ على هذا الإيضاح لكي يبين أن نزع أتاتورك لسلطة عبد الحميد - آخر الخلفاء - وتحويلها إلى (المجلس الوطني) كأنه مجلس شورى، هذا العمل كان في الحقيقة إجراء استبدادياً لا يمت إلى الشورى بصلة. ويرد ذلك قائلاً ليرفع من شأن الشورى:

[ولا يتوهم أن مذهبي تعظيم السلطان وتصغير الشورى على الإطلاق - كما هو دأب المشغوفين بالحكومات المطلقة، إذ يعرفني من يعرفني ومناظرتي الاتحاديين في البرلمان العثماني ودفاعي الذي قضيت به حق الشورى.. إلخ].^(٢)

أما الزعم بأن الحكم في عهد أتاتورك حكم الشعب فإنه أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع، فإن (حكم الفرد اليوم بتركيا أشد بطشاً مما كان في الماضي بالآلاف أضعافه..^(٣)

(١) النكير، ط. بيروت، ص ٣٩.

(٢) النكير، ط. بيروت، ص ١٠٦.

(٣) نفسه، ص ١٠٤.

السلطان محمد الحميد (الخليفة المفترق عليه)

هناك منهج لتقييم أعمال القادة والزعماء، خاضع لفكرة خضوع حركة التاريخ السياسى لأعمال [البطل] المنفرد بمزايا عقلية وخلقية وقدرات خارقة للعادة، ونرى هذا المنهج يغالى في إلقاء الضوء على محاسن القادة والزعماء السياسيين، فيظهرهم بمظهر المتفردين بصفات خاصة، ثم يبالغ فيها ويغالى حتى يرفعهم إلى الألوهية، وذلك كما فعل الشيوعيون إبان حكم (ستالين).

ومع أن هذا المنهج قاصر علمياً حيث ظهر عقب وفاته أنه كان أحد فراعنة التاريخ الإنساني، ولكن مع الأسف مازال متبعاً في دول العالم الثالث.

هذه المقدمة لا بد منها لبيان كيف اتبعنا هذا المنهج المنحرف في الغلو/شخصية < مصطفى كمال>، وعلى العكس كيف صورنا خصمه (السلطان عبد الحميد) آخر الخلفاء الحقيقيين لدولة الإسلام.

ولا بد أن تدور في الذهن عدة تساؤلات عند دراسة هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا التي حدثت فيها الكارثة، فاحتفت الخلافة العظمى (وهي البقية الباقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأولى وهي العزاء الوحيد الذى كنا نتعزى بها في نكبات الأيام وصروف الليالي!!)^(١)

نعم، هذه البقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأولى، تسلط عليها (ثورى)

(١) كما وصفها الشيخ محمود شاكر (ينظر كتاب الانجاعات الوطنية، جـ ٢ ص ٣٨).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مزعوم فأزاحها من طريقه ليحكم هو، ومن ورائه جيش خليط من أعداء الإسلام، وصورت الأقلام حينذاك - وما زال أغلبها يصور - هذه الطامة الكبرى وكأنها مجرد صراع بين هذا (الثوري) وبين السلطان عبد الحميد الحاكم المستبد الرجعي.

فهل تعبر هذه الصورة عن حقيقة ما حدث؟

سنحاول في عجالة مناقشة بعض الأفكار السائدة الخاطئة عن السلطان عبد الحميد - لا لشخصه - ولكن لانطباع صورته في الأذهان مثلاً للخلافة الإسلامية في آخر مراحلها.

إن حركة التاريخ لا تسير بمجرد الخضوع لأهواء الأفراد ورغباتهم مهما بلغت قدراتهم ومواهبهم. صحيح قد يكون هناك دغل للمواهب الشخصية للزعماء والقادة في نجاحهم، ولكنهم لابد أن يتحركوا في الإطار السياسي والاجتماعي والدولي الذي تتحكم فيه عوامل عدة.

فما سبب إخفاق السلطان عبد الحميد^(١) ونجاح أتاتورك؟

وكان السلطان عبد الحميد هو أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها أحداث الخلافة، فألقيت عليه التهم جزافاً، فوصفوه بالاستبداد وأنه (السلطان الأحمر) وغيرها من الصفات التي روجها أعداؤه وخصومه من الداخل والخارج، ولا ننسى أن وكالات الأنباء والصحافة التي سيطرت عليها العناصر اليهودية والصليبية

(١) من الدراسات المنصفة للسلطان عبد الحميد ما ذكره الأستاذ محمد جميل هم في كتابه (فلسفة التاريخ العثماني) أن السلطنة حين جلس عبد الحميد على العرش كانت متقلبة بالتناوب تواجه أشد الأزمات، فشهدت في عهده نشاطاً كبيراً في العراق، وامتدت السكك الحديدية في ولاياتها الأوروبية والآسيوية، وأقيمت المرافئ المتعددة، وأنشئ الخط الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة، ولم يكن للأجنبي فيه صلات مالية) ج ٢ ص ١٦٢، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

قد تزعمت حركة تشهير واسعة النطاق، أخذت ترددها بتكرار وإلحاح حتى صارت وكأنها حقائق!!

ولكن مهما أوغلت المؤلفات الغربية في الافتراء على السلطان فإنها لم تتمكن من إخفاء دور الدول الأوروبية وراء الانقلاب، أو إخفاء الهدف من ورائه وهو القضاء على شخصية الخليفة الذي يمثل السلطة الدينية أى الإسلامية. يقول باول شميتز (لقد نظمت المقاومة ضد السلطة الدينية التي كان يمثلها عبد الحميد، وتجمعت عناصرها - خارج حدود تركيا، إلا أنها لم تستطع المبادرة، بقيادة المعركة الفاصلة ضده، بل جاءت هذه المعركة أولاً من الداخل، وعلى وجه التحديد من الجيش الذي أصابته عدوى (الأفكار القومية).^(١)

ثم يستطرد بعد ذلك، فيذكر سعى الدول الأوروبية للتقارب فيما بينها والتفاهم على تقسيم مناطق النفوذ، ولكي تسد الطريق على السلطان عبد الحميد الذي كان يستفيد من الخلافات القائمة بينهم، ففي سنة ١٩٠٦م عقدت روسيا والنمسا مؤتمراً لبحث مستقبل مقدونيا، وبعد ذلك بعام انضمت روسيا إلى حلف (التفاهم) المعقود بين إنجلترا وفرنسا (وأعقب هذا التفاهم ظهور خطر مباشر على تركيا، وفي هذا الجو تكونت مجموعة سرية - كانت أقوى المجموعات المناهضة لعبد الحميد - من المقدونيين للدفاع عن مصالحهم، وكانت على اتصال بالمقدونيين في سرايا الجيش، وفي عام ١٩٠٨م كان استعدادهم كاملاً وتنظيماتهم على أهبة القيام بالثورة).^(٢)

(١) الإسلام قوة الغد العالمية ص ٩٢ ترجمة د. محمد شامة، مكتبة وهبة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
(٢) نفسه، ص ٩٢، ثم يقول: (في يوليو سنة ١٩٠٨ هبت العاصفة ضد عبد الحميد وضد [الأفكار السياسية] التي كان يمثلها).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

نحن إذن أمام عوامل متشابكة يحسن وضعها نصب أعيننا عند دراسة هذه الحقبة الهامة من تاريخنا، فهناك مؤمرات داخلية ونزاع بين القوميات تغذيها قوى خارجية، وأزمات اقتصادية، ودول كبرى تنسى خصوماتها لتتفق على العدو المشترك.

وكان السلطان عبد الحميد على وعى بالمخاطر الخارجية ونوايا الدول نحوه فكيف يجابه هذه الدول بمفرده؟ لقد استولى الروس على بعض ولايات آسيا الوسطى العثمانية، واستولى الإنجليز على الهند وسعوا لتأمين سلامة الطريق إليها، كما ولدت أمريكا دولة فتية، وانتظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافظين الماسونية في سبيل الأرض الموعودة.

أورد السلطان عبد الحميد هذه الحقائق حوله في مذكراته، ثم أعقبها بقوله: [لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي].^(١)

وكان قد علم بمساوئ الدولة الداخلية، حيث أشاد بالسلطان محمد خان لأنه أزال غائلة الإنكشارية، وعالج الفساد والاختلال الناجمين عنهم، كما أشار إلى إدخاله مدينة أوروبا الحديثة إلى الدولة، وكانت الحالة الاقتصادية سليمة لأن (خزينة دولتنا حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد، ولكنه اضطر للاستقراض الخارجي بسبب نقض دول أوروبا لمعاهداتها مع الدول العلية وبسبب الحوادث الداخلية والفتن التي تحركها أوروبا، مما دفعه إلى جمع عدد من الجنود فوق العادة وحروب بلاد الصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود حتى اضطر إلى زيادة معسكراته

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٦٥، ترجمة وتقديم وتعليق: د. محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار بالقاهرة، سنة ١٩٧٨م.

ويقول، ص ٦٤: (يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

في جميع الجهات، فوضع تحت السلاح نحو ستمائة ألف عسكري^(١).

وعندما اعتلى العرش جاهته مشاكل كبيرة في الداخل والخارج.. فقد سقط قبله في شهور قليلة سلطانان، استشهد أحدهما وجن الآخر، وشارك كبار ضباط الجيش ورجال الدولة وأذنوا في هذا، وكانت الدولة مثقلة بالديون بسبب الاعتماد على الاستيراد، واضطرت إلى الاعتماد على الأقليات في وظائف الدولة، فكان بعضهم - في السفارات - يفضل إعلاء مصالح بلاده على مصالح الدولة العثمانية. وبينما كان الجيش والأسطول في عهد عمه السلطان عبد العزيز قوين مما أربح الروس والفرنسيين والإنجليز فحاولوا بواسطة عملائهم إسقاط السلطان عبد العزيز في نظر الشعب بالشائعات، فنجحوا بذلك في تمزيق الجيش والأسطول لتمزيق العلاقات بين ضباطه، حيث كان البعض يؤيد الأسرة المالكة والآخر يعارضها^(٢).

جابه السلطان كل هذه المشكلات، وجابهها وحده بمحنة وذكاء، حتى اعترف له خصومه بالدهاء.. وكان يتحين الفرصة لكي تشتبك الدول الأوروبية في حروب بينها وبين البعض فتسلم الدولة العثمانية، وعاش - كما يسجل ذلك في مذكراته - سنوات حكمه ميقياً على هذا الغرض في نفسه سرّاً لم يجه لأحد. قال (جاهدت لكي لا يعزلوني عن العرش طوال ثلاثين عاماً، وجهادى هذا كان من أجل هذه الفرصة، حيث الأسطول ولم أخرجه ولو للتدريب، وحسبى له كان من أجل

(١) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٩٢-٣٩٣، مطبعة محمد أفندي مصطفى بحصر، جمادى الثانية ١٣١١هـ/ ديسمبر سنة ١٩٨٣م.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٦٣-٦٤.

وكان السلطان عبد العزيز قد أعد الأسطول العثمان إعداداً هائلاً بحيث جعله الأسطول الثالث في العالم آنذاك ورفع القوات البرية إلى سبعمائة ألف جندي وجهز الجيش العثماني بأحدث الأسلحة. (تعليق الدكتور محمد حرب عبد الحميد، ص ١٣٥ من المذكرات).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

هذه الفرصة. تجاهلت الحرب اليونانية لكي لا أدع للإنجليز منفذاً للاستيلاء على كريت، وتجاهلى هذا كان من أجل هذه الفرصة^(١).

فلم يكن الرجل باحثاً عن مغنم شخصي، ولكنه كان يعمل لصالح أمته ودولته... لأن تصدع صفوف أعدائها وتمزق علاقاتها سيعيد للدولة العثمانية مكانتها في مصاف الدول العظمى، وتعود مرة أخرى لتصبح مرة أخرى صاحبة كلمة مسموعة في العالم.^(٢)

وعندما قامت حركة الانقلاب ضده من (سالونيك)، كان يوسعه أن يأمر جنود جيشه الخاص الذي يعسكر في العاصمة على أكمل وجه من الاستعداد، وكانوا جنوداً منتخبين مخلصين لمقام الخلافة ولشخصه. وبالرغم من أن بعض رجاله تصح بإيقاف جيش الحركة في الطريق، ولكنه رفض، ولم يضطرب إطلاقاً لأنه كان يعلم أنه ليس من بين أعماله شيئاً يخاف منه، وطلب بشدة ألا يخرج الجيش الموجود في استانبول من ثكناته. وقد كتب في مذكراته مسجلاً هذا الموقف بأمانة:

(لم أحب أن أريق دماء جنودى. كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بى، وكنت سأنسحب من تلقاء نفسى وأدع مكانى عندما تسكن الأمور وقداً).^(٣)

والقارىء للمذكرات الرجل يحس إخلاصه وصدقه وتقواه واهتمامه بأمر أمته،

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٦١.

(٢) نفسه، ص ٦٢.

وقال السلطان في مذكراته بين رعايا الدولة العثمانية ورعايا اليابان، فأذهلته المقارنة لأن سكان اليابان عنصر واحد بينما يتكون سكان بلاده من أكراد وأرمن وأتراك ويونان وعرب وبلغار. وكانت إحدى المصائب الكبرى أن الذين حكموا البلاد بعده أزالوا الخلاف بين الدولة المعادية وأوجدوها بين العناصر التي تؤيد الدولة بالداخل، ص ٩٧.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٩٧.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وكاد ينخلع قلبه حزناً وأسى عندما تكررت الأخطاء القائلة للكماليين بعده. ففى عبارة موجزة يضع أيدينا على أحد الأسرار التي يقول السلطان: [أسقطني اتحاديو سلاتيك عن العرش وتوصلوا إلى اتفاقية مع الإنجليز، ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار، وكان المسألة حلم.!!]^(١) ويعلق بعد ذلك على النتيجة المفجعة لأفعالهم بقوله (هاهم قد هدموا الدولة العثمانية).^(٢)

واعتقد أن الاستطرداد في إزالة الأفكار الخاطئة عن السلطان تحتاج إلى بحث مفرد آخر، ولكننا في هذا الحيز إثبات الأغاليط التي نسجت خيوطها حول السلطان المظلوم. ونكتفى بذكر بعض الحقائق التي لا لبس فيها:

١- أنه لم يأمر جيشه الخاص بالدفاع عنه محافظة على دماء جنوده وسعيًا وراء حل الأزمات في هدوء مراعاة لمصلحة الأمة. هذه الواقعة الثابتة قد حرفت مع الأسف، فصورها أحد الباحثين بصورة مخالفة تمامًا، حيث زعم أنه (جمع العلماء لاستصدار فتوى تحل له ذلك (أى الأمر لقواته بمقاومة الانقلابيين)، فما كان من المجلس - الذى يعتبر أعلى مجلس شورى في المسائل الدينية - إلا أن أصدر فتوى تحرم على المسلم أن يشهر السلاح في وجه أخيه المسلم)^(٣)!!

٢- عندما كان في منفاه، عقب خلععه عن السلطنة، تقدم الجيش منه مطالباً بإياه بممتلكاته - ولم يكن يملك إلا بعض المدخرات كيلا يقع أولاده في الفقر. قال ساعراً في بضعة كلمات تحمل دلالات كافية للرد على تهمة الاستبداد التي أطلقت عليه ظلماً (أطلقوا على ذات حين لفظ سلطنتي، وهم يستصدرون قراراً حكومياً

(١) المذكرات، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٥٧.

(٣) باول مختار، الإسلام قوة الغد العالمية، ص ٩٣.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

لكي يأخذوا ما تبقى من دريهمات، في يد سلطان سابق، ثم يسمون هذا الفكر المشروطي وهي هذه الحرية والمساواة والعدالة التي أتوا بها!!^(١)

فإذا وسعنا دائرة المقارنة بين إنجازاته وإنجازاتهم، يتضح الفرق هائلاً.. حيث كانت ديون الدولة حين توليه الحكم نحو ثلاثمائة مليون ليرة، تجمع في تخفيضها إلى ثلاثين فقط - أي العشر - بالرغم من نفقات حربين وعدة تمردات داخلية. وجاء خلفاؤه من الكماليين فرفعوا الرقم إلى أربعمائة مليون ليرة، دعنا من الهزيمة النكراء في الحرب العالمية الأولى التي دخلوها بغير هدف اللهم إلا لخدمة حلفائهم من الإنجليز!!

إن ما حققوه من نتائج يكفي في تقدير السلطان عبد الحميد لكي يظهر الدور الكبير الذي أداه في خدمة أمته. قال في مذكراته:

(كانت نفقات عباد الله ووقودهم وأدويتهم لا تفارق تفكيرى أبداً. وأنا لا أذكر هذه الأمور في معرض الدفاع عن نفسي، لأن الذين حلوا محلي دافعوا عني كثيراً بما فعلوه)، ولكنه - لفرط شعوره بفداحة الكوارث - لا يمحى في كتابته ليسجل باقى أعمالهم لأنه يتذكر في أمسى ما أصاب الدين والدولة على أيديهم فيمضى مستطرداً: (حين أنى كنت أشكرهم كثيراً على هذا، لو لم يظهر شبح النكسة التي أحلها بديني ودولتي).^(٢)

حقيقة مدحت باشا:

٣- ويبقى الحديث عن مدحت باشا (أبو الدستور) كما وصفوه وأذاعوا عنه.

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١١٢.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٤.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الثقة العثمانية

وقصة اضطهاد السلطان عبد الحميد له مشهورة مدونة في أغلب الكتب والمراجع، وخلّصتها أنه أمر بمحاكمته لاثامه في قتل عمه السلطان عبد العزيز، وعندما أصدرت المحكمة حكمها بإعدامه، عفى عنه ونقاه إلى الطائف ثم أمر بقتله هناك..

وقد نسج خصوم السلطان حول القصة خيوطاً كثيرة من نسج خيالهم، للإمعان في اتّهام الرجل بالاستبداد. ألم يضطهد المدافع عن الدستور ويأمر بقتله؟ فماذا يريدون دليلاً أقوى من هذا؟

وما أصعب مهمة الباحث عندما يتصدى لفكرة أو رواية شائعة ويتبعها للتأكد من صحتها أو استبعادها ونفيها!!

وإذا كان السلطان عبد الحميد قد دافع عن نفسه مبيّناً صحة العلاقة بينه وبين مدحت باشا، فهل نقبل كلامه كخصم؟

إن من أوليات المبادئ في البحث العلمي ألا نقبل كلام الخصم على علاته، فكيف تظهر لنا الحقيقة من خلال دفاع السلطان عبد الحميد عن نفسه؟

كل هذا صحيح لولا أننا عرضنا بعض مواقف على أحكام عقلية مجردة، ومنطق محابى، فوجدنا أيضاً أن السلطان برىء!!

وليقف القارئ معنا على ما استخلصناه من المذكرات بحملها فيما يلي:

أولاً: ارتكب مدحت باشا أخطاءً قاتلة تمس الدولة وتقوض دعائمها في الداخل والخارج ففي الداخل عين ولاية من الأقليات في الولايات الأغلبية فيها مسلمون، وقرر قبول طلبة من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش،

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ومثل هذه الأعمال تقوض الدولة من أساسها.^(١)

وفي الخارج أراد الزج بالدولة في حرب لا قبل لها بها، بينما كان يجهل قوة الجيش الذي سيزج به في المعركة ضد كل من روسيا وإنجلترا والنمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وإيطاليا!!^(٢)

واكتشف السلطان عبد الحميد أن سلوكياته تنافي مبادئ الحرية التي يظهر بها أمام الناس، إذ تدخل لدى السلطان طالباً إقالة ناظر المالية الذي عينه ومدحه، وكان الطلب يدل بلا شك أن يتناق مع القانون الأساسي الذي يتزعمه.

أضف إلى ذلك تطلعه للسلطة استثنائاً بها بمعاونة أعضاء (تركيا الفتاة) واشتراكه في تهريب السلطان مراد من القصر وهو بملابس النساء توطئه لخلع السلطان عبد الحميد وتنصيب مراد بدلاً منه.

ودعنا من ثبوت صلته بالماسونية التي كانت دأبه على إثارة الفتن وتحريكها إنجلترا.

إذن لو استمر مدحت باشا في منصبه بناءً على هذه التصرفات لاهتزت الدولة من أساسها لا سيما أن مدحت باشا كان متعاوناً مع إنجلترا. وإزاء هذا كله اضطر السلطان عبد الحميد إلى إقصائه ودون في مذكراته الكلمات التالية:

(كنت أرى أن الصدر الأعظم - أي مدحت باشا - يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم، سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به. ولم أعد

(١) المذكرات، ص ٤٤.

(٢) نفسه، ص ٤٢. قدر عدد الجيش أولاً بمائتي ألف جندي، بينما علم السلطان عبد الحميد من الغازي أحمد مختار أن لديه تحت قيادته ثلاثين ألف جندي فقط!!

السرار البقية ورام إقام البلقمة العلمانية

أحتمل، فاستندت إلى صلاحياتى فى القانون الأساسى وعزلته عن الصدارة العظمى، وأبعدته خارج الحدود^(١).

ثانياً: حقيقة صلة مدحت باشا بالإنجليز - إما مباشرة أو عن طريق عوى باشا - وكان قائداً عسكرياً- حيث علم السلطان عبد الحميد من سفيره بالإنجلترا أنه أخذ من الإنجليز أموالاً، ظهرت آثارها المؤكدة فى الهدايا التى أهدتها عوى باشا على أصدقائه المقربين عقب عودته من أوروبا.

وذهل السلطان عبد الحميد لقبول قائد عسكري لرشوة من دولة أجنبية، وأثارت فى ذهنه خاطراً آخر، حيث كان هذا القائد مشتركاً فى إقصاء عمه السلطان عبد العزيز، وتفسير ذلك واضح وضوح الشمس، فإن رجلاً من رجال الدولة (يأخذ مالا من دولة أخرى لا بد وأن يكون قد قدم لهم خدمات، يعنى هذا أيضاً أن تلجأ المرحوم عم السلطان عبد العزيز وتولية السلطان بدله، لم يكن حقاً فقط من حسين عوى باشا، ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى^(٢)).

وثبت تاريخياً أن مدحت باشا اتفق مع كل من رشدى باشا وحسين عوى باشا على عزل السلطان عبد العزيز^(٣).

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٤٤.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٣٩.. ويذكر أيضاً أنه يسعى للسلطة باسم آل مدحت بدلاً من آل عثمان، ص ٤٣.

(٣) تعليق الدكتور محمد حرب عبد الحميد، ص ١٣٦ بنفس المصدر.

وكان السلطان عبد الحميد يشكو من أعمامه، قال: (ما استبدلت وزيراً بأخر إلا ورأيت من مساوئ الخلف ما أسفت معه على السلف، ولا مناص من الصبر) أنور الجندى: العروبة والإسلام ص ٧٤.. فماذا يفعل الرجل وحده؟ وماذا تفعل طلائع أخرى مادامت القاعدة العريضة والصفوة الخاصة قد أصابها الوهن واستبدت بها عوامل الضعف والحيانة؟

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخليفة العثمانية

ثالثاً: فما تفسير ذلك ووقعه في نفس السلطان عبد الحميد؟.. إنه أمام تصرفات منحرفة لرجلين من كبار رجال الدولة فماذا يفعل؟

كان وقع حصول حسين عوي باشا على أموال من إنجلترا شديداً في نفسه، ومعه حق فسحل ذلك في مذكراته بقوله:

(لم يهزني في حياتي هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقوداً من دولة أجنبية. وهذا شيء أكثر من احتمالي).

ثم يسجل نفس التأثير للصلة بين عوي باشا ومدحت باشا، ولكن دور الثاني أكثر خطورة، فإذا كان (مدحت باشا عابراً نفس الطريق، فإن هذا يعني أن الدولة وقعت في الشرك).^(١)

وزاد وقع ذلك في نفسه أنه عندما تم عزله لم يثر الشعب ولم يبحث عنه أحد حتى من أقرب المقربين إليه!! ولكن الذي تأثر وتدخل هي إنجلترا، فقامت الدنيا فيها وقعدت!! وكان السلطان يتوقع هذا (فمن الطبيعي - وقد تعاون مدحت باشا مع إنجلترا وأيدها - أن تعاونه وتؤيده. كان الإنجليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من نشأتها أن تفرق الدولة العثمانية سريعاً، تماماً مثلما أعرف أنا).^(٢)

ويدهشنا مع هذه الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها مدحت باشا، فإن السلطان عبد الحميد كان على استعداد للصفح عنه لأن السلطان عنده يعني العفو

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٤١.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٤.

الأسرار الخفية ورام إلفام الخلفاء العثمانيون

ولا يعنى توقيع الجزاء، ولأن إصلاح الإنسان أسمى من ألف خير. هكذا فهم روح الإسلام.^(١)

ولكنه لم يستطع تجاهل اشتراك مدحت باشا في قتل عمه السلطان عبد العزيز، لما يحمله من دلالات الإحرام ضد الدولة والأسرة الحاكمة.

وعندما حوكم وأدين كان السلطان عبد الحميد أيضاً على استعداد للعفو عنه، ولكن مدحت باشا قتل نفسه بنفسه. ونعني بذلك القتل المعنوي لأنه كان قد لجأ للقنصلية الإنجليزية، فلما وجد القنصل في عطفة لجأ إلى القنصلية الفرنسية واحتسب بها.

ولنتصور وقع هذا التصرف في نفوسنا قبل وقعه في نفس السلطان عبد الحميد، لقد كان الرجل في حالة ذهول لما لهذا الحادث من دلالات، فكتب يسجل ذلك بقوله: (لا يوجد مثيل لهذا في تاريخ دولتنا بكامله. هذه الحادثة أحتت رأس العثماني أمام الصديق وأمام العدو. اغتصت نفسي وأحسست بالهانة عندما علمت بهذه الحادثة. ذلك لأن هذا التصرف الذي أقدم عليه أثقل وطفلاً من الجريمة المدعى عليه فيها. إنه تصرف لا يمكن الصفح عنه).^(٢)

ولكنه عندما تذكر للمرة الأخيرة خدماته للدولة تخفف حكم الإعدام إلى السحن!!

(١) ويعترف السلطان عبد الحميد بأن مدحت باشا كان يتمتع بسميزات كثيرة، فلم يكن محطاً على طول الخط!! ص ٤٥ من المذكرات.

(٢) المذكرات، ص ٤٦.

السرار الخفية وراء إلغاء الحلقة العلمانية

وبعد ذلك هل نصدق رواية الأمر بقتله!!!

يأبى الفكر السليم تصديق ذلك، لأنه كان بوسعه إمضاء حكم الإعدام الذى أصدرته المحكمة، فكيف به يأمر بقتله فينسب إليه القتل بعد أن كان يحكم المحكمة!!!

رواية لا يصدقها العقل، لا سيما إذا تعمقنا فى التحليل النفسى للسلطان عبد الحميد الذى منع جنوده من مقاومة الكمالين كما تقدم، والذى تعرض للاغتيال مرة أثناء ذهابه لتأدية صلاة الجمعة، فساق جياذ عربته بمفرده لا يلوى على شيء، وكانت المشكلة - لا فى حياته التى تعرضت للخطر - ولكن الموتى والجرحى.^(١)

وتكررت محاولة اغتياله حيث أطلق أحد الضباط رصاصة فى منفاة فأخطأته لم يخف من الموت ولكنه (اشمأز) من محاولة (اغتياله) فإن الموت - هكذا كتب - وصال الإنسان بلغ سن الشيخوخة، ولكن القتل كان مصدر نفورى طوال حياته. والذين مارسوا الضغط على غالباً ما اكتشفوا فى هذا الإحساس.^(٢)

ونعتقد أن هذا التحليل يصل بنا إلى استبعاد قتله لمذحت باشا تماماً، ومع هذا فإن السلطان عبد الحميد كان قد علم بالتهمة الموجهة إليه ولم يلق إليها بالاً. ولنقرأ معاً تعليقه الملىء بالتقوى والإيمان..

قال: (يريدون أن يلقوا على تبعة مسئولية موته. فليلقوا، فغداً عندما تمثل أمام رب العالمين سيكون وجهى أبيض، ووجهى ناصعة. وإذا كنت سأحاسب فى

(١) المذكرات، ص ١٠٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

هذه المسألة، فإن ربى قد يحاسبني لأنني عفوت عن صدر أعظم أمان دولته، وإلى راضي بجزاء الله في هذا السبيل.^(١)



(١) نفسه، ص ٤٧ ج. هذا، وقد أرجأنا بيان صلة مدحت الوثيقة باليهود بعد العرض الموضوعي لمواقفه الخائنة المشيئة، وربما يغنيا عن الإفاضة في الشرح والتحليل أن نعرف القارئ بأن والد مدحت كان حاضماً يهودياً! (إعادة النظر في كتابات المعصيين في ضوء الإسلام) الأستاذ أنور الجندى، ص ٤٨، دار الاعتصام ط ١٩٨٥.



النصر المحقق
من كتاب

النكير على منكري النعمة
منه الديك والخلافة والأمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٥٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْإِيمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧٢].

﴿ يُخْفِئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُخِصِّلُ اللَّهُ الطَّالِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُخِصِّلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِقَرَعٍ عَظِيمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء: ٦].

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجْوٍ عَذُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ قَدْ زَهَّمْنَا وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿٦١﴾ وَلَتَضَعِي إِلَيْنَا أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَوْهُنَّ وَلَيَعْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَغَفَرَ اللَّهُ أَتَبَعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٧].

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

﴿ أَقَمْنَ زَيْنَ لَعْنٍ سُوَّةَ عَمَلِهِمْ فَزَعَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وبعد... فمن المعلوم ما سبق للناس في تلقي حادثة الخلافة والتفريق بينها وبين السلطة من أصوات التفتيد والتأييد، وقد دام صخب الخلاف بها فيما يقرب من مدة سنة حتى حُق أن يقال تعريضاً على محدثي تلك الحادثة وموقعي تلك الجناية: يا أسفا على الخلافة قطعوا دابرها وأبدلوا بها خلافاً، وهذا الخلاف المتولد من تغيير الخلافة لأهميته يناسب أن يعد ما انقلبت إليه الخلافة عبارة عنه قائماً مقامها دون الخلافة الحاضرة التي لا أهمية لها ولو بقدر ذلك الخلافة.

وبينما حصل الحسبان في أن حروب المناظرة والمناقشة التي جرت حول هذه المسألة قد وضعت أوزارها إذ انتشر في لآونة الأخيرة كتابان متقاربان الموضوع والعنوان: أحدهما للأستاذ البارع صاحب المنار، وثانيهما ما صدر في أنقرة لكتابه الذي التزم أن يبقى اسمه مجهولاً^(١) عند قارئه وكتوباً، فلو كان الفكر السائد فيما سبق له الكتاب دون التأييد والاستشهاد لأمكننا أن نتصور وجهة معقولاً في تستر المؤثر كان يحذر على نفسه وهو في محل الحذر ممن يتعلق بع الانتقاد، وأما إذا كان

(١) من هو؟ هو من المعروف أن أشهر الكتب التي أبدت حادثة الخلافة كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، وقد أحدث ضجة وفلذلك، ولذا فمن المستبعد أن يعنيه المؤلف، لا سيما وأنه رد عليه تفصيلاً بكتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ج ٤» وربما دفع الكماليون - أتباع مصطفى كمال - بشخص آخر للدفاع عن تصرفاتهم، كما فعلوا مع عبد الغني سنن بك، سيأتي نقد الشيخ مصطفى صبري لكتابه الذي نشره في مصر. وعلى أية حال فإن إسفاء اسم المؤلف يدل على الرغبة في حجب نبض الرأي العام، دون تعرض صاحب الكتاب للغضب والسخط، وهي وسيلة معروفة تقاس بها اتجاهات الرأي العام وتبين على ضوئها السياسات.

الأسرار البهية ورام إلغاء الخلافة العلمانية

الكتاب مسوقاً لتأييد حادثة الخلافة التي أحدثت هنالك، فالتزام المؤلف إخفاء اسمه لا يتضمن شهادة حسنة لكتابه، ولا للدعوى التي نصرها فيه، وهذا أمر طبيعي يعقله أولو الألباب، فكان المؤلف يحترز حيثد من القراء أن يفتضح باسمه عندهم في غابر الأيام، ولعله لم يكن من أنذال المداهين، وله حشاشة من عزة النفس وفراشة من مادة الخياء، فهو من الذين ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿هَاسِتَرَهُؤُلَاءِ جَبَدَلْتَرَعْتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٨-١٠٩]. وهذا، مع ما تضمنه الكتاب من الباعة العلمية ومن الكلمات الحققة لولا أريد بها الباطل.

وأما كتاب المنار^(١) ففي غاية الإفادة والإجادة كما يتوقع من مؤلفه الذي هو فارس خطير في أمثال هذا الميدان، وقد وجه إلى الحكومة التركية الحاضرة انتقادات ووصايا، ودعاهم إلى الصلاح والإصلاح، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقى الإسلام، فله دوره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة، مع قطع النظر عن آرائه ومذاهبه التي تدور حول الأشخاص والأسماء وموازنة بعضهم ببعض، لكن المهم المقدم على كل شيء، وما يليق أن أقول في كتابه وألفت الأنظار إليه، أنه لم يصرح أصل الداء حتى صراحتة، وإن بالغ في تعريف الدواء، والدليل على ذلك استمداده في إحياء منصب الخلاف من الذين خربوها وسعوا في خرابها^(٢)، ونفسه معترف بتخريبهم لا بالسعي في الخراب، فأردت أن أكشف تمام الحجاب

(١) وهو الشيخ رشيد رضا، صاحب تفسير (المنار) ومجلة (المنار) وكان قد أبد مصطفى كمال أتاتورك قبل إلغاء الخلافة وأحسن الظن به في البداية، فلما ألغاهما هاجمه بشدة.

وعنوان الكتاب المشار إليه (الخلافة أو الأمانة العظمى).

(٢) يقصد بذلك مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه من الكماليين، الذين فصلوا الخلافة عن السلطنة أولاً، ثم ألغوا الخلافة نهائياً وأعلنوا أن تركيا دولة (لا دينية).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

عن ذاك الباب، ولأجل هذا عززت الكتابين بثالث، ولفقتة باعتراضات المعارضين على مقالتي التي نشرتها المقطم والأهرام قبل هذا بسنة ثم تعقبتها بأجوبته، وعقدة لسان في اللغة العربية أن كانت مانعة للقراء أن يفقهوا قولي كما شئت، فمعذرة من إليهم، حيث عنت لي ضرورة مظاهر الحق في بلد^(١) أنا والحق فيه غريبان، يعرف بعضنا بعضاً، ويتكلم بعضنا على بعض، وكان خيراً لنا أن نغاب بنقصان البيان ولا نتزن بكل منافق عليم اللسان.

ثم أن قبل الشروع في المقصود، أرى من الواجب أن أذكر بالأسف كون امر المسلمين منذ زمن بعيد بيد غيرهم، فأكثر من خمسة وتسعين في المائة منهم في حكم الأجنبي، والباقي على الأقل من خمسة في المائة، وهم من تعد أزمته بأيدهم تحت غلبة اللادينين^(٢) ممن تسمى بأسماء المسلمين، والقسم الثاني حالهم أفظع من الأول، لأن اللادينين أشد عداوة لدين الإسلام من سائر أعدائه وأدق مكيدة في تخريبه وتحريفه كما قال الشيخ رشيد رضا في كتابه الذي ذكرته: "إن المتفرنجين وهم بخالطون المخلصين ويمارجونهم بين لحومهم ودمائهم، ولم اليوم سيطرة في الأناضول مقرعين الإسلام على طول الأعصار، يسعون بكل قوتهم وحيلتهم لفتح حصن الدين من داخله، وإن كانوا أقل عدداً بالنسبة إلى المخلصين، لكنهم أقوى عدداً وأهـب مدداً، وقد ظفروا بتجريد الخلافة^(٣) عن سلطتها، وترعوا بذلك إلى تجريد

(١) كان الكتاب المصريون في أول عهدهم بحركة مصطفى كمال محدوعين فيه، يظنون به خيراً، وأنه سيجيد مجد الإسلام والمسلمين من جديد، ولكن انقلبوا ضده عندما ظهرت الحقيقة، وكانت صدمة عنيفة للمسلمين المخلصين.

(٢) يقصد باللادينين أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) والكماليين الذين قادوا حركة الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، وعندما تمكنوا من السلطة في تركيا حولوها إلى دولة (لا دينية) وأصبح نصاً في الدستور حتى الآن.

(٣) يشير إلى الإحرامات التي اتخذها مصطفى كمال أتاتورك التي سيأتي ذكرها تفصيلاً في هذا الكتاب.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

الدين من سلطته وإلغاء حكمه ونفوذه ومعه من التداخل في شئون الدنيا والسياسة التي تدور^(١) رحالها عليه.

والذي يفتت أكباد الغيرة الدينية أن الذين يريدون هدم أسس الدين هم أبصار ترى النجوم في النهار وقلوب أهدى من القطر في ترويح خطتهم وأشجع، وأكف أندى وأرجل أسرع وأدخل في غمرات المخاطر، وبينهم تساند في الاعتصام بباطلهم، أي تساند.

والمتدينون^(٢) من المسلمين أصلحهم سجين في بيت عزله وعبادته وراحته حتى تخرجه يد أبادت أخوته قلبه وهو قاصر عن إغائتهم وإعائته، فكان الغافل في سلمه والجاهل في علمه يحتل بأحاديث الفن التي عُد فيها القاعد خيراً من القائم.

وهيهات ذلك لا ينحيه من مسئوليته بين يدي الله على قنونه في واجبه وتوابعه، فإن ما ذكر في تلك الأحاديث مقصور على الآونة الأخيرة والبيئات التي يلتبس فيها الحق بالباطل ولا يميز ذوو أحدهما من ذوي الآخر، فعند ذلك يصير

(١) يفسر لنا هنا الفهم شدة خصومته للكماليين، حيث رأى في الفصل بين الدين والسياسة هدم للإسلام من أساسه لأنه سيستبعد حكم الشريعة.

(٢) يقارن الشيخ مصطفى صبري في هذه الفقرة بين عزائم اللادينين وتصميمهم على نشر أباطيلهم، بكل الخيل والوسائل، وبين المنزعين بالسلبية المؤثرين للسلامة بحجة العمل بأحاديث الفن، ورأى الشيخ واضح في هؤلاء، أنه يعيب عليهم قعودهم دون نصرته الحق ميتا خطاهم في فهم الأحاديث النبوية، حاثاً إياهم على مهاجمة اللادينين بنفس الطريقة التي اتبعوها، ثم يحضى الشيخ مصطفى في الصفحات التالية فيبدي أنه من ظاهرة السلبية التي عمت علماء الدين، لا خوفاً من الحكومات الجائرة بل خضوعاً للعامة، فقد نشطت الدعايات في رسم صورة أسطورية لمصطفى كمال أتاتورك، ولا بأس من إلباسه ثوب «البطل الإسلامي» المنقذ للأمة، وساعدت ظروف العالم الإسلامي السياسية على قبول هذه الصورة الوردية والفرح بها لظهور نمط يعبر بالمسلمين إلى النصر الجديد بعد الذلة والانكسار أمام قوة الغرب العسكرية، وهكذا حدث (جريان فكري للعامة) كما يقول الشيخ، إذ انقادوا للمعاطفة، ولو استخدموا عقولهم لصدمتهم الحقيقة المرة!!

الأسرار الخفية وراء إلقاء البلقلة العلمانية

الاعتزال من الجميع أسلم من الخطأ وأصلح، أما إذا تعارض الحق الصريح والباطل البين، بل اختصمت الديانة واللا دينية العربية أو الكاسية العارية وجرى التحارب والتصادم بينهما فالذى يضرب صفحاً عن النصرة لدين الله فلا يعذر قطعاً يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، هذا حال خواص المؤمنين أجمعين، إلا من ندر منهم من المجاهدين المنتهين لواحيهم، وفضلاً عن شايع اللا دين ووقف بجانبهم، يحارب معهم الدين وأهله ويشادهما.

وأما حال عوام المؤمنين، فحياد يلزمهم الرقاد، أو ضلال يرجع بهم الباطل على الحق والأعداء على الأولياء، أو معذرة كمعذرة الباطلين وهمة في أسفل سافلين، وقد اطلعت عندما لذت بالعالم الإسلامي في خارج تركيا لأفر بدين وحياتي من بغايا إليهم وأستعين بهم في جهادى الذى جرى منذ ست عشرة سنة ضد الذين لا يأثرون إليهم جهداً في استئصال الدين الإسلامى وأهليه في بلادنا، وربما يتخذها المسلمون المقيمون في غير بلادهم قدوة لهم في أفعالهم^(١)، وقد فاز باستئصال الدولة الإسلامية، على أحوال عجيبة كادت تؤسئ في اجتناء النصر، وتجعلن كالمستجير بعمرو، فرأيت علماء الدين وحلماء بلادهم يخافون أن يجهروا ببعض الحق لا خوفاً من سلطان جائر أو حكومة قاتلة وشائقة، بل إحكاماً منهم أمام الجريان الفكرى الذى حصل في العامة، وقد نصحن كثير منهم باخفاء ما أدين به من بغضاء الكمالين^(٢) أعداء دين الإسلام الذين يحاربون أحاكمهم ويجتدون في إبعاده عن ساحتهم، وأرادوا بنصحهم ذاك صيانتهم عن الأذى، ومادروا أن لو أسكتني مثل ذلك السبب عن الحق فلماذا وقع هذا الاغتراب من أوطاننا

(١) حدث مع الأسف ما كان يخشاه، وقد أفرد المؤلف فصلاً خاصاً أورد فيه القوانين والقرارات التى اتخذها أتاتورك عندما انفرد بالسلطة وتحكم في رقاب المسلمين بعد أن خدعهم في البداية واستخدمهم لتحقيق مآربه!

(٢) الكماليون، هم أتباع كمال مصطفى أتاتورك والداعون بدعوته، وقد ثبت فعلاً للمتابع للأحداث حينذاك أنهم أعداء الإسلام والمسلمين، فلا يحسن القارىء أنه مجرد القام بلا دليل.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العثمانية

والاضطراب في حياتنا ومعيشتنا، وكيف يجور لنا إهدار الشدائد التي مضت علينا في هذه السبيل، بما نرضاه من وضع سلاحنا في آخر الأمر والعمر لأسباب اقتحمنا ما هو أعظم منها وأكثر^(١)، وهل وظائف العلماء والعقلاء مماشاة الجهال في مذاهبهم وعقائدهم، أو إرشادهم إلى مالا يهتدون له بأنفسهم، وبما للأسف إن كان يأتي الأذى من المسلمين عندما أجاهر السعي لدفع الأذى عن الدين، إذن فالحياة ذميمة والداء عياء حيث إن الطبيب يتبع سقيمه، ولا يبلغ من الدين الإسلامي أعداؤه القديمة الظاهرة ما يبلغ منه أعداؤه السرية الجديدة وأصدقاؤه الحمقاء أو الجبناء.

ولو كنتُ مذ يانو سهرتُ لساهر لسان ولكن سهرتُ لنائم

وقد قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيت أمة تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم فقد تودع منهم).^(٢) وقال ﷺ: (ليأتين على الناس زمان يكذب فيه الصادق ويصدق فيه الكاذب ويخون فيه الأمين ويؤمن الخوون ويكون في الدنيا أسعد الناس لكع ابن لكع لا يؤمن بالله ورسوله).^(٣) أو كما قال، وهذا أوان الشروع في المقصود، فنقول وبالله التوفيق:

(١) في مثل هذه الظروف تاضل الشيخ مصطفى صوي، وكان من القلة بين علماء عصره (وأشهرهم معه الشيخ سعيد النورسي) حيث فهم حقيقة ما دار في تركيا حينذاك بينما حُدع الكثيرون بدعائيات أتاتورك بل لا تزال الخدعة تحيا في عقول الكثيرين إلى يومنا هذا، ولعلنا نسهم بإخراج هذا الكتاب في تصحيح المفاهيم بعد تقدم التراجم والأدلة على صحة آراء المؤلف وصحة توقعاته التي حذر بها العالم الإسلامي.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده والطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي في (شعب الإيمان)، قال السيوطي في (الجامع الصغير في أحاديث البشر النذير): صحيح.

(٣) الحديث: (ليأتين على الناس زمان يكذب فيه الصادق ويصدق فيه الكاذب ويخون فيه الأمين ويؤمن الخوون ويشهد المرء ولم يشهد ويحلف وإن لم يستحلف ويكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ) رواه الطبراني في الكبير عن أم سلمة، وقال السيوطي في (الجامع الصغير): حسن.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

إن^(١) ما فعله الكماليون في الخلافة عند الفطرة السليمة، وما كان يخطر ببالي أن يحتاج المسلمون إلى إثبات هذه القضية وإيضاحها كواحدة من المسائل النظرية، وإنما المحتاج إلى التنبيه والإيضاح في هذه الحادثة نقطة دقيقة يكاد المسلمون لا يهتمون إلى التفطن لها بأنفسهم، وهي أن مخالفتها للشرع لا يجوز أن تتلقى بالنظر العادي ولا تشبه بالأفعال الصادرة من المؤمنين المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ورجوا أن يتوب الله عليهم، بل هذه المخالفة أمر مقصود عندهم بذاته، لأنهم يرمون بفعالهم هذه إلى التملص عن ريقه الشرع الإسلامي.^(٢)

حكومة لا دينية:

فلذا ذكرت في المقالة التي كتبتها من قبل في المقطم والأهرام: أن ما ابتدعه الكماليون من تجريد الخلافة من السلطة^(٣) وإيقاع الفرقة بينهما أمر يرجع إلى

(١) كان الكماليون عندما شرعوا في تحرير الكتاب فرقوا بين الخلافة والسلطة، مع مراعاة الاحترام اللفظي والظاهري بمقام الخلافة وما أعلنوا الجمهورية بعد، ولم يعمموا الاستهانة بالخليفة ما بين قديمه الذي خلعه وحديثه الذي نصبوه، فلم يفهم المسلمون وقتئذ ما في فعال الكماليين من فرط الخطيئة والخديعة ولم يقدروها حق قدرها، ولهذا خصصت حل اهتمامي في هذا الكتاب بتدقيق مسألة التفريق بين الخلافة والسلطة.. وتوضيح ما تضمنه ذلك التفريق من الخروج على الإسلام (م.ص).

(٢) وهكذا كان عارفاً بنواياهم منذ البداية، ويدوا أنه كان متيقظاً تماماً لحيلهم، كاشفاً لأسرارهم، فلم يتخذ ببعثة واحدة من حيلهم، بل رأى وراء كل تصرف نوايا خبيثة ونية مبيتة هاربة الإسلام، فأصبح غريباً وسط حملة الأضاليل والدعائيات الكاذبة التي روجوها مؤدياً واجب المهادنين، ناعياً على غيره من العلماء الذين آثروا الاعتزال، بينما عرض نفسه للنفي والتشريد، عملاً بالحديث النبوي الذي ذكره أولاً.

(٣) كانت الخطوة الأولى الممهدة لإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا هي نزع السلطة عن الخلافة ثم تحويل الخليفة إلى مجرد رمز لا يملك سلطة ولا يأمر ولا ينهى ولا يحكم، بل لا حول له ولا قوة، كما سيأتي.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ارتداد الحكومة التركية وانتزاعها عن لباسها الديني، وكان ذلك القول مني ثم قيل أن صدقني فيه مندوبها في (لوزان) وصرح بلا دينية الحكومة^(١) فكان الحكومة التي ترأس الناس في دنياهم قالت للخلافة المتضمنة للرئاسة الدينية: هذا فراق بيني وبينك، لأن ما رأيت منك خيراً في الأعصار التي جمعتني فيها وإياك بردة واحدة.

وما قلت ما فسرته به صنيع الكمالين هذا عن حدة الغضب، ولا إفراط في الحكم، كما ظنه من زين له سوء أعمالهم، وقد كلف نفسه ابتغاء تأويله على صفحات الجرائد في مقابلة ما فسرته به يومئذ، وكانوا لما يصرحوا بعد بما قصدوه من فعالهم، لأن مصطفى كمال ما اخترع هذا التفريق لإصلاح الإدارة التركية، وما خطر ببال أحد قط أن صلاحها متوقف عليه، بل وقع ذلك في نظر العالم الإسلامي قلته، ولا شبهة في أنهم تلقوه أولاً بالعجب وإن تعجبهم بعده من تعجبهم منهم تصويبه وتأويله تعصباً لمصطفى كمال ويعيمه ويصمه فيه، ومما يوجب العجب أيضاً أن الكمالين بعد تبعيد السلطان وحيد الدين^(٢) وتوغلهم في تشجيعه بابعوا عبد الحميد في أمر الخلافة^(٣) المجردة عن السلطة بكمال الارتياح والاحترام، ثم ما انقضت سنة

(١) صرح بذلك مندوبهم رضائور بك، وسيجيء له مزيد من الإيضاح. (م. ص).

(٢) في أثناء اجتماع الجمعية الوطنية، عندما رأى مصطفى كمال أن أتاتورك الاتجاه لمعارضة قراره بخلع الخليفة (وحيد الدين)، اقترح أن يفصل بين السلطة والخلافة فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين، ذلك لأنه لم يجز في بداية الأمر على مهاجمة الخلافة لأن من شأنه أن يحس الشعور الديني للشعب بجمعه، وكان وحيد الدين هو آخر سلاطين آل عثمان.

(أرمسترونج، مصطفى كمال الذئب الأخير، ص ١٩٢).

(٣) بعد نفى السلطان وحيد الدين، تودى بآمنه (عبد الحميد) خليفة للمسلمين، خليفة فقط لا سلطاناً، خليفة مجرداً من كل سلطان ونفوذ السابق ص ١٩٥.

وربما يقصد بانتهاك حرمة ما قرره مصطفى كمال من أمره إلى حاكم استانبول بوجوب إلغاء مظاهر الأبهة التي تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية الصلاة، كما خفض مرتبه إلى الحد الأدنى وأُنذر أتباعه بوجوب التخلي عنه حيث لا ينبغي ألا يبقى في (القسطنطينية) رئيس ديني يتحدى حكومة (أنقرة)، وفي الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤ م تقدم أتاتورك إلى الجمعية يقضي بإلغاء الخلافة وطرده الخليفة وفصل الدين عن الدولة.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

حتى انتهكوا حرمة وبدلوا بها الاحتقار والاستهانة، وكان هذا التبدل بلا سبب حدث من عبد المجيد، وكل ما ذكرنا وعددنا معلوم لعامة المسلمين جرى تجاه أعينهم، ولكنهم ما فكروا في علل هذه الأمور الغربية التي يناقض بعضها بعضاً، وكلها معلوم بمقتضى العقل والشرع، وإن انقسموا تلقائياً إلى منكر مجهل ومعبذ متأول، وليس مرمى الكماليين فيما فعلوه سوى غرضين، أحدهما نشل السلطة من آل عثمان ونقلها إلى مصطفي كمال، والتفريق بين الخلافة والسلطة ثم نقل السلطة، أولاً إلى المجلس الوطني الذي كان عبارة عن التستر والإهمام في المغزى والمرام.

والغرض الثاني إلغاء الخلافة وإبطالها على التدرج، روما لإخراج حكومتهم من أن تكون حكومة إسلامية، إذ لا بد لكل فعل صدر من فرد عاقل أو هيئة عاقلة من حكمة ومصلحة تترتب عليه، دينية أو دنيوية، ولن يستطيع ناصر الكماليين ومتأول فعاشهم أن يذكر لهذا الصنيع - أي التفريق بين الخلافة والسلطة - شيئاً من الحكمتين والمصلحتين، اللهم إلا أن يتكلم في عقولهم، أو يكون ما ذكره حكمة ومصلحة لا دينية، وبين المصلحة الدنيوية والمصلحة اللادينية بون شاسع، ففي المصلحة الأولى مجرد قطع النظر عن الدين، وفي الثانية جعل اللادينية نصب العين.

وهذه المصلحة اللادينية التي لا محل لحادثة الفصل بين الخلافة والسلطة سواها، تحتاج إلى شيء من التبيين، وهو أن الاتحاديين الذين لا يجوز عد الكماليين غيرهم عند من عرفهما وعرف اتفاقهما في حب رجال وبغض آخرين من أبناء الوطن، مازال يتعذر عليهم التأليف بين الدستور الذي أعلن قبل هذا وبين الشرع الإسلامي ولا يطمئنون إلى أن يكون الأوروبيون؛ أنه كيف يمكن التوفيق بين الحرية وبين الدين المقيد، وقيوده مستثقلة عندهم من جهة عدم موافقته للحكومة الزمنية الأوربانية، ومن جهة معارضته لأهوائهم ومظالمهم في داخل المملكة.

فالدين يشق عليهم ويثقل أعناقهم دائماً، لأنهم في تاراتهم وتطوراتهم إذا خضعوا لحكم الحرية وحاولوا أن يسروا بسيرها، فالذين لا يحيلهم، لأن الحرية

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

والخضارة عندهم عبارة عما يرى في أوروبا بمحاسنها ومساوئها حذو النعل بالنعل، وإذا حلوا إلى طباعهم الطاغية، فالذين بكل قوته يمنعهم عن طغيانهم وعدوانهم، فهو مانع يمنعهم في حريتهم واستبدادهم، وهذا موقف الدين منذ عدة كثيرة من سنين في عاصمة تركيا، غريباً في وطنه بين أبنائهم الذين تربوا بلبان المعارف الأوروبية، ولا سيما بعد تشكيلهم في شكلهم في شكل سياسي يرمى إلى هدف معين ظاهرهم الاتحاديون وباطنهم البتاؤون الأحرار^(١) ومع ذلك فهم على طول حياتهم السياسية ما كانوا ليتجرأوا على أن يجاهرُوا بمناوأة الدين، فاجتروا ببعض الحملات المختلصة في أيام المهرج والمرج، ومن تلك الحملات التي تجدر بأنه تخصصها بالذكر ما وقع في الحرب العالمية من نقل رابطة المحاكم الشرعية عن المشيخة الإسلامية إلى الوزارة العدلية، فكانت تلك الواقعة صولة سرية على الدين، لا يتعقل لها سائق غير هذا،

(١) البتاؤون الأحرار هم الماسونية، جمعية سرية يهودية يقال بأن تاريخها يرجع إلى أيام اليهود الأولى، وقد أنشئت لخدمة أهداف اليهود وتسهيل عملية استيلائهم على عقول القادة والرؤساء، وتخطيط نفوسهم وتحويلهم إلى عبيد يؤمنون بالماسونية ويكفرون بالله سبحانه وتعالى والقيم، ويتكبرون لأنفسهم ويضعون أنفسهم وتحويلهم إلى عبيد يؤمنون بالماسونية العليا - وكلهم من اليهود - لتستغلهم كمعاول هدم في كيان الشعوب والأوطان والحكومات غير اليهودية. وقد احتفل في فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساسي لأكبر محفل ماسون في العالم، وتحدث في هذه المناسبة الخادم الإسرائيلي فقال (أيها الأخوة الماسون من كل بلاد العالم: تحتفل اليوم بوضع الحجر الأساسي لأكبر محفل ماسون في العالم، وسيضيء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها، إننا جميعاً نعمل من أجل هدف واحد، هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض، وما عدا ذلك هي أديان باطلة، أديان أوجدت الفاقة بين أهل البلد الواحد وبين أي شعب وآخر.. ونتيجة لجهودكم سيأتي يوم يتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي، ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقاداتهم الباطلة المتعفة ويصل جميع البشر إلى نور الحق والحقيقة).

كذلك نشرت الصحف بعد حرب عام ١٩٦٧م خبراً يفيد أن المحفل الماسوني البريطاني تقدم بطلب إلى بلدية القدس بطلب فيه شراء المسجد الأقصى لإقامة هيكل سليمان مكانه. (ص ١٤/١٣ من كتاب (حكومة العالم الخفية)، شيريت سبيريدوقيتش، ترجمة: مأمون سعيد).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مع أن الأمة تلقتها بالاستياء والأسف، ولو ساعدتها نتيجة تلك الحرب بقهرهم وغلبتهم الأعداء لعقبها مجاهرهم الدين أيضاً، لكن لما هزموا فيها وأضاعوا أكثر البلاد تغيبوا حيناً في عيشهم مخذولين ومسؤولين، حتى إذا حصل لهم فتح أزمير (وما هي إلا بعشر من معشار ما منحوه للأعداء) كان ذلك حسبيهم فرصة عجيبة للقيام، والبراءة من جميع الأثام، ومن منيع هذا الشرف الذي لا ينفذ ول يذلوا منه يوم القيامة استمدوا واكتسبوا قدرة وجرأة على الانتزاع من الدين الذي ظالموا كانوا يعدونه عبثاً ثقيلاً على كواهلهم، ففتح أزمير لهم اتخذوه حنة على ما تقدم وما تأخر، فكأنهم قيل فيهم: قليقلوا ما أرادوا فإنهم أهل بدر.

فتح أزمير ذريعة لهدم الإسلام والشريعة:

فكان حقاً لهم بثوبة هذا الفتح، أن أخرجوا الخلافة عن الحكومة وأخرجوا عن الدين، ولم ينكره عليهم أهل الإسلام. وازدوا على ذلك أن حاولوا إلغاء المحاكم الشرعية - وإن وقع منهم إحجام ما في ذلك فيستعملونه إن أمهلهم الله ولقد كفى في الدلالة على حيث نيتهم مجرد محاولتهم - وهي المحاكم التي كان الاتحاديون اكتفوا بزع رابتطها من المشيخة الإسلامية ونقلها إلى الوارة العدلية ولم يتحاسروا على إلغائها بالكلية، فتحاسر عليه إخوانهم الكماليون^(١) لنهم فاتهم الأزمير، وكأنهم

(١) يشر هنا إلى كل من (الاتحاديين) و(الكماليين) والاتحاديون هم أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي)، والكماليون هم أتباع مصطفى كمال أتاتورك، ثم اجتمع الفريقان على أمر واحد مستندين إلى قوة الجيش، وقد اتبعت جمعية (الاتحاد والترقي) منذ عام ١٩٠٩ م فرض سياسة (التريك) ولو بالقوة العاقمة، وأخذت تتحدى الكرامة العربية في أعز ما لديها من دين ولغة، فهيات هذه السياسة الترية الصالحة لبتور الحركة الانفصالية كي تنمو وترعرع، وهذا ما يعرف بـ (الاتحاد الطوران).

لذلك ينبغي التمييز بين فترة حكم (العثمانيين) وبين فترة حكم هؤلاء (الاتحاديين) حيث كانوا أعداء للشعبين التركي والعربي معاً، كما سيوضح ذلك الشيخ مصطفى صبري في كتابه -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مأذنون من طرف المسلمين عامة بمثوبة ذاك الفتح، أن يهدموا قواعد الدين التي كانت هذه الدولة الإسلامية موضوعة ومبنية عليها حتى تتسلخ عن كونها دولة إسلامية، وضمايرهم مطوية من قديم على المروق عن الدين، فوجدوا فرصة الجراءة عليه بين أعين المسلمين وظهرانيهم من خلال التصفيات والتهاني التي نالوها منهم بذلك الفتح، فإن لم يكن القصد هو المروق بحكومتهم عن الدين فاسألوهم ماذا قصده من تخلية الخلافة عن السلطة والتفريق بينهما عقب ما حصل لهم بظر الظفر بفتح أزمير وأى حاجة ساقتهم إليه؟ واحتمال كون السبب الذي أُلجأهم إلى ذلك التفريق استراقة السلطة من آل عثمان إلى آل مصطفى كمال^(١) وعدم اجترائهم

- وكانت الحقيقة البارزة في تكوين هذه الجمعية أنها (غير تركية) و(غير إسلامية) فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف، فأثور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي مرتد، وكان «حاويد» من الطائفة اليهودية المعروفة (دوغة) و(كراسو) من اليهود الآسيان القاطنين في مدينة سالونيك... وكان طلعت باشا من أصل غجري اعتنق الإسلام ديناً، وأما أحمد رضا أحد زعمائه في تلك الفترة فكان نسله شركسياً، والنصف الآخر بحرياً، إلى جانب كونه من اتباع مدرسة (كونت) الفلسفية.

(ينظر كتاب د. يوسف القرضاوي: الخلل المستوردة، ص ١٥٢) نقلاً من: (ستون وتسون).
(١) وقد ظهر الآن، لكل باحث محقق منصف، أن مصطفى كمال قام بتمثيلية مبركة الأطراف لذر الرماد في العيون، حتى تمكن من الانفراد بالسلطة أخيراً، فكشّر عن أياه كما يذكر مؤلف كتاب (الذئب الأعور)، ومن ثم أصبح التقييم النهائي لانتصاراته العسكرية في الخارج، وإجراءاته في الداخل، أنها لم تكن في حقيقتها سوى ثمرة وتكره النهائي للإسلام والأمة، وحمل لواء الطورانية ومحاولة جعل تركيا جنساً أوروبياً حدث، كل هذا وسط موجة من التزييف الكامل للحقائق واضطهاد كل معارض على طريقة (هولاكو) و(جنكيز خان) و(هنر) - وكل حيازة التاريخ. وانقضت (أهنة الكمالية) ولتزع الستار عن بداية المآسي الإسلامية، حيث ظلت تتكرر بالتقليد والمحاكاة، بصورة أو بأخرى في بلاد العالم الإسلامي، وأخذت الأمة على يد بعض المنتمين لها تقضى على نفسها بالتجارب الفاشلة تلو التجارب، ولكن جاء الشيخ مصطفى صبري بكتابة هذا ليغتنا إلى أنه من المستحيل قلب حقائق الفطرة الإنسانية، أو تغيير حقائق التاريخ، أو تزييف الالهييات المقررة (وقد يتصر هذا الزيف الفكري لحقية قد تطول وقد تقصر، ولكن النهاية =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

على استراحة السلطة والخلافة معاً ليس بشيء، لأن اغتصابها معاً كان أهون من التفريق بينهما، لأن فيه استهانة بآل عثمان فقط، وفي تجريد الخلافة عن السلطة استهانة بالدين بواسطة الاستهانة بالخلافة وإلغائها عن العمل، كما سنوضحه، واستهانة بآل عثمان أيضاً، مع أنه قد تبين أنهم لا يهتمون بالاستهانة بهم بما لا مزيد عليه، وقد احتاجوا إليها في نزع السلطة عنهم، ومن استهين به للسلطة كيف لا يستهان به للخلافة، وهل هذا إلا استهانة بالخلافة؟

وقول من عارضني بمقالته في جريدة (اللواء المصري) نصرة للكماليين: "إن في هذا المنطق تضليلاً للعقول والأفهام، أي علاقة بين فصل إحدى السلطتين عن الأخرى وبين الانصراف عن الدين الإسلامي، وهل إذا أخذت الأمة سلطة الحكم في يدها حرصاً على مصلحة البلاد وقطعاً لدابر النكاي والدسائس التي طالما كان مقام الخلافة محوطاً بها واستتصلاً لشأفة شيخ الإسلام السابق وزمرته حتى لا يستعملوا نفوذهم الدين على الخليفة لتحقيق مآرب وأغراض لا تتفق مع الإسلام في شيء ولا هي في مصلحة البلاد".

من لغو الكلام، بحر بمنطقي الذي هو صخرة الوادي إذا ما زوحت ولا يحركه عن موقعه في نفوس أولى الألباب، لأن أبحث في تجريد الخلافة من السلطة وأوجه إنكاراً على هذا التجريد والتفريق، فإن كان مقام الخلافة محوطاً بدسائس شيخ الإسلام^(١) السابق، فالواجب في قطع تلك الدسائس تبديل شخص هذا الشيخ

- المحتومة هي أن نزع الثروات، ونخلد الحقائق الأصلية التي لا تتأثر بسيف رجل قوي، أو مزاعم مفكر منحرف، أو الفتات فلسفة عرجاء.

(من كتاب د. نجيب الكيلاني: الطريق إلى اتحاد إسلامي. مكتب النور، طرابلس، ليبيا، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م).

(١) يعني نفسه، ويعبر هذا الرأي عن أقوى الجميع في الطاعنين في شخص كل من الخليفة وشيخ الإسلام مصطفى صري، فو أحصلت النوايا لتمام مصطفى كمال بالتخلص منهما وحدهما دون -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وحده أو تبديل الخليفة، وهذه غاية لا يتخطى إلى ورائها بتبديل قاعدة الخلافة التي أسست في الشرع مقترنة بالحكومة والسلطة، ولو كان ذلك التبديل حرصاً على مصلحة البلاد، وهل غفل الشرع عندما أسس بنيان الخلافة على الحكومة والسلطة عم مصالح بلاد المسلمين، ثم انتبه الكماليون لما غفل عنه الشرع، إن هذا هو الضلال المبين، وكائن بهذا الضلال أصل كل خلاف وقع بيننا وبين الاتحاديين والكماليين، ثم إنه هل كانت الإحاطة بالدسائس مقصورة على مقام الخلافة مع كون مقام السلطة مأمون الثقة في ذلك حتى التزم إلغاء الخلافة لاستئصال تلك الدسائس دون السلطة.

فصل الخلافة عن السلطة:

ولقد أتى المعارض بالعجب من فضول الكلام، حيث بحث عن السلطتين، والحال في كلامنا في جعل الخلافة في طرف والسلطة في طرف آخر، فكأن إحدى السلطتين في الخليفة والأخرى في المجلس الوطني، مع أن السلطة واحدة، وهي في

- المساس بالخلافة، ولكن أعماله تقض أغراضه إذ استهدف نظام الخلافة كله كإطار لوحدة المسلمين وتوحيد لتاريخ أمتهم، وما غيرها برسالة نيطت بها معدها- أي حمل خلافة النبوة، ولم يشكك في أهمية هذا النظام للمسلمين ندعوه بقرأ معنا إحدى وثائق (لورنس) السرية حيث يقرر فيها ما يلي (مهما تمحضت عنه هذه الحرب - العالمية الأولى - فيجب أن تكون نتيجتها القضاء نهائياً وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي).

وإذ سألنا: لم؟ فستجد الإجابة في تقرير مستعجلين إنجليزين يقولان فيه بالحرف الواحد (من حق بريطانيا أن تنظر بعين الاهتمام إلى سقوط الامبراطورية العثمانية الذي كان يعني دعوة خطيرة بالنسبة إليها- أي بريطانيا- خصوصاً وأن هذه الامبراطورية كانت عبارة عن وحدة دينية متماسكة يحكمها السلطان كخليفة للمسلمين، وزعيم لمسلمي العالم). وهذا هو هدف الغرب كله الذي احتفل يوم إعلان إلغاء الخلافة!! (ينظر "لورنس العرب" لزهدي الفاتح، ص ٧١-٧٢).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الجلس وليس في الخليفة شيء منها، ألا يرى أن الحكومة الكمالية تقضى بأشد الجزاء على من توهمت أنه يسعى لإحياء سلطة الخليفة عبد المجيد، مثل لطفى فكرى بك المحكوم عليه في محكمة الاستقلال بحبس خمس سنين، ولكن المعارض توهم للخليفة سلطة لم يقرأ له سادته الكمالية، وبني كلامه على مقدمة لا نسلها نحن ولا الذين أراد أن ينصرهم والدفاع عن فعالهم، ولو كان هذا الرجل في تركيا لعاقبته حكومة الكماليين بما عُوقب به لطفى فكرى بك رغباً على كونه من أنصارهم.

إذا المرء لم يمدحه حسن فعالة فما دحه يهذى وإن كان مفصحا

ثم إن هذا المعارض زاد في عجايبه بما يرد كذبه وسخافته على وجهه حتى صفحات الجريدة التي كتب عليها مقالته فقال: "لو أن أولئك الناس اسلوا من ديارنا ساكتين هادئين كما اسلوا إليها لما تعرضنا لهم بكلمة ولنفع فيهم ضعفهم ولأولنا سكوتهم بما في قلوبهم من حسرة وندم على ما فرط منهم من حقوق مواطنيهم وعلى ما فعلت أيديهم اللاتمة بمجد بلادهم، ولكنهم لم يفعلوا، ولم يكن ما قبلوا به من مظاهر الاستياء^(١) كافياً لحلمهم على التزام الصمت والسكينة، بل أبو أن يغادروا مصر قبل أن يتركوا من آثارهم السيفة وقيل أن يلقوا بدسيستهم بين

(١) وانظر أيها القارئ النصف، مناقضة صاحب المقالة نفسه في قوله: (لو أن أولئك الناس اسلوا من ديارنا ساكتين لما تعرضنا لهم بكلمة) وقوله: (و لم يكنهم ما قبلوا به من مظاهر الاستياء)، فكيف في نفسه في تكذيب كلامه ورد ملامه، فضلا عن سائر المكذبات، وقد امتد اعتدائهم علينا إلى تلك الصبيحة التي فارقنا فيها مصر، وما قابلناهم بعد بكلمة، ولنورد مثالا من تلك الاعتدات التي ما غادرتنا وقد غادرتنا بلادهم، ولينظر النصف العزيز النفس الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه: (المهاجرون الترك، في طريقهم إلى مكة) ميناء القمح - لمكاتب الأهرام - مر بقطار الساعة السادسة مساء اليوم شيخ الإسلام السابق وحاشيته قاصدين مكة كما ذكره الأهرام، فاستقبلهم الكثيرون، وقد علت أصوات الجميع بالسقوط والتصفيق والصفر، إلى أن قام القطار (الأهرام، السبت ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢)، وفي ذلك اليوم كنت لم أقل بعد مقالي التي كررت البحث عنها منتشرة في المقطم والأهرام، وكانت تلك المقالة أولى حملاتي على المصريين. (م.ص)

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

أبنائهم، وعلى أن الجين كما ولا زال ملازماً لهم منعهم أن يواجهوا الناس أو يخاطبهم وهم مقيمون بين ظهرانيهم، بل أطلقوا أسهمهم وهم على الباحة بعيدون عن سخط الناس وتقدهم..".

سبحان الله.. ألم تكن هذه الشكوى جديرة بأن تصدر منا، وقد لجأنا إلى قطر مصر، لم نفع مدة مكثنا فيها بكلمة، مع أن نقرأ من الصحافيين لم يارحوا أبواب منزلنا ولا يمر طرقتنا، ونحن في شغل أنفسنا من متاعب السفر وشدائد الحال، حرصاً على أن يستنطقونا ، وقد أمطروا علينا كل يوم من صحفهم شتمات وشتمات تظهر عن سوء خلعتهم وجبلتهم، حتى أجبن أولئك الظالمين صبيحة مقارقتنا مصر، فإن قارقناها بجثماننا قلم نفارقها ببرهاننا، وفيه كفاية الطالب الحق أن يناظر بحجته لا بشتمته وشتمته، ولا يلومنا أحد من اهليهم موظفين لهذا الشأن ونحن غرباء، وهل حين الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً؟

وما ساع لنا إدامة السكوت من أول الأمر إلى آخره كأننا مجرمون، وكيف نسكت وقد سلكتنا من قدم هذه المسالك الخفوفة بالمهالك، مخافة أن ندخل في عداد الساكتين عن الحق، وكنا لم نلبث أن والينا مقالتنا الأولى بأخريات مدة أشهر مرت علينا بمكة لولا إشارة تقلقيناها من صاحب الجلالة الهاشمية تسوقنا إلى الكف عن المناقشة، ولكن أرى من أهم الواجبات وأقدمها في هذا الزمان كشف القناع عن بطانة الاتحاديين والكماليين^(١) وتنبية المسلمين على خطر يصيبهم منهم، ولا

(١) هم أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) كما تقدم، ويجمع الباحثون على أن هذه الجماعة كانت تسيرها اليهودية والماسونية واتخذت منها معول هدم الخلافة العثمانية.

(الصوف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١٣٠).

وأعضاء هذه الجمعية من طائفة (الدوغة) وأصلهم من اليهود الذين هاجروا من أسبانيا والبرتغال على إثر خروج المسلمين من الأندلس، فأخذ بعضهم منذ عام ١٦٨٣ م يزعمون الإسلام وكشف بعض الأتراك عظمهم فأطلق عليهم كلمة (دوغة) وهي تعني (المرتد أو الملحذ أو الزنديق) ويعيش الدوغيون بوجهين، إذ يصلون ويصومون ويحجون كالمسلمين، ولكنهم في الخفاء يقرأون التلمود=

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

يخص ضرورة الأتراك، وأدى المضار إعادتهم وتشجيعهم على ترويح مبدئهم اللاديني في بلادنا من حيث لا يشعرون وعدم شعورهم هذا لقد بلغ مبلغاً لا تقبل معذرتهم فيه، ولا سيما بعدما أبلغتهم نصحي وتحذيري فيهم، وكنت صرفتُ شطراً من عمري في إنذار المسلمين الأتراك فظنوا أن البلية لا تعمهم، ولم يبادروا بموضاً من هجوعهم حتى ساء صباح المنذرين، وها أنا اليوم أخيف عامة الإسلام من شرهم وشرر أضلالهم، وبعد المسافة لا يكون نافعاً على درك المملة، بل مانعاً لإدراك المهمة، ومن جوامع الكلم ومنابع الحكم قوله ﷺ: (لن يهلك قوم حتى

- والمعهد القديم ويرتلونه بالعبرية ويتسمون باسمين: اسم ظاهر يعرفون به للعامة واسم خفي يعرفون به في أوكارهم، ومنهم مصطفى كمال أتاتورك، وقَرَّ صوه، وخالده أديب. (عبد الفتاح عبد الحميد: يا مسلمي العالم اتحدوا، ص ٨٦-٨٧، دار الأنصار بالقاهرة).
أما عن اعتناق اليهود لدين آخر تظاهراً فإنه معروف عنهم ومصرح لهم به في سبيل غايات كبرى، وقد فعلوا ذلك في العالم المسيحي وفعل يهود الدوغة ذلك في العالم الإسلامي.
وتقدم للقارئ هنا إحدى الوثائق المثبتة لهذه الخدعة، فقد نشرت مجلة البحوث اليهودية الفرنسية رسالة في ١٣/١/١٤٨٩م، حيث كتب (شكور) حاحام مدينة أرل من مقاطعة بروفانس، إلى المجمع اليهودي القائم في الآستانة، يستشير في بعض الحالات الخرجة، ومما جاء في الكتاب (أن الفرنسيين في أكس وارل ومرسيليا يهددون معابدنا فمأذا نفعل؟).

فجاءه الجواب التالي:

- أيها الأخوة الأعزاء، بأسى تلقينا كتابكم، وفيه تطلعونا على ما تقاسونه من الهجوم والبلاب، فكان وقع هذا الخبر شديد الوطأة علينا، وإليك رأي المراتبة والاحتامات:
- بمقتضى قولكم: إن ممالك فرنسا يهركم على أن تعتنقوا الدين المسيحي، اعتنقوه لأنه لا يسعكم أن تقاوموا، غير أنه يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى راسخة في قلوبكم.
- بمقتضى قولكم: إنهم يعتدون على حياتكم، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم.
- بمقتضى قولكم: إنهم يهدمون معابدكم، فاجعلوا أولادكم كهنة وإكثريين ليهدموا كنائسهم.. الخ.. سيروا بموجب أمرنا هذا فقتلوا بالاختيار، إنكم بهذا الذل وهذه الضعة التي أنتم فيما ستصلون إلى ذروة القوة والسلطة الحقيقية.
- توقيع: أمير يهود القسطنطينية. (من كتاب حكومة العالم الخفية ص ٢٧).

الأسرار الخفية وراء إقام الخلافة العلمانية

يُعدّروا من أنفسهم^(١).

وقال من عارضني في المقطم^(٢) بعدد "١٠٢٦٦": (عجبا يا سماعة الشيخ على حكومة الكماليين، لم تبعاً بالخلافة ولن تضمن تنفيذ الشريعة الإسلامية حتى جردت منها شخصاً موهوماً حكمت عليه بالردة، مع أنهم الذين نصبوا أنفسهم الدفاع عن الإسلام، وهل معنى الخلافة أنه لا ينفذ الأحكام إلا الخليفة وحكومته وإن كانت حكومته وراثية وحكومة لم تنزل على إرادة المسلمين فيستبد معهم بأمور الناس على رغمهم والله تعالى يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ، ويقول: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ﴾ . اللهم إن الكماليين قد اتبعوا الصراط المستقيم والدين القويم فلم يتركوك مع مولاك المخلوع تسترشدون وتأتمرون بإشارات الأجنبي وتحتون ظهور المسلمين لصعاليك اليونان، وإن الكماليين رجعوا إلى قواعد الشرع الحنيف فجعلوا اختيار أمير المؤمنين بآراء المسلمين لا بالورثة، ولم يجعلوا الخليفة يتبع هواه فيوحي بإحلال ما حرم الله ونحريم ما أحل...".

قوله أولاً: "إن حكومة الكماليين لم تبعاً بالخلافة"، أقول نعم وقد حكمتُ عليهم بذلك قبل ما جهروا بأقوال الاستهانة بالخلافة والخلفاء، ولو كتب الرجل

(١) الحديث: (من يهلك قوم حتى يعدّروا من أنفسهم) ، رواه الإمام أحمد وأبو داود. قال السيوطي في (الجامع الصغير): حسن.

(٢) كانت صحيفتنا الاستعمارية (المقطم) والمقتطف (هجومان الدولة العثمانية وتشجيع الثوار والمطالبيين بالإصلاح في تركيا على نشر المقالات العنيفة في مهاجمتها والتشهير بها، وقد أيد (كرومر) أعضاء حزب (تركيا الفتاة) من الاتحاديين الذين لجأوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفاً هاجم السلطان عبد الحميد.

الصلة واضحة بين كل المعادين للخلافة العثمانية، حيث تربطهم المصالح المشتركة والعمالة للأجنبي، فضلاً عن العداء للإسلام والمسلمين.

(د. محمد حسين: الانتفاضات الوطنية في الأدب المعاصر، ج١، ص ٩٢/٩١).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مقالته هذا اليوم لما جازف بمثل هذا الكلام، وكفى حكمتُ عليهم بما صدقني فيه الزمان استدلالاً بالهم لو عنوا بالخلافة لما انتزعوا السلطة عنها ونقلوها إلى المجلس الوطني ثم تركوها مجردة من العمل، أعني السلطة والحكومة في شخص يسمونه خليفة لا سلطاناً ولا ملكاً، وليس لهذا الشخص حظ في حكومتهم، لا ينصب أحداً ولا يعزله، ولا يوقع قانوناً ولا يرفضه، ولا يولي قاضياً ولا ينفذ قضاءه ولا يأمر بشيء ولا ينهى عنه، ولو فعل لكان لغواً ومن فضول الأفعال، إذ لا حكم له على أحد.

هكذا نسقوا إدارة الدولة وأخرجوا الدين عن الحكومة والحكومة عن الدين، ولهذا فرقوا بين الخلافة والحكومة، وكانتا من قبل متحدتين، وكانت الخلافة عبارة عن الحكومة الدينية النائية مناب حكومة الرسول ﷺ في أمته^(١)، وإذا كانت الحكومة هي القوة العاملة والخلافة عبارة اتصاف تلك الحكومة بصفة دينية، فلا حرم صار إخراج الحكومة عن الخلافة إخراج الحكومة عن الدين، إذ لم يبق في الخلافة بعد إخراج الحكومة عنها غير صفتها الدينية، فإن انتقلت الحكومة إلى ما انتقلت إليه بصفتها الدينية لزم أن لا يبقى في الخليفة شيء لا حكمته ولا دينه وإن انتقلت الحكومة فقط افتقرت عن الدين^(٢).

هذا ما أدى إليه نتيجة العقل والمنطق عند حل حادثة الفصل بين الحكومة والخلافة، وإن لم يقع من الكمالين شيء مما ذكرنا كما زعمه صاحب المقالة، فحديث تجريد الخلافة عن السلطة الذي ملأ أسماع الأنام إذن من أضغاث أحلام تلاعب بها شيطان الحكومة الكمالية في عقول أولى الألباب.

(١) استخدم الشيخ هذا التعريف جرياً على عادة العلماء المسلمين من الفقهاء والشكلمين.

(٢) يقصد بذلك إقصاء الإسلام عن الحكم، بينما يرى علماء أصول الفقه أن الحكم هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين وأن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى، ومعرفة أحكامه رسله بما يبلغونه الناس عنه، وينتج عن ذلك أنه لا حكم إلا لله وهذه قضية اتفق عليها المسلمون قاطبة.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وقوله: "ألم تتضمن الحكومة الكمالية تنفيذ الشريعة الإسلامية".^(١) أقول نعم، لأنهم نقلوا الحكومة النافذة إلى مجلسهم الذي سموه مجلساً وطنياً واختاروها لأنفسهم وتركوا الشريعة الإسلامية مع الخلافة في الخليفة مجردة عن النفوذ الذي ذهب مع الحكومة إلى ما ذهبت غليه، لأن النفوذ يدور مع الحكومة والسلطة، فإن لم يتركوا الشريعة في الخلافة ونقلوها أيضاً من الحكومة كيلا تحرم نفوذها لزم ما قلنا آنفاً من تفرع الخليفة من الدنيا والدين معاً، أما الخلافة فالأخما في اللغة عبارة عن النيابة، وفي العرف بمعنى النيابة عن حكومة رسول ﷺ في أمته، فإذا جردت الحكومة، أي عما تكون النيابة فيه، تذهب الخلافة والنيابة في الفضاء ولا يبقى معنى لهما، مثل بقاء الصفة بلا موصوف والعرض بلا محل يقوم به، أو مثل تجرد النوع عن جنسه الذي تتكون ماهيته به لأن الخلافة نوع من أنواع الحكومة، كما أن المشروطية والمطلقية من أنواعها، فكما لا تتصور المشروطية أو المطلقية بمجردتين عن الحكومة، فكذلك لا تتصور الخلافة بعد تجردها عنها، وأما فساد الحكومة فالأخما عند كونها مقترنة بالخلافة كانت حكومة مقيدة بالديانة الإسلامية، إذ لا معنى لكون الحكومة حائزة للخلافة إلا كونها نائبة عن حكومة الرسول ﷺ ومقيدة بأحكام الديانة الإسلامية،

(١) كان هذا الإعلان كخطوة مبدئية عشية مصادمة الرأي العام الإسلامي، وبمعرفة الكماليين لسلطة الإسلام في النفوس، اضطروا للتمهيد لمشروعهم بفصل الدين عن الدولة، فأعلنوا التزامهم بالشريعة أولاً حين تنهياً الظروف للضربة الأخيرة، وقد فعلوها في النهاية. يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (ظلام من الغرب): إن الجيش التركي الذي طوح الغزاة في البحر، كانت مشاعر الإسلام وحدها هي التي تعمل في نفوسه وصقوفه، وأن مصطفى كمال أرسله السلطان - وكان ياوراً له - ليقود المجاهدين في الأناضول، وأن الإمداد والأعوان وآمال المسلمين في كل مكان كانت تلتقي في هذا الميدان الخامس، حتى أن العوام في شوارع القاهرة كانوا يسرون في مظاهرات تردد نشيداً شعبياً مطلعاً:

المغضى يا مصر كي تحمي الهلال
لبي نداء المصطفى الغازي كمال
فلما انتظم الأمر له، قلب ظهر النخ و رأى الأتراك والمسلمين وجهاً لم يعرفوه من قبل، وسار في أمته سيرة لم ترحب إلى اليوم شيئاً يذكر. (ص ٩٤/٩٣ دار الكتب الحديثة، القاهرة).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وعند افتراقها عنها تصير غير مقيدة بما البتة، لأن افتراقها عن الخلافة فهو إما لاشتغال الخلافة على النيابة عن الرسل ﷺ حتى لا تنوب عنه، أو لتقيدها بأحكام الدين حتى لا تنقيد بها، ليس إلا، ولا معنى لافتراقها عن الخلافة من حيث اشتغالها على النيابة عن الرسول ﷺ حتى لا تنوب عنه، إذ لا يصلح للحكومة من ذلك الاشتغال شيء يضرها أو يثقل عليها إلا الشرف الذي لا شرف وراءه. فبين أن هذا الافتراق من حيث تنقيد الخلافة بأحكام الدين كيلا تنقيد بها، حتى أنهم، للتخلص من هذا القيد، رضوا بالتخلي عن ذلك الشرف واقتحموا احتمال تكبر المسلمين، وهذا أيضاً ما أفضى بناء إليه منطقياً في قضية الفصل بين الخلافة والسلطة نظراً إلى مجرد تلك القضية وإرغاماً لمن استوصى بها أو استخف بياسها في الدين، وربما وقع منهم بعد ذلك تصريح بافتراق الدنيا عن الدين^(١) يغنيا عن هذه الاستدلالات المنطقية، وإن كانت هذه الدلائل أغني عندها من تلك الصراحات.

بقي شيء يحتمل أن يتشبه به كاتب المقالة بعدما ضاقت عليه أرض المناظرة التي انتزعها من تحت رجله خطوة بعد خطوة.. ونحن نزيل هذه الشبهة أيضاً لتلا يبقى في هذا المقام مجال مقال قائل، فنقول هناك احتمال أن ينفذ الشريعة الإسلامية التي تولى أمرها الخليفة بواسطة المجلس الوطني الذي انتقل إليه الحكومة ونفوذها، إذ ليس موقف المجلس بالنسبة إلى موقف الخليفة كأحد المتخاصمين بالنسبة إلى الآخر، وهما متضادان، لكن لنا أن نقول بعده وقد فرضنا كون المجلس والخليفة متفقين: خصت الحكومة التي هي مركز النفوذ بالمجلس وأعلى الخليفة عنها عند توزيع القوى، بدون الفرق بين شخص وشخص يقوم مقام الخلافة ممن اختاروه كعبد المجيد أو امثاروه كوحيد الدين، هكذا اقتسموا القوى وكان أمراً مقضياً في

(١) وكانت هذه النتيجة المتوقعة هي كل ما يمشاه الشيخ مصطفى صبري، إذ تنبه إلى أن الأعيان الكماليين ما هي إلا مقدمات لحصر الإسلام في نطاق العبادات أو كأمر وجدان بين الإنسان وربه واستبداله كتشريع بالقوانين الوضعية الأوروبية.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

التشكيلات الأساسية الجديدة رسمياً وعهداً، فلنفرض أن الخليفة والجلس متفقان وليكن الحكم والنفوذ في يد أحد المتفقين، فهل لا يكون الآخر كالثقليل يجنب حليفه، إن شاء يرفق عليه ويهتّم بشأنه وإن شاء يخذله ويذرّه على هواه، على أن إطلاق اسم المتفق الخليف على هذا الطرف المتنازل عن حقوقه لفظ لا معنى له ومن قبيل الإغفال الذي يستمال به قلوب الأطفال، فمَن جعل من تولّى الخلافة الدينية غير من يده الحكم في تقسيم القوى، فمجرد هذا الاقتسام كاف في مؤامرة المقتسمين على ضد الدين، كيفما جرى الحال بينهما وفاق وفقاً أو شقاق، والذين اطمأنوا بموقف عبد المجيد في مبدأ قبوله الخلافة الجردة عن السلطة بناءً على الوداد والوفاق التام بينه وبين الحكومة الكمالية وقتئذ أحسبهم أحسوا خطأهم في اطمئنائهم كلما مر يوم عليهم وعلى عبد المجيد والكماليين.

ويقرب من هذا ما اتخذته الصحف^(١) المصرية غاية أفكارها في تأويل هذه الخطيئة الكمالية.. ولك أن تزيد عليه وتكلمه بقولك: "كما أن المشروعية، أى الحكومة الدستورية كذلك من حيث إن الخليفة كان يفوض أمر الإجراء فيها إلى وزراء الدولة، والإجراء هو الحكومة والسلطة بعينها، فمَن كانت الحكومة الدستورية مشروعة فما فعلوه من فصل الخلافة عن السلطة يلزم أن لا يتنازع في مشروعيتها أيضاً" والجواب أن هذا قياس مع الفارق الجائى، وذلك لن الخليفة في الدستورية يفوض وكالة الإجراء إلى الوزراء مع الأصالة في نفسه وهو مختار ومستقل في بداية تفويض الوكالة من حيث إن نصب الصدر الأعظم وشيخ الإسلام بيده يختارهما ممن شاء، وكذا نصب سائر الوزراء بدلالة الصدر الأعظم، وسيطرة البرلمان

(١) كثيراً ما يحمل المؤلف على الاتهامات التغريبية في الصحافة التي كانت تديرها الجهات الاستعمارية وأعوانها، كالمقطم المقتطف، ووصف صحافة مصر بأنها منحرفة عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية.

(مصطفى صبرى: القول الفصل بين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، ص ٤٩).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

عليهم من حيث إن له أن يضطربهم إلى الاستقالة بترع ثقته عنهم نفوذ منفي لا يؤثر في تعيين أحد للصدارة أو الوزارة. والخليفة في الدستور مختار وذو استطاعة أيضاً بالنظر إلى النهاية لتمكنه من فسخ البرلمان، وهو فيما ابتدعه الكماليون بخلاف ذلك كله، وما انتقل منه إلى المجلس الوطني ليس بعبارة عن وكالة الإجراء بل أصالته، حتى لم يبق في الخليفة شيء يستدرك به ما فاتته.

ولا يقاس أيضاً ما فعله الكماليون في الخلافة بما لها فيما سبق في أعصر الخلفاء المستضعفين بناءً على أى سلطة الإجراء انتزعت من أيديهم إلى ملوك وأمراء مع بقاء الخلافة فيهم، فنقول إن هذا من قبيل جعل الباطل مقيساً عليه، ثم الفرق واضح من وجوه:

أما أولاً.. فلأن أولئك الملوك جعلوا الخلافة لأنفسهم مع السلطة من أجل الرغائب لو أمكن ذلك من حيث حيازتهم بشرائط الخلافة عند أنفسهم وعند المسلمين، لا سيما شريعة القريشية^(١) البارزة في الأنظار مع قيام رجال متوارثيها من آل عباس الذين هم من أسرة قريش ومن سنامها، والمسلمون يومئذ غير مستأنسين بخلافة غير قريشي، والحال أن الكماليين أخذوا السلطة لزعيمهم وتركوا الخلافة لعدم رغبتهم فيها، لا لعدم مساعدة المسلمين لهم في ذلك، ولو رامها

(١) يأتي الاستدلال بالثبات شرط القريشية عن طريق الحديث (الأئمة من قريش ما بقي منها اثنان) ثم ثبوت احتياج أبي بكر بالثبات أبي بكر وعمر رضي الله عنهما به على الانتصار في اجتماع السقيفة فأدعت عند سماعة، ومجمل شيخ الإسلام ابن تيمية إلى التفاوض عنه عند توافره، ويرى أن من الفضائل التي يحض عليها الإسلام التباعد عن الفخر، كما قال الرسول ﷺ: (إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد). السياسة الشرعية، ص ١.

ويتساءل الجويني: (فماذا تفعل إذا تعذرت رعاية النسب؟).

أجيب على هذا بأنه ليس من مقاصد الخلافة الاعتزاز بالنسب، فلا ينبغي ترك أمور المسلمين فوضى ونظلم مترقبين قريشاً (بينما الخلق يتهاوون في مهاوى المهالك.. فإذا عدم النسب لا يمنع نصب إمام ثم ينفذ من أحكامه ما ينفذ من أحكام القرشي).

(غياث الأمم في التياث الظلم، ص ٢٢٦، ط. دار الدعوة بالإسكندرية).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مصطفى كمال لنفسه لسارع المسلمون المؤمنين باستحقاقه للسلطنة في تصديق استحقاقه للخلافة أيضاً^(١) وكيف يستكثرونها لمن سموه بطل الإسلام ومنحى مجده، ولم يستكثروا له ولأعوانه استهانتهم لمقام الخلافة، مع أنه لا يرى فرقاً بينه وبين رجل من آل عثمان في أوصاف الخلافة، وجوداً وعدماً، سيما بعد إفساد سمعتهم عند المسلمين بأنواع الدعاية (بوريجنده) وقبائح السعاية. لكن الكماليين نقلوا ما أحياه من السلطة إلى من أحياه، وتركوا ما كرهوه من الخلافة فيمن كرهوه. نعم إنهم لم يلغوها دفعة تهرزاً عن إنكار عالم الإسلام في الخارج ومحشياً على قاعدة التدرج، ولئلا تستفيد منها حكومة من الحكومات الإسلامية، مع كونها مما يكرهونها لحكومتهم.

وأما ثانياً.. فلأن هؤلاء الملوك الماضين كانوا يحتاجون إلى تقلد النيابة والوكالة عن الخلفاء رسماً وصراحة، بحيث لا تعد حكوماتهم صحيحة ولا مشروعة بدون تلك النيابة والوكالة، وكانهم منصوبون من قبل الخلفاء. ولا وكالة فيما نحن فيه ولا نصب، بل الخليفة عبد المجيد منصوب مصطفى كمال بالعكس، ونحن نقدر على إبراز كثير من السجلات التاريخية الناطقة لتلك النيابة والوكالة، ولا يقدر من ناظرنا على إبراز وثيقة رسمية مكتوبة موقعة من طرف الخليفة لوكالة مصطفى كمال والمجلس الوطني ونيايته عنه، كما أنا غير خائفين من احتمال تكذيبهم إيانا بتدارك تلك الوثيقة بعد ما سمعوا منا هذه الكلمات بناء على ما ستذكره في الوجه الثالث.

وأما ثالثاً.. فلأن وكالة الإجراء في عهد الخلفاء المستضعفين كانت تحال إلى الملوك والأمراء حال كونها وكالة الأحكام الشرعية، كما هو المنصوص في

(١) ربما يعتمد على واقعة رفض مصطفى كمال، اقتراح نصبه خليفة، فقد التمس بعض المعتدلين منه أن ينصب نفسه (خليفة) وجاء من الهند ومصر وفدان يكرران الرجاء، لكنه رفض قائلاً: (فالخليفة وقوانين عصرية، ومدارس رجال الدين يجب أن تحلّى مكانها لمدارس حكومية غير دينية).
أرمسترونج: مصطفى كمال (الذئب الأعرج)، ص ٢٠٩-٢١٠.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

السجلات التاريخية لتلك الوكالات، وكيف يقاس على ذلك. انتزاع الحكومة الكمالية من الخلافة لكيلا تنقيد بالديانة، أى لكيلا تُجرى الأحكام الشرعية.

وأما رابعاً.. فلأن ما مضى في تلك الأدوار من افتراق السلطة عن الخلفاء كان وقوعه طيلة التاريخ على وجه التغلب العادى العارى عن قصد تفكيك الدنيا عن الدين وإلغاء ما له عليها من الحكم والنفوذ، كما وقع اليوم بذلك القصد الخبيث الذى يرمى إلى الخروج على دين الإسلام أكثر من الخروج على الخلفاء.

تقليد الثورة الفرنسية:

وأما خامساً.. فلأنهم قلدوا فيما افتعلوا بناء الانقلاب الفرنسى الكبير القاضى بتفريق الحكومة^(١) عن الكنيسة، يدل عليه تصريحهم بفصل الدنيا عن الدين. وأكثر المسلمين وعلمائهم لما عرفوا ذلك الانقلاب ولم يشتغلوا بدراسته لم يشخصوا مغزى الفصل بين الخلافة وبين الحكومة من أول الأمر. وما سبق في تاريخ الخلفاء فهو معزل عن مبادئ الانقلابات الزمنية.

(١) بنى الشيخ مصطفى صبرى إلى خطأ المقارنة بنا حدث عقب الثورة الفرنسية للملابسا الخاصة، فقد كان الصراع في أوروبا ضد الكنيسة للتخلص من نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك مثل إذلال البابا حريجورى السابع للإمبراطور هنرى الرابع لاختلافهما على حق تعيين الأساقفة على إقطاعيتهم، فأعلن حرمانه فاضطر الإمبراطور إلى الانتظار ثلاثة أيام مستتراً بالخيض وهو حائى القدمين وسط الثلج في فناء قلعة تاليا.. وكان التعذيب في محاكم التفتيش لكثير من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك بتهمة الخروج على تعاليم الدين أو ممارسة السحر الأسود. فظهرت الكنيسة بذلك سداً بين أوروبا والتقدم، وظهر العلماء بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى لموت أتابغ الفرصة لدعاة التحرر الفكرى، فهدموا معها الدين، فتحقق فصل السلطة الدينية، وانكمش نفوذ الباب فلم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز، وأصبحت شؤون الدولة وتدير نظام المجتمع في يد رجال السياسة.

(د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ ١، ص ٢٥٤-٢٥٥).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

أما سادساً.. فلأن أولئك الملوك كانوا بسبب تلك النيابة خلفاء عن الخلفاء، ففهم السلطة والخلافة معاً، وقد تحقق بذلك حقهما من عدم قبولهم الفقرة، وإن كانت الخلافة المتصلة بالسلطة هنالك خلافة بالوسطة، بل الخلافة انتقلت بالفعل إلى من تعهد أن يفعل فعل الخلفاء من إقامة الأحكام الشرعية، وما بقي في الخلفاء فعبارة عن الاسم البحث، إلا لا تنفك الخلافة عن الفعل وماهيتها المتضافقة التي بمعنى النيابة عن الرسول ﷺ فيما فعله لمصالح أمته تأتي الانفكاك عن الفعل الذي تحصل به النيابة، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَذَاوُرُذُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [ص: ٢٦]. وبالنظر إلى هذا الأصل الذي لا يجوز إهماله كانت خلافة هؤلاء الملوك أقرب إلى الصحة من خلافة الخلفاء الفارغين عن العمل، ولهذا أيضاً حكمتنا في مقالتنا المنتشرة قبل هذا بسنة في المقطم والأهرام بعدم حلو الحكومة الإسلامية، أية حكومة كانت، عن الخلافة، وسريرد الكلام عليه. ثم لا يخفى على القراء أنه لا يجرى شيء مما ذكرنا هنا لحكومات الملوك الإسلامية الماضية في حكومة مصطفى كمال الآلية قبول نيابة القيام بالأحكام الشرعية قطعاً.

وبقي ما تمسك به بعض الصحف الكمالية المنتشرة في أنقرة بأقلام من قام مقام العلماء مثل جلال نوري بك في إصلاح هذه المسألة، وهي مما أفسده الدهر كدماغ جلال نوري بك: "إن هناك وظائف للخلافة لا الخليفة، وأن الوظائف التي نصت عليها الكتب الصحيحة هي وظائف الأمة لا الخليفة، إذ لا يوجد نص بشأن الأفراد، وأن كلمة (أولى الأمر) صيغة جمع، وإننا (الترك) لا نتول إلى اقتفاء آثار الخلفاء الأمويين والعباسيين.." يعني التزام الإمام المنفرد، وسكت عن الخلفاء الراشدين مع أنهم أئمة منفردين أيضاً، تسترا في استحقاقهم مع الأمويين والعباسيين، وهذا الرجل تقاصر عن شجاعة أخيه الذي صرح في مؤتمر (لوزان) عند مناقشة قضية الأقليات غير المسلمة، بأن حكومة الأتراك اليوم حكومة لا دينية، فلا وجه لقضية الأقليات التي يغير دينهن دين الحكومة، كما انتشرت هذه الواقعة

الأسرار الخفية وراء إلفام الخلافة العلمانية

في جريدة (طنين) بعدد (١٧) وتاريخ ٢٣ ديسمبر ٢٠٢٨، وهي حسي مصدقة لدعوى التي أحررت عليها في مقالتي الأولى وفي كتابي هذا في شأن الاتحاديين الكماليين، ومكذبة لمدافعات المصريين عنهم ﴿ قَدْ بَدَتْ أَلْبَقَضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَحْكَمُ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ولنسلم أن الوظائف للخلافة لا الخليفة وهي وظائف الأمة، فالأمة إن شاءت فوضتها إلى شخص واحد وإن شاءت فوضتها إلى جماعة كأعضاء المجلس الوطني، ولكن لا أدري أنا ما جدوى هذه المدافعات في فصل الخلافة عن السلطة، لأن الوظائف إن كانت للخلافة فيلزم أن لا تنفك عنها، والخلافة لا تنفك عن الخليفة ينتج أن الوظائف لا تنفك عن الخليفة، فهناك أمور ثلاثة: الوظائف والخلافة والخليفة، لا ينفك بعضها عن بعض، فإذا كانت الوظائف وهي وظائف الخلافة ومنحها الأمة للمجلس الوطني صارت الخلافة أيضاً للمجلس وصار الخليفة إياه نفسه، وهذا خلف بالنسبة إلى بقاء الخلافة في عبد المجيد، وكونه خليفة وتفريق الخلافة عن السلطة. والذي يؤدي إلى خلاف مفروضاتهم، وهكذا منطقهم السخيف فإن خططهم اللادينية لا يمكن أن تويد بالمسانيد الدينية.

وبهذا التحرير يسقط ما قاله خليل خلكي أفندي نائب (سعد) وإلياس سامي أفندي نائب (موش) وكتب قولهما بعض صحف الآستانة من أنه: "لا يقاس زماننا بزمان الخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، وهم بانفرادهم كانوا أهلاً للقيام بوظائف الخلافة متصفين بأوصافها وكانوا عاملين بالمشورة غير مائلين إلى الاستبداد برأيهم، ولا يورثون في زماننا رجل يستجمع أوصاف الخلافة ويؤمن في القيام بوظائفها غير عادل عن أحكامها وشرائطها".

لأن بحثنا ونزاعنا ليس في كفاية شخص واحد في أمر الخلافة أو عدم كفايته في زماننا حتى يلزم تفويضها إلى جماعة، بل البحث كله في تجريد الخلافة عن السلطة والتفريق بينهما، سواء كانت الخلافة في شخص أو جماعة، فهذا التفريق أدى إلى

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

انسلاخ الحكومة عن الصفة الدينية، وأوجب تبعية الشريعة الإسلامية عن ساحة التنفيذ إلى حضيض الإهمال ضمن تبعية الخلافة عن تلك الساحة كما أوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه. وقضية عدم القيام بوظائف الخلافة في زماننا وركون الخلفاء إلى الاستبداد مسائل أخرى نتكلم عليها في غير هذا الموضع والذين أخرجوا الخلافة عن وضعها الأول لم يفعلوا ما فعلوه احتراماً للخلافة وإعظاماً لشأنها عن أن يقوم بوظائف شخص واحد، ألا يرى أنهم تركوها في شخص واحد أيضاً، وهو عبد المجيد، بل فعلوا ذلك إعراضاً عن الخلافة واستهانة بها وتطهيراً للحكومة النافذة عن تدخلها، فهم حصروا الاهتمام بالحكومة، حيث أرادوا استقلالها عن الخلافة وحيث كانت هي التي نقلوها إلى جماعة لا للخلافة فصنيعهم ينقض كلامهم لا ينطبق بصنيعهم، والثابتان المذكوران في صدد توجيه ما فعله سادقهما الكماليون من نزع الحكومة عن الخلافة ونقلها إلى المجلس الوطني ادعيا عدم كفاية الشخص الواحد في زماننا لوظائف الخلافة، فكأنهما قالوا: "ولهذا نقلت الخلافة إلى عهدة جماعة وهي أعضاء المجلس الوطني" يعني أن نتيجة مدعاهما المنطقية أن يقولوا هكذا، مع أن المنقول إليهم إنما هي الحكومة لا الخلافة، وهما أبانا عن مصير الحكومة على ظن أنهما أبانا عن مصير الخلافة فالتبس عليهما الحكومة بالخلافة، والذي أوقعهما في هذا الغلط الصريح عدم انفكاك الحكومة عن الخلافة وعدم وجود وظائف للخلافة غير وظائف الحكومة، فانطلقهما الحق على وجه يكشف عن باطلهما^(١).

(١) واعلم أيها القارئ أن الذين يعارضوننا باستبداد الخلفاء وتحكمهم على الأمة ويحذرونها عنهم ويذرون الكلام في ذلك البحث مثل تحليل خلقي وإلياس سامي هم الذين يسارعون في الانضمام إلى جانب كل مستبد في أوانه، وإن أكثروا في مذمة الاستبداد الذي مضى وقته، فما هم أعداء الاستبداد وإن أئذروا الناس به، بل أوليائه الخاصة وعدامه المتدبرة. فإذا فتشت عنهم رأيهم في زمن الاتحاديين مع أنو وطلعت وجمال، واليوم مع مصطفى كمال، من حيث إنه المستبد الغالب على محمد الوحيد وعلى عبد المجيد، وقبل إعلان الدستور أحسبك تحذهم بين أنصار عبد المجيد ومناح طريقته. فرحم الله المسلمين ووقاهم شر كل منافق ذلق اللسان بدور مع ازمان، (م.ج).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

فإن قيل إن الخلافة أخرجت قدماً في الدولة العثمانية عن أصلها لأن خلافتها صورية قائمة بالتغلب لا حقيقية، وأن أكثرهم غير متحليين بشرائها، دعوا شرط القريشية المفقود في جميعهم، فلا يستعظم ما افتعله الكماليون فيها من التغيير، بل إن الحق يقال كما قال الشاعر التركي.^(١)

أول نه أيدي نه أولدي بيلمم؟

قلت كلا، إن الفرق عظيم وحقيق بالاستعظام جداً بين أن يعد الخلافة مما يتنافس فيه المتنافسون، حتى يدعى من لم يستجمع شرائطها من ذوى السلطة أنه أهل لها، ويدعى القيام بوظائفها من يكون مقصراً فيها. فهذا مع كونه مبنياً على الادعاء غير الموافق لنفس الأمر، بل عبارة عن تفرير الأمة، يدل على أن مكان الخلافة بالنظر إلى العقيد الراسخة في نفوس المغرور والمفرورين في غاية الرفع والشرف، من حيث اختصاصها بالرئاسة الدينية والنيابة عن رسول الله ﷺ في حكمته، فكيف تقاس هذه الحالة العقلية باعتقاد كون الخلافة مما ينبغي أن تعرض عنه الحكومة وتبعدها عن ساحتها، ولا علة لهذا الإعراض والتبعد غير كونها متضمنة لتلك الرئاسة والنيابة. هذا، والعباد بالله تعالى ثم العباد به من العقيد الثانية ومن قياسها بالعقيد الأولى.

وسيجيء منا زيادة تفصيل تتعلق بهذا البحث.

(١) الشيخ غالب المولوى في مراجعته. ومعناه: "ماذا كان قبل فما صار بعد؟". (م.ص)

مذهب في الخلافة:

ولابد أن أنص هنا على ما هو مذهب في الخلافة والخليفة: وهي أن الخلافة ليست عبارة عن صفة تمتاز به إحدى الحكومات الإسلامية، بل هي عبارة عن كون حكومة ما نائبة مناب رسول الله ﷺ في القيام بأحكام الشرع الإسلامي، فلها ركنان: حكومة ونياية، ومتى^(١) فقد أحد الركنين مثل الحكومة بلا نياية، كما وقع في حكومة أنقرة، أو النياية بلا حكومة، كما وقع في نياية عبد الحميد فقدت الخلافة، لأنه يكون بمنزلة وجود الكل بدون الجزء، وهو محال. ولأجل أن حقيقة الخلافة عبارة عن ذلك قلنا في مقالتنا الأولى التي كررنا البحث عنها أن صفة الخلافة موجودة في جميع الحكومات الإسلامية المستجعة لشرائطها على قدر الإمكان، وإن كان العرف العام على امتياز واحدة معينة من تلك الحكومات بها، لأنه إذا كانت هناك حكومة مع المراعاة بشرائط الحكومة الإسلامية ووظائفها فلا حرم توجد فيها النياية التي ذكرنا، وهي عبارة عن الخلافة بعينها. فاللازم في تحقق الخلافة رعاية الحكومة لشرائطها الإسلامية فيكون اتصاف الحكومات الإسلامية بالخلافة على قدر تلك الرعاية، وهي أي الخلافة لا تكسب باعتبار المعيار كالوراثة أو التوجيه من قبل شخص أو جماعة.

فإن قيل: وجود الخلافة في جميع الحكومات الإسلامية يستلزم تعدد الخلفاء مع أن في جواز تعددهم كلاماً.. قلنا عدم جواز التعدد إنما هو من جهة مزاحمة كل من

(١) نقيد المؤلف بالتعريف الصحيح المتفق عليه بين العلماء المسلمين عند حديثهم عن الخلافة، حيث يعرفها الماوردي بأنها (موضوع خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا)، الأحكام السلطانية، ص ٣.

وحقيقة هذا المنصب عند ابن خلدون أنه (نياية عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا تسمى خلافة وإمامة، القائل به خليفة وإمام)، المقدمة، ص ١٣٢، ط. التجارية.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

الحكومات الإسلامية بالأحرى فتتقص قوة الكل أو لا يتكون في شيء منها رأساً، يعني أن المخبور في تعدد الخلفاء إنما نشأ من تعدد الحكومة التي تتضمنها كل العلماء ورثة الأنبياء^(١) على كثرتهم، وإنما الآية عن التعدد هي الخلافة المقتربة بالحكومة، وبذلك الاقتتران تمتاز خلافة الخلفاء من خلافة العلماء. فإذا جاز تعدد الحكومات الإسلامية، بل كان ذلك ضرورة ببعده الشقة ولم يمنع التعدد تكون كل منها برأسها فلا مانع إذن من تعدد الخلافة والخلفاء. نعم إن الأصوب والأنتفع اتخاذ واحد منهم خليفة أعظم يعم نفوذه عليهم ويكون رأيه واجتهاده آخر مرجع لتوحيد الكلمة بين المسلمين وتحديد الخلاف في المسائل الاجتهادية، والكلام على أنه أهل للاجتهاد كما هو الواجب. وهذه الأمة والخلافة المتصورة على وجه يبيى به معناها الصحيح هي التي أتمناها مع الأستاذ السيد رشيد رضا، ولكن لا أدري هل يتيسر لهم ذلك، وحالهم كما نرى؟!

وأما ما قاله كاتب المقالة التي نقلنا فيما سبق بعض فقراتها من المقطع، من أن الكماليون جعلوا أمير المؤمنين بآراء المسلمين لا بالوراثة، فكذب فاحش بجميع كلماته.. إذ لا أمير للمؤمنين بعد نزع الأمر منه. وما آراء المسلمين بآراء شرذمة أكثرهم لا يؤمنون بالله ورسوله ﷺ وهل تدري^(٢) كيف انعقد مجلسهم بانقرة

(١) جزء من حديث أورده ابن رجب في رسالة له في شرح حديث أبي الدرداء فيمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، فقال: أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم أن رجلاً بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال أما جئت لحاجة؟ قال لا، قال أما فتمت رسول الله ﷺ يقول: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة وأن الملائكة تضيء أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى ألجئوا في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

(٢) لا شك أن الشيخ مصطفى صبري كان على هيئة من أمور الانتخابات التي أجريت لتكوين هذا المجلس، وكان من عادة مصطفى كمال التداخل في تشكيل المجالس حسب خططه لاتخاذ أعضائها عوناً في تنفيذ قراراته.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وكيف انتخبتهم الأمة ولا يريهم الأناضول التي هي محيطهم الأدنى؟ وقوله لا بالوراثة من تنمة الكذب، وقد أراد الرجل بتكرار الوراثة تعريضاً بي، والحال أني لم ألزم في مقالتي الخلافة الوراثة ولم آخذ الكماليين بخرق عادة الوراثة لأنهم سلكوا طريقها أو استخلفوا عبد المجيد من محمد السادس وهو الذي يليه على مقتضى قاعدة الوراثة الجارية في آل عثمان. ولو عدلوا إله خلافة أحد ليس من آل عثمان كمصطفى كمال مثلاً وكان أهلاً لها ولم يكرهها من حيث كونها صفة دينية وأعطوه نفوذها وحقوقها لما أنكرت عليهم ذلك. وأنا لا أنكر أيضاً خلافة عبد المجيد ولا أعترض عليه لشخصه، بل أعترض على تنازله عن السلطة والحكومة اللتين لا يجوز تخلي الخليفة عنهما ولا تبقى الخلافة بدونهما. ولم أبر كلامي في مقالة من مقالاتي على معاضدة شخص من أشخاص الخلفاء ومعاودة آخر لأن مكان الشخص يسع المناقشات، بل تكلمت بتمحيص النظر في مفهوم الحكومة والخلافة ومقتضى العقل والشرع^(١)، فإن كنت في شك مما ذكرنا فارجع البصر كرتين إلى

= وكانت الانتخابات - كما يصورها أرمسترونج صاحب الكتاب المدافع عن أتاتورك - تصوير لعدة مهازل تحمل في صياقتها ديكتاتورية واستهانة برغبة الجماهير وتهدية لمعارضيه بالاغتيال. وكانت نتيجة هذه المسرحية أن جاء بأعضاء يخضعون لإرادته ولا يملكون معارضته حيث أخذ يسوقهم بسلاحى الرغبة والرغبة. ينظر كتاب أرمسترونج: مصطفى كمال.. الذئب الأخير؛ ص ٢٠٥، حزب الشعب والسلطة المطلقة، ص ٢٠٩، اغتيال خصومه.

(١) وكما أن الترامي والتهامي لا يتعلق بشخص معين من أشخاص الخلفاء، فلو انحصر بغى الكماليين وعدوانهم على ذلك الشخص المعين لكان الأمر ولأمكنهم أن يتأولوا صنعهم بخلع خليفة وبيعة آخر ولكن ما فعلوه كما قلت في مقالتي الأولى خلع الخلافة وعزلوا عن حكومتها. وليس هذا أيضاً عزل الخليفة عن حقوقه حرماً واحتياطاً من الأمة في شخص الخليفة، كيلا يستطيع إلى استعمال ما حازه من القدرة والنفوذ في هوى نفسه غير مصالح الأمة، لأن ذلك الاحتمال يجري أيضاً في المجلس الوطنى أو شخص مصطفى كمال ممن نقلت إليهم الحقوق المنتزعة عن الخليفة، فأى قوة تمنعهم من سوء استعمال القدرة المودعة إلى أيديهم، فإن كان المانع رقابة الأمة فلتكن هي مانعة حال كون القدرة باقية في يد الخليفة.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

- هذا، ومن يخالفون ملتزمين بنصرة الخليفة محمد وحيد الدين ومتعصبين له ضد عبد الحميد فمنشأ غلظه التزمى بنصرة الخلافة التي كان السلطان وحيد الدين هو الذي ثبت في الاحتفاظ بحقوقها ولم يتنازل عنها إلى أن أيقن الخطر عن نفسه فبرح عرشه وقصره وبلده الذي ولد فيه، ورضي أن يحرم نفسه حظوظها ولم يرض أن يحرم الخلافة حقوقها، بخلاف عبد الحميد، فإنه صالح الكمالين على تعطيل الخلافة لينالها فكان كالتقاضي على الماء لم يحصل على غير البلب، وسار مثلاً في إضاعة كرامة الخلافة بل إضاعته بأرومتها، فلقد سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وجهاد السلطان وحيد الدين ضد مبدأ الكمالين في تجريد الخلافة عن السلطة وعدم استسلامه إليهم محمود جداً وبالغ إلى حد الغاية من الإحسان وهو غن عن البراءة والاعتذار منحة معادته الكمالين والأتعادين، وإنما احتياجه إلى ذلك من جهة أنه لم يراع معادتهم حق رعايتها متوجهاً إليها بكله متحاملاً عليها بكله، فعاملهم معاملة من لم يستكمل سوء ظنه بهم وأبقى لاحتمال بحبيء الخير منهم باباً مفتوحاً، فتركهم مسلطين على عباد الله المسلمين فوق تسلطهم على غيرهم وأفادت فرصة إنقاذ البلاد والعباد من شرورهم وفتنهم مع كون تلك الفرصة ثمينة جداً لا يعود الزمان بمثلاً ولا تمنح أن يعود به، مندحمة في ضمن مغلوبتنا العظيمة في الحرب الكبرى اندماج اليسر في العسر اللذين جعلهما الله تعالى بطفه قريبين، وجعل أحدهما على قدر غظم الآخر، وللإنسان في ديارنا ألوان: فمن ظلم منهوم لا يشبع الدماء التي سفكها، ومن حليم يتجنب قتال القاتلين الظالمين حين ما ظفر عليهم عاقبة أن يتشبه بهم، ثم ينهض الظالمون فيستمررون في جنابهم ويستفكون من دماء المظلومين أضعاف ما اجتنب من دماء الظالمين، ويتكرر الحال على الفريقين أي بدال الجدال بينهما مثل السحال، وفي نتيجة كل دور يزداد الظالمون قوة وغيرهم ضعفاً، لما بينهما من فرق السيرة. فإذا كان من لا يظلم الناس يظلم فما ظنك بمن يرحم من لا يرحم، ولقد أحسن القائل:

إن الذين نسوا برامة عهدنا سعدوا وأوفانا به أشقانا

وذنوب السلطان وحيد الدين في مساهمة الكمالين بما لا تعفوها له أرواح مظلوميه قتلن عفت فيوشك أن لا تعفوها له روح الإسلام التي بغوا عليها وقد رام المسكين من فرط حين نيته أن يحيط بكل طريق السياسة ويحكم الإنجليز فحرى معهم بالسلم والاعتدال فهو طريقة، وإن نجح طريق المقاومة فهي طريقة من بعته وواضحة في ذلك وناجاه، فعاقبه الإنجليز وعارضه في أمر المكر فطلب عزل مصطفى كمال من وظيفته واستعاده من الأناضول، وإنجليز يومئذ يحتل الأستانة عاصمة بلادنا بظر بياكورة ظفروا علينا في الحرب الكبرى وسحقته للتولد منها متفق الكل مع -

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

= خلفائه في ذلك، فتعالى السلطان وتطلعا مدة شهرين حتى اضطر إلى تنفيذ ما اقترحوه عليه، فلم يستجبه مصطفى كمال، بل خرج عليه، والسلطان لم يكتفِ له فكانه لا يؤمن بصحة الخروج عليه، ويرجع أن يوجد في الأناضول قوة عسكرية معدة لخدمة الوطن. ثم اقترح الإنجليز حل تلك القوة القائمة بالخاصة وإزالتها حتى لا تقوم بأمرها الدول بمخادمتهم، بناء على أحكام هدنة (منروس) وهي كانت تريد أن تمشي على الأستانة لطرد القوات الأجنبية المحتلة بها منها، وكانت وقتئذ لا تكاد تستطيع، بل لإتمام قضية الخروج على السلطان، فتساعل في التحامل عليها والاهتمام بنكايته، والدليل على ذلك أن الحكم على مصطفى كمال بأنه عاص ما صدر رسمياً إلا بعد مبدأ عصبائه، وفي تلك المدة كم ولي الوزارة من يعامل مصطفى كمال باللطف واللين مثل علي رضا باشا وصالح باشا، وفي تلك المدة أيضاً وقع هجوم مصطفى كمال على جنود اليونان المحتلة بأزمير فقط حيث هيجها فتوسعت في الاستيلاء على بلاد الأناضول، وهو كل يوم يصول عليها ثم يرجع أمامها، وقليلاً ما يلمحها إلى التفهق، فصارت غاية هذا الجزر والمند المتدين أن حرب بلاد الأناضول وقرائها واكتسحت أموالها وأنفسها ووصلت اليونان إلى باب أنقرة وظل نصف الأناضول تحت جنودها، وفي ذلك الحين كان لليونان بسطة ومكانة واضحة في الأناضول، كلفونا الدول معاهدة (سيفر) وهي شديدة فوق الطائفة تتضمن عقوبة علينا من جنائين: الأولى دخولنا في الحرب العامة، والثانية نقضنا لهدنة (مندروس) وإحداثنا حرباً لاحقة بالأولى المنقضية ثم كوننا مغلوبين في كلتا الحربين. فلو لم يكن منا الدخول في الحرب العظمى الذي هو كسب يد الاتحاديين لما غلبنا ولما خضنا إلى هدنة (مندروس) الخاسرة المساعدة لاحتلال الأستانة والمين عليها احتلال أزمير. ولو لم يكن مصطفى كمال وحمله اليونان على التوسع في داخل الأناضول لما شددت علينا معاهدة (سيفر) بشكل الدرجة. والرابطة بين الخلفاء لم تزل حتى ذلك الحين مصنوعة على شوائب الاحتلال، سواء كانت الرابطة بين إنجليز وفرنسيين أو بينهما وبين اليونان، وفينسزولوس مستقر في مركز نفوذه عند محالفيه. ففي ذلك الموقف الذي رأى السلطان وحيد الدين أنه لا يحصل من دوام الحركات الكمالية غير الخسار على الدولة والأمة بازدياد تبعات الحرب وتضاعف المغلوبية فيها، أصدر عليهم الحكم الرسمي بخروجهم عن الطاعة وأمر بالتنكيل بهم ومع هذا لم يجر على مقتضاه بنتمام الاهتمام ولا مدى الأيام، بل عاد بعد مدة قليلة إلى طريقة التساهل والتسامح فيهم، لاسيما بعد طروء التغير على سياسة الخلفاء مع اليونان وظهور آثار الحياة والمقاومة للكماليين أمامها، وكثيراً ما ترقى الحال من التساهل والمساهمة إلى درجة المعاضدة سرّاً وعلائية. ومضى على ذلك سنه الأخيرتان المنتهيتان بمغادرته الأستانة، وفيهما وقع ما وقع من مساعي وزارة توفيق باشا على مرأى من الناس لنصرة مصطفى كمال على السلطان، ومع -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

- أنه هو الذى ولاه الوزارة وأبقاه فيها إلا أن لم يبق لنفسه إمكان البقاء فى الأستانة بعد ما شهد عاقبة الشهيد على كمال بك الفجيعة. فصفوة الكلام أن السلطان أراد أن يؤكد الإنجليز بمصطفى كمال فتحول الحال فكاده الإنجليز مع مصطفى كمال، وهو لم يزل مقتنعاً ومعتقداً بأنه يتخضع لقطاعه بعد زوال الملّة الأجنبية.

وأما مساعته الكماليين ساعده الله فلو لم يشهد بما عليه شيء غير وزارة توفيق باشا لكان فيها كافية وزيادة، وقد أقامه فيها سنتين كما قلنا بل أكثر، وفى تلك المدة كانت هيئة تلك الوزارة يسلمون أنفسهم من الحكومة التى هى وديعة الله ووديعة الخليفة فى أعناقهم كما تسبى الشعرة من العجين ويسلمونها بالتدريج إلى الكماليين الذين هم أعداء الله وأعداء الخليفة. والذى اشتغل بوظيفة المديرية العامة على البوليس فى زمن وزارة توفيق باشا وهو أميرلاى أسعد بك جعله الكماليون غداة استيلائهم على الأستانة والياً لها ماثية لنصرتهم فيها لهم على ضد حكومة السلطان عبد الحميد إلى أبهى بغاة السلاطيك. ولا يكاد يتفق تكرر التاريخ بمثل هذا ومساعدة من وقع عليه الاتفاق، لله در من عكس قضية (إذا جاء القضاء عمى البصر).

هذا ما نال الكماليين من السلطان وحيد الدين فى أواخر أمرهم وكم استفادوا من جاهه والانتساب إلى جنابه فى أوائل ههضتهم. ومن عادة الله تعالى فى الكماليين والاتحاديين أن يكون أول من ينتقم منه هم من أحسن إليهم، كما أن المرحوم ناظم باشا الذى اغتالوه فى صفة الباب العالى كان هو الذى سمح لهم بشفاعته وحمايته عند وزارة كامل باشا، وكذلك كمال بك الشهيد الكبير الممزق بأيديهم كل ممزق كان ممن سبق وزارة فريد باشا إلى الاعتدال فى شأن الاتحاديين، وكان مصرأ فى عدم الرضى بسياسة القهر والقتل فى مقابلة جنابهم حين قتلوه بالخشب والأحجار وجازوه جزاء سنمار. وإذا كان لكل غادر لواء يوم القيامة فهم أحقاء بأن يكونوا أعظم الغادرين لواء فى ذلك اليوم. هذا، وإذا أمعنت النظر فيما حدث ببلادنا من الأذئاب المترسة والذئاب المفترسة، ثم رأيت مواقع الشرف الممهدة لها عند المصريين فلا عليك أن تعد من معجزات أحمد قوله:

أكلما اغتال عبد سوء سيده أو خاتمه فله فى مصر تمهيد

وعلى الكلام فى السلطان وحيد الدين أذكر مثلاً لتحريف الصحف الكمالية الحقائق عندما تكلموا فيه ليعتبر به المعتبر: وهو ما قرأته فى جريدة (أقشام) بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٢٣ من احتجاج تلك الجريدة على الحكم الذى صدر فى عهد السلطان المشار إليه على الدكتور عبد الله جودت صاحب مجلة (الاجتهاد) بطلب السلطان بالذات. فذكرت (أقشام) التهمة المعروفة إليه بأنها كانت عبارة عن كتابة لفظ الحديث النبوى فى مجلسه، وكانت وزارة السلطان تهتها احتراماً -

الأسرار البقية وراء إلفام الخلفة العلمانية

آية كان من مقالتي حتى يتبين لك أن مقابلة المعارضين على كلماتي بتعريضات شخصية بعيدة عن حقيقة الأمر ونزاهة الفكر وغير متعلقة بمجهر المسألة التي تدور عليها رحي المناظرة من آثار العجز والإفحام. ومعظم أسلحتهم التي صالوا بها على شتم غليظة ومفتريات، تقاصرت مع تطاولها عن البراهين المنطقية المودعة في مقالتي. فكان هاجسهم الذي يوسوس في صدورهم لا يزال يقول لهم لا تسمعوا للحق والغوا فيه لعلكم تغلبون. وهذه شنشنة أعرفها من إخوانها الذين إذا خاصموا فحروا. وقد كرروا حين كرروا على ما تيسر لأقلامهم من مدح الكمالين بأفهم الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن بيضة الإسلام وقدحنا بأننا نخونة الوطن والدين، ساء ما يحكمون، وتسجيته هينا وهو عند الله عظيم. وقد نيهت في مقالتي من

« بالفاظ الأحاديث وصيانة لها عن ورقات الجرائد التي ربما يستهين بها الناس ويستعملونها في خاس الأعمال - أصابت الوزارة في هذا الفكر الاحتياطي أو أعطت وأفرطت - ثم حرت (أقشام) انتفاذها على ذلك ونددت الحكم الصادر على الدكتور المذكور ورأت المشي عليه اليوم مغايراً لخطة الحكومة الجمهورية التي أسست لإبطال الأحكام اللاحقة بالقرون الوسطى، والحال أن القضية التي حكمتها (أقشام) حرت بفرق عظيم بما ذكرته: وهي أن عبد الله حودت الذي هو من مشاهير السعاة اللادينية في تركيا بحث في مجلته عن غزوة بين قريظة وشنع على حكم النبي ﷺ فيهم بقتل أسراهم تشجيعاً ثقيلاً. وإن حاجته ورددت عليه كلامه بمقالة طويلة كتبتها في جريدة (بام صباح) ١٨ مارس ١٩٢٣م، ثم طلب السلطان من الوزارة أن توأخذ بمادة قانون الجراء الباحثة عن جرائم الطعن والمجاء على الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. وما نسيت (أقشام) كيف حرت القضية وما كادت تنساها مع كونها مصرحة في الصحف بتفاصيلها ومناقشتها العلمية، ولكنه أمرها نفسها الأمانة بالسوء بهذا التحريف البين تصغيراً لذنوب عبد الله حودت في أعين القراء حتى يحكموا بغير السلطان وحيد الدين عليه، ولم يكتف فضاحة الكذب لدى أناس كثيرين يعرفون حقيقة المسألة. وستنقد بعد تمكن الإدارة اللادينية في تركيا وتهم ارتكازها على أصل القضية غير معرفة، وتصبح عما تلوكه وتخفيه تحت لسانه من الإنكار على مجازاة الطاعنين في الأنبياء عليهم السلام وإلحاقها بأحكام القرون الوسطى. (م.ص)

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

قبل على بعض جهالات المصريين ^(١) في المسائل المتعلقة بسياسة الأتراك مثل قضية الفتوى وتعيين من أفتاها في ضد الكماليين مع قولها أعرف من أن يُجهل ﴿ ذَلِكْ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴾ [النجم: ٣٠].

وما أشبهه عد موقفنا تلقاء تلك البدعة الكمالية من جنس خيانة الوطن والدين بقوة فرعون لموسى عليه السلام بعد قوله: ﴿ أَلَمْ نَرْبِكَ فِينَا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِوَنَ ﴾ [الشعراء: ١٨]، ﴿ وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩]، فكان من جواب موسى عليه السلام: ﴿ وَتِلْكَ بَعِثْنَا عَلَيْ أَنْ عَجِدْتَ نَبِيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]، فرعون يؤاخذ موسى بكفران واجبه لدى منشئه الذي ربي فيه وينسى تعبيد نفسه لربي إسرائيل.

ثم إن الكتاب من علماء مصر في قضية الخلافة والسلطة التي أحدثها الكماليون، لا يزالون بعيدين عن إدراك لب المسألة فشرقوا وغربوا واقهوا وأنجلدوا وجعلوا مباحثتها ذريعة لبسط علومهم الواسعة في مباحث الإمامة والخلافة وتاريخ الخلفاء، كل ذلك يحوم حول الاعتذار عما فعله الكماليون كيلا يبقى مخالفاً لأصول

(١) يلاحظ القارئ الشكوى المرة من كتاب المصريين بسبب تأييدهم للكمالين وسوء الاستقبال الذي لقيه الشيخ مصطفى صبري، ولكن السبب الحقيقي يرجع إلى عاملين:
الأول: خضوع المصريين - كغيرهم من مسلمي العالم حينذاك - لتأثير النصر العسكري الذي أحرزه مصطفى كمال على اليونان، فظنوا أنه سيعيد مجد المسلمين من جديد وينقدهم من أعدائهم الغزاة كالإنجليز والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم من أمم الغرب التي ذاق منها العالم الإسلامي ويلات الاستعمار. ولكن عندما قام أتاتورك بإلغاء الخلافة، ظهرت موجة عارمة من الغضب الشديد عليه احتجاجاً واستنكاراً لفعلة.
الثاني: قيام بعض الكتاب من عملاء الإنجليز بحصر بكتابة مقالات ضد الشيخ مصطفى في الصحف المعروفة بولائها للمستعمر، كالقلم والمقتطف.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الدين، فكأنه إن لم يوافق الدين فعلى الدين أن يوافق طوعاً أو كرهاً وإلا صار حال الدين كما قال الشيخ يوسف الدجوى، من أكابر علماء الأزهر، بعد أن لم يُبق معذرة ولا مسكناً في دين الإسلام من ناوأ مصطفى كمال كالسلطان وحيد الدين الذي اتهمه ببيع البلاد وإظهار الفساد وإزالة مجد الإسلام وأشياعه: "أما أن نسلك طرائق سعادتنا حتى نكون أرقى الأمم ونقضي على كل من غش وخان وناوأ المجاهدين في سبيل إعلاء الوطن والدين، وإما أن نطرح هذا الدين الذي يؤخرنا ويجعلنا وراء الأمم جمعاء". وبالنظر إلى كون مراد الشيخ ممن جاهد في سبيل إعلاء الدين، مصطفى كمال وأعوانه، ومن غش وخان السلطان وحيد الدين وإيانا سائر المخالفين للكمالين، فيكون معنى كلامه خلاصة: "إمام أن يعترف هذا الدين بل يأمرنا بالحب والتعظيم لمصطفى كمال، وبالحدق والنقد على مخالفيه، وإما أن نطرح الدين"، ومفاد هذه القضية المنفصلة أن ثقتنا بمصطفى كمال وصلاحه ونجبتنا وفسادنا فوق ثقتنا بالدين، كأنه يرتاب في دينه ولا يرتاب في مصطفى كمال^(١)،

(١) كان دعواً لهذا الرجل الكفيف لو كف عن مثل هذا الحكم، وعن محاكمة الدين وموازنته بأحد ملائحة الظالمين. ثم رضى الله عن الفقهاء، حيث عنوانوا الشهيد في بابه الذي أفردوه لبان أحكامه بالشهيد الحكيم، ولم يعنونوا بالشهيد الحقيقي، معللين ذلك بقولهم: "الله يعلم من يجاهد في سبيله"، انظر إلى حزمهم في حكمهم وحرارة الرجل الذي هرف وأسرف في إحسان ظنه وإسائه كل الإسراف، وتغيب الفكرة الإسلامية فيمن لم يرضها قط، انظر قول السيد الرشيد رضا في كتابه الذي سبق ذكره عندما بحث في حال المتفرجين: "وحزهم قوى ومنظم في الترك وغير منظم في مصر وضعيف في مثل سورية والعراق والهند، ورأيه أنه يجب إلغاء منصب الخلافة الإسلامية من الدولة وإضعاف الدين الإسلامي في الأمة، واتخاذ جميع الوسائل لاستبدال الرابطة الجنسية والوطنية بالرابطة الدينية الإسلامية، والترك من هؤلاء أشد خصوم إقامة الإمامة الصحيحة في الدولة التركية، وقد بثت جمعياتهم الدعوة في الأناضول مهد التركة الإسلامية، إلى العصية العمية بالأساليب التي لا يشعر الجمهور بالغرض منها، كان التركي هنالك إذا سئل عن جنسه قال: مسلم الحمد لله، وبذلك يمتاز عن الرومي والأرمني. وأما الآن فصار يجب بأنه تركي. وكان لا يفهم من وجوب الخدمة العسكرية إلا طاعة خليفته وسلطانة في الجهاد في سبيل الله، فبثت =

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

نعم إن كان ما رأى الله تعالى من دين الإسلام ومن جاهد في سبيل إعلائه ومن غش وخان عين ما رآه الشيخ، فلزمنا أن نحكم بتلك القضية المنفصلة التي بين طرفيها كما شاء.. ﴿وَلَوْ أَكْبَحَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وإن أسلم لعلماء مصر كل ما ذكروا في مقالاتهم المروجة لصنيع مصطفى كمال وكل ما ذكره صاحب الكتاب الصادر في أنقرة من الأحكام الفقهية والوقائع التاريخية المترتبة إلى صدر الإسلام، وإن السلطة حق الأمة إن شاعوا أعطوها لواحد معين أو جماعة معينة، وإن شاعوا أعطوها محامها أو بعضاً منها دون بعض، وأن السلطان محمد وحيد الدين لم يكن جامعاً لشرائط الإمامة^(١) وكذا الكثير من السلاطين يصح أن يتقلدها من يرأس جمهور المسلمين، حتى أن مصطفى كمال لو كان حائزاً لأول شروط الإمامة وهو التدين بدين الإسلام ولم يكن من أعدائه الذين يسعون في إلغائه تصبح إمامته وخلافته، وقد أخذت الأقلام التركية تتوجه إلى هذه الغاية كما يظهر من مطالعة الكتاب الأنقروى المنشأ المجهول

- فيه فكرة القتال في سبيل الترك ضد الترك. وقد اطلعت في هذه الأيام على قضية (قميص النار) للكاتبة الإسرائيلية النسب التركية السياسة والمذهب (عائلة أديب)، وهي يهودية وزير المعارف في حكومة أنقرة، وقد أنشأتها لبيان كنه الحركة الوطنية في الأناضول التي أنشئت لمقاومة سلطة الأستانة وإخراج اليونان من البلاد وتأمين استقلالها مصورة لما ذكرنا، لم نر فيها كلمة تدل فكرة الجهاد الإسلامي ولا الروح الدينية الذي كنا نعهده. (م.ص)

(١) وفعلاً اقترح عليه (رعوف) - وكان من أعوانه ورئيس الوزارة - ولقيف من رجال السياسة، تكوين حكومة واحدة يصبح فيها السلطان ملكاً دستورياً ويصير مصطفى كمال رئيساً لوزارة، لكنه أحفى نواياه الحقيقية عن عهده مقدمي الاقتراح، فلم يكن يرغب في أن يكون رئيساً لوزارة تخضع لسلطان دستوري، وإنما يرى أن تذهب السلطنة والخلافة وتنشأ جمهورية يستطيع في ظلها أن ينصب حاكماً مطلقاً على البلاد، وأرمسترونج، مصطفى كمال، ص ١٨٩-١٩٠: أما قوله (حتى إن مصطفى كمال لو كان حائزاً على أول شروط الإمامة وهو التدين بدين الإسلام ولم يكن من أعدائه... الخ)، فهو يشير إلى عرقه الدوغى اليهودى.

الأسرار البقية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

النسب. وإن شئت قلت مع مؤلف ذلك الكتاب: إن الخلافة يجب أن تحمل وأنها انقطعت منذ أعصار كثيرة، والخلفاء الذين نعرفهم كلهم خلفاء صوريون. فصارت النتيجة أن الخلافة لا حقيقة لها ولا أهمية، كأنها عرافة من الخرافات، ولا أدري ماذا يصير على هذا موقف عبد الحميد القريب العهد جداً بالمساعي المصروفة لتأييده. وما أنا أرخيت العنان لتسليم جميع ما ذكره هذا وهؤلاء وتصديقه، ولكني أقول لك أيها المخاطب المتبصر المتفكر: ما السبب الذي أفضى إلى تجريد الخلافة عن السلطة أولاً ثم إهمالها وإبطالها بالكلية، وأية حاجة مست إلى تلك الفعال الموجبة لأنواع القل والقال حتى سالت أودية بأعناق أهل السباق ذوي العلوم المستفيضة في أنحاء الفقه الأكبر والأصغر وتاريخ الإسلام؟ وجل أسفى على أن الباحثين سكارى، بعضهم يهوى أبطال الشرق، والأذن تعشق قبل العين أحياناً، بعضهم يسكر التعمق العلمى في مسألة مهمة دينية وسياسية وتاريخية، ولا يدري غير مؤلف الكتاب الأنقروى أصل هذا الشغل الشاغل على مثال ما قاله بعض العارفين لواحد ممن يتفانى في أوراد طريقته الصوفية: "شغلك الذكر عن المذكور"، فيا أيها الساترون في بحرى الكلام كأنكم سائرون في المنام، أهاكم التكاثر بما تعملون، فأين تذهبون، وقد سبق السيف العزل وتتقدم على الفتيا العمل؟ مع أني ألفت أنظار العناية في مقالاتي التي كتبتها على المقطم والأهرام قبل هذا بسنة إلى أصل هذا الشغل الشاغل ومنشئه السائق إليه، وسألت الباحثين الخائضين في أعماق التفحص لتوفيق الحادثة للشرع أو تطبيقها على مثال^(١) سبق في ماضى الإسلام، وقلت لهم أخيرونى أولاً أية حاجة أو مصلحة دينية أو قومية سافت مصطفى كمال إلى الفصل بين الخلافة

(١) حقاً إنها حادثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإسلام!

ويبدو الشيخ منطقياً في تقديمه الحجة تلو الأخرى في بطلان ما فعلوه كما هو ظاهر في السباق، لاسيما مطالبته التمييز بين الأشخاص والنظام، وتساؤله: (فأى حاجة بعد عزل الشخص إلى عزل الخلافة؟).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

والسلطة؟ أكان هذا غاية فتح أزمير أو مقدمة توقفت عليها هزيمة جيوش اليونان أو الغلبة على وفود مؤتمر (لوزان)؟ فما أجابني غير صدى ندائي. وألقت الأنظار فيها أيضاً إلى أن هذا الصنيع ليس عبارة عن الاعتداء على أشخاص الخلفاء لإزالة فسادهم على ما ادعوه، لأن فساد الأشخاص طريق إزالته بتبديل المصلحين بالقسدين، وقد عزل خليفة السوء (على زعمهم) وأقيم الخليفة المحمود شخصه، فأى حجة بعد عزل الشخص إلى عزل الخلافة عن منصب حكومتها واتخاذ الخليفة والخلافة ظهريين تركهما في الآستانة غير المصون محلها في العصمة التي تلزم في مقر الحكومة، كما قال العلامة السيد رشيد رضا، ولكن وحيداً في الاطلاع على طباع الحكومة التركية الحديثة والتنبيه على خططهم منذ سنين كيف لم ينتبه لحل هذه العقدة التي أبداها نفسه أو صفح عن تقريرهم به، وما أنا أقول: لا تلزم العصمة في مقر الخلافة والخليفة عندهم لأنهم ملتزمون إمامهما وإبطالهما، ولهذا كان عندي ما سأله السيد المشار إليه من إتياء الخلافة حقها ومنصبها المشروع، ومع أن ما أراده من حقها المشروع فوق ما انتزعوه منها هدر أو عبث لا يجوز صدور مثله عن مثله. وقد ذكر نفسه في كتابه أن المتفرجين الذين قسمهم إلى حزب قوى منظم في الترك وغير منظم في مصر وضعيف في مثل سوريا والعراق، أعداء الديانة والخلافة، وأن عداوتهم أشد من عداوة غير المسلمين. ولت شعري كيف خفي على فراسة الشيخ العلامة أن الذين مسكوا بزمام الحكومة التركية من حزب الاتحاديين والكماليين أولئك المتفرجون المنظمون الأقوياء الأشداء العداوة للديانة والخلافة، وفي رئاستهم الآن بطل الشرق بطل الأبطال مصطفى كمال وقد جرى على بطالته في خطة عداوته؟

وبعدما استتيت صاحب المنار فكل من كتب وأفنى في مسألة الخلافة من علماء مصر كان يخطئه في تطبيق الحادثة لما أسندت إليه في الدين أو التاريخ أشد من يخطئ عشواء، كان بطل الشرق شن بما على علومهم وعقولهم غارة شعواء،

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

والآيات والأحاديث التي اشتملت عليها مقالاتهم لتصير وبالاً عليهم لما حرقوا الكلم عن مواضعه واستعانوا به في ترويج المعصية، بل اللادينية، ولو من حيث لا يشعرون لكونه في محل لا يعذر فيه عدم الشعر، ولزوم إخراج الحكومة من رتبة الدين ونفوذه لتفريق الحكومة عن الخلافة لتفريق الدنيا عن الدين لزوم يبين لا يخلو عن معنى الالتزام. ولعمري أن المسألة كانت جلية^(١) بحيث لا تخفى لبساطتها على عامة المسلمين، لكن كثيراً من الذين جلسوا مواقع العلم ليسوا الأمر عليهم، وليحملن أنقاعهم وأنقاعاً مع أنقاعهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يعملون. ولو تفكروا لوجدوا لهم عبرة وعظة في لسان حال العلماء بالآستانة وهم في محل الحادثة حيث لم يزالوا ساكتين، ما شهد لمصطفى كمال في هذه المسألة أحد من المعروفين فيها بعلم الدين، خلا صاحب الكتاب الذي أعد له طريق الرجعة والبراءة عند الناس، وخلا شرذمة من جهلة المداهنين. وكنت في مقالتي المبحوث عنها مراراً دعوت على المصريين المصريين في مشايعة مصطفى كمال والمسرفين^(٢) في إحسان

(١) حرص المؤلف منذ البداية على المواجهة بأن ما فعله الكماليون مخالف للشرع الإسلامي، وهذا أمر بديهي غنى عن البحث والمناظرة، ولا يحتاج إلى إثبات، ولكنه عندما وجد التباساً عند الكثيرين، اضطر إلى الشرح والتوضيح كما نرى.

(٢) كان ميل المصريين لمصطفى كمال في البداية مستمداً من الرابطة الدينية التي ربطتهم بدولة الخلافة الإسلامية، فقد امتلأت قلوبهم حزناً لمصير الآستانة - دار الخلافة - وقد اقتسمها الإنجليز والفرنسيون والطيالان، ثم استيقظ الأمل في قلوبهم حينما علموا بثورة الأتراك في الأناضول على قوات الاحتلال، وتعلقت الآمال بأناتورك لقيادة التمرد في قتال يائس مع اليونان الذين انتشروا في قرى أزمير يدعرون كل ما يصل إلى أيديهم ولا يبرعون لشيء حرمة، وكان ابتهاج المصريين بانتصار الترك بقيادة مصطفى كمال إنما كان من وجهة نظر إسلامية خالصة. وعندما أعلن الجمهورية بعد ذلك واتخذ (أنقرة) عاصمة لها مكتبياً بإرسال ممثل لحكومة (أنقرة) الجمهورية لدى (الخليفة) في (الآستانة)، حينئذ تبين مذاهب الناس في هذا الانقلاب، ولكن كثرتهم أبدت مصطفى كمال ورجحت من ورائه الخير للمسلمين. وعندما فاجأهم بإلغاء الخلافة وظهرت حقيقة نواياه، تحول التأييد إلى هجوم عنيف، فقد أصبح =

الأسرار الخفية وراء إلفام الثلاثة العلمانية

الظن به وإسائه فيمن خالفه - كما أنهم كانوا كذلك في شأن رجال الاتحاديين - أن يسلط الله عليهم أو يحشرهم معه في الآخرة، ولو سألت الله في كتابي هذا أن يتليهم بمثل ما راق في نظرهم من حال بلادنا فيجعل مصرهم في عهد استقلاله وحرية مغرم ومغتم حزب أفرنجي الاعتقاد بلشفي الاستبداد، حزب الأحرار الدم والذهب، فيتغلب ويلعب بأموالهم وأنفسهم ودينهم ولسان دينهم وشعائهم وحريةهم واجتهادهم وانتخائهم، يقعد لم صراطهم المستقيم فينزع عنهم لباسهم ويذيقهم لباس الجوع والخوف، يغشهم في مصالحهم بأنواع المضار ويمكرهم مكر الليل والنهار، ولا يفكهم من نار الوغي إلى نار القرى، بل إلى نيران حريق تكسح المدن والقرى، حتى يجعل أوطانهم كالعن المنفوش عاليها سافلها ويجعل من لا يتبعهم كالفراش الميثوث كأن لم يغنوا فيها، ويجعل مع ذلك وزر جميع ما فعله عليهم، ويرمى كل طائفة بسلاحتها الخاص بها فيقرف أحفظ الناس لدينه بخيانة الدين وأعف الناس في معاملاته ببيع الوطن، والحال أن دين الشعب تحت قدمه ومن الوطن في جيبه، وجيب من قرف عليه كفؤاد أم موسى فارغاً من ثمن ما ملكت يده قديماً وغصبه القارف القاذف فضلاً عن ثمن المبيع، إلى آخر ما جرى في بلادنا وأجرى الدموع وفرق الجموع وما لم يسمع منه أكثر من المسموع، فلو سألت الله

- العالم الإسلامي للمرة الأولى - منذ وفاة الرسول ﷺ - بلا خلافة، فأخذ الذين ناصرُوا مصطفى كمال بالأمس وأحسنوا به الظن، يعتذرون عما سافوا إليه من مدح ويرعون من صنيعة، ويبالغون في ذمه، عندما تأكدوا من انحرافه.

ومن أحسن ما كُتب في تصوير هذا الانحراف - كما يرى الأستاذ محمد محمد حسين - مقال لمصطفى صادق الرافعي، نقبس منه سطوراً تصور وقع المأساة، قال: (وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية - بقصد قبل انكشاف حقيقته - هي بعينها ربا اللقافة اليهودية في عه - مشيراً إلى ما أشيع وقتذاك من أن فيه عرفاً يهودياً - تصلح بإقراض مائة وفيها نية الخراب بستين في المائة، فإنه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلبت اللقافة اليهودية رأس المال والربا^(١)).

(د. محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، جـ ٢، ص ٤١).

الأسرار الخفية وراء إلفام الخلفاء العثمانيّة

في المصريين مثل ذلك لكان المصاب ومن وقع عليه العذاب خيارهم الأبرياء على مقتضى قضية الماثلة، فلم يشغف دعائي من داء الاستياء ولم يكفى مجازاة المصريين جراء الافتراء (فإذا رميت يصيبين سهم). وإذا تلقينا (خاصة) في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وارداً على النفي، وجدنا في الآية الكريمة تصوير هذه الحالة المفجعة، وإن كان التبادر عكس ذلك أعني كون النفي وارداً على القيد.

ثم إن يغلب على الضحك عندما رأيت العلماء المصريين يكررون البحث عن استبداد الخلفاء وتغلبهم^(١) على الناس.. ويجهلون بذلك في إثبات الحق لمصطفى كمال فيما فعله من تغيير أمر الخلافة، مع أنه ما تغلب خليفة حق بعد المغفور له عبد الحميد، إنما وقع التغلب بعده على الخلفاء حتى عم هذا التغلب عبد الحميد أيضاً في منتهى خلافته. ولقد انضم إلى التغلب المتطاول على الخلفاء مفتريات تلبيهم وتستهن بهم، وشارك المفترين من تكلم في مسألة الخلافة من علماء مصر رجماً بالغيب في معصية الخلفاء وإيماناً بالغيب في طاعة المتغلبين الجدد مثل مصطفى كمال وأسلافه، وأولئك الخلفاء على علائهم وعطيتهم بالنسبة إلى هؤلاء الفجار من

(١) يصف الأستاذ أنور الجندي هذا الاتجاه السائد إلى الآن بقوله:

«لقد تأثرتنا في مصر والشرق في كتبنا المدرسية وأبحاثنا التاريخية بوجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية، وهي وجهة خاصة للغربيين، نتيجة للتوسع التركي العثماني في أوروبا، والمقاومة التي عرفتتها مناطق البلقان وغيرها في القرن التاسع عشر، وقد نقل الاستعمار البريطاني في مصر، والفرنسي في سوريا، وجهة النظر هذه إلى كتب التاريخ التي تدرس في مدارسنا وجامعاتنا، كما تأثر بها بعض مؤرخينا متابعين للنظرة الغربية، أو تحت تأثير الدعوات الإقليمية كالفرعونية والفينيقية. غير أن هذه النظرة تعمقت من بعد وبلغت أقصى غاياتها في تجاوز الحقيقة، على أثر ظهور الصحافة العربية التي حررها وأخرجها اللبنانيون المارون عريجو معاهد الإرساليات وأصحاب العداء الواضح للدولة العثمانية». (مقال، قضية الدولة العثمانية، مجلة الاعتصام، العدد العاشر، ربيع الآخر ١٣٩٤هـ/ مايو ١٩٧٤م).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

صلحاء الناس لا أقل من أن ينزلوا في عداد العصاة المؤمنين.

وماذا يحصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

ومن المضحكات قول الدكتور (حسين همت) الذي بحث عني وعن مصطفى كمال فيما كتبه على المقطم بالعدد الصادر في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٣م: "رجل خدم الدولة والدين وأنقذ الشرع الذي ظن مصطفى صبرى أنه محصور في شخص السلطان المخلوع وأتباعه، لأنه جهل أن العالم يسير خطوات واسعة نحو الديمقراطية الصحيحة.. إذا كان يجهل حقيقة الأحوال^(١) في العالم فليرجع إلى روسيا ويرى كيف ألقى القيصر إلى النار، وكيف نبذ الألمان الإمبراطور وكيف يهدد الأسباب ملكهم، وما ذاك إلا لأن هذه الأمم ملت بحكم الفرد المضر الاستبدادى الذى كان فيه هؤلاء القياصرة العظام يمثلون دور من يستمد سلطته من الإله". وأقول للرجل إن كنت رأيت بي جهلاً فهو مما عفت حثى غشت نفسى من علومكم الخولاء التى تزين لكم مثل ما جرى في الروسية البلشفية وتريكم الأشياء على غير ما هي عليه، وإذا سلب الله عقول أمة يظهر من بينهم أمثالكم ممن ينفرهم عن الذين يستمدون سلطتهم من الإله ويدعوهم إلى الذين يستمدون سلطتهم من الشيطان ثقة بالفاظ الكذابين الذين يعدون الديمقراطية ثم يفعلون بالناس ما لم يفعله الجبابرة الأولى، ولا يميز من المعنى الديمقراطية التى أتت خالصة من قبل الأمة من موهبة تقسرم عليها سيوف الجيش التى ليس من شأنها التدخل في السياسات. وبعد ذلك كله يغالى في

(١) أثبت المؤلف أنه - على العكس - يعلم حقيقة الأحوال في العالم آنذاك، فلم نخدعه الألفاظ الرنانة والدعائيات الكاذبة عن الديمقراطية أو حرية الشعوب والعمل بمقتضى إرادتها التى أعلنها الكماليون، حيث وقف بنفسه على أن هذه الديمقراطية تغفى وراءها أقصى صور الحكم المطلق، فهم - على حد قوله - يعدون بالديمقراطية ثم يفعلون بالناس ما لم يفعله الجبابرة الأولى؛ ويتخذون من الجيوش أداة للحكم بينما ليس من مهامها إدارة الشؤون السياسية. لقد سبق الشيخ مصطفى عصره بمثل هذا الرأي، وكأنه يضع يده على غلل بعض الأزمات السياسية المعاصرة في دول العالم الثالث.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

حماقته ويغبط الروسيين في الإدارة البلشفية التي هي أولى اثنتين من أعظم فتن الدنيا الحديثة. وثانيتها الفتنة الكمالية والاتحادية. وماذا أقول أنا فليجعل الله لمصرهم نصيباً من أحوال مغبوطيه. وقد كشفت عن ماهية الديمقراطية الكمالية في غير هذا الموضع من هذا الكتاب.

ومن المضحكات تصديق المصريين وثقتهم بصحة وحدية ما سنة الكماليون من قانون منع المسكرات.. ظانين أن ذلك وقع منهم لوجه الله أو لمصلحة الأمة وعادة من محاسنهم ومناقبهم، مع أنهم نكحوا أن يبيع الكحول من شاء من الناس ليكونوا هم البائعين فيختص ربحها بهم وهو عظيم جداً. وكثير ممن في تركيا يعلم اشتغال بعض أعضاء المجلس الوطني بهذه التجارة واتخاذ بيوتهم معامل المسكرات ومخازنها. وكذا يعلم كل من في تركيا أن مصطفى كمال أشهر مدمئ الخمر، لا يمر عليه وعلى أصحابه وأحبابه وماسطيه يوم وليلة بلا مسكر.^(١)

ومن المضحكات الأليمة واللثيمة ما كتبه بعض صحفهم يصور الجمهورية التركية بما هو آية وغاية من الغفلة والحماقة ولا يكاد يصدر مثله من غير المصريين، يقول:

"فاز أنصار التحدد في أنقرة، ونودي بالجمهورية التركية، فأصبح يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٣م علماً من الأعلام ويوماً من الأيام المشهورة في تاريخ الشرق والترك والإسلام، ففيه نودي بالجمهورية الشرقية المسلمة الأولى، وفيه أعيد الحكم شورياً ديمقراطياً كما بدأه الإسلام من قبل بعد انقضاء ألف وثلاثمائة سنة وسنة واحدة، فمحا يوم أنقرة يوم صفين، ونقض مصطفى كمال ما أسسه ابن أبي

(١) يقول أرمسترونج: (فقد عاودته آلام كليته وصارت تحتاجه بلا انقطاع فغالبها بالإفراط في الخمر)، ص ٢١١.

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

سفيان، فأعاد الأمر شورى بعد أن جعله ذلك عضواً^(١).

ولابد للإنسان في رؤية القلب التركي هذا الشكل أن يتلى بالعمى المصرى من حيث البصر والبصيرة، ونحن نتأدب ونستحي أن نوازن رئيس الجمهورية التركي بالخلفاء الراشدين.. وهو الذى ألغى الحكومة الإسلامية في تركيا، ولا نقول ذلك بالنظر إلى شكل الجمهورية ولا إلى شكل ما تقدمها، بل النظر إلى معنى الإسلام وروحه، فضلاً عن الجمهورية الإسلامية في عصرها الذهبي فإن هذه الجمهورية لا تعدل الجمهورية الأفريقية في جدتها وإخلاصها وابتنائها على آراء شعوبها، ثم إننا نستحي أيضاً أن نعدل رئيس الجمهور التركي بأدى قلامة ظفر لابن أبي سفيان، لا في الروية ولا في العدالة، ولا في الاحترام بكرامة الأمة وحريتها، مع كون هذا رئيس الحكومة الجمهورية الديمقراطية في الكلام، وكون ذلك رئيس الحكومة المطلقة وصاحب الملك العضوض، وهو الذى أوصى عند موته أن يوضع في عينيه من قلامة أظفار النبي ﷺ التى كان يدخرها ويدفن معها، وهذا الرئيس لو وقع في يده رسول الله ﷺ حياً لم بأن يقتلع أظفاره!!

وقد أتبع هذه العماية المصرية أمير شعرائهم شوقي بك حيث قال في قصيدته التى عنوانها بقوله "الاستانة تعزل وأنقرة تكلل":

(١) يذكرنا هذا الإعلان بالحملات الإعلامية الطنانة، المخشوة بالكاذيب والأغلاط لتخفى وراءها الحقائق، ومجهد لقرارات مصيرية ضد الشعوب ومصالحها وعقائدها، ويكفى قراءة تعليق الشيخ مصطفى عليها ليتضح لنا تعدد التزوير التاريخي وتشويه الحقائق والتمسح بالإسلام وأجماعه لإسقاء حقيقة النوايا المعادية للإسلام نفسه، وقد تجرأت أتاتورك على ما لم يجز عليه حاكم قبله أو حتى مجرد التفكير فيه، إذ يروى لنا الأستاذ مصطفى السعدني أنه - عندما كان قنصلاً في استانبول عام ١٩٥٢م - علم أن مصطفى كمال كان يفكر حديثاً في أن يلغى الدين الإسلامى وأن يجعل الديانة المسيحية ديانة الدولة التركية، ولكن بعض أعماله حذروه من مغبة ذلك الإجراء الخطير!! (مصطفى السعدني: الفكر الصهيوني والسياسة اليهودية، ص ٢١٦-٢١٧، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، يناير ١٩٧١م).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

إن الذين توارثوك على المسوى بعد ابن هند طالما كذبوك^(١)

والخطاب للخلافة، فكان الخلفاء صدقوا الخلافة في نصف نصف عصر من ثلاثة عشر عصراً ونصف عصر، ثم كذبوها في مدة تبلغ أضعاف ما صدقوها فيه بخمسين، حتى جاء مصطفى كمال فصدّقها مرة ثانية. فإذا ما يعبر عنه تاريخ الإسلام، فاثنتان من مائة جزء منه صادقان، وثمانية وتسعون منه مملوءة بالكذب، ثم استؤنف الصديق مصطفى كمال، وهو الذي ألغى الخلافة حيث أخلاها عن العمل لكلا يحتلظ الدين بالدنيا ولا يكون له سلطة عليها. ولت شعري أن الحديث النبوي الذي أشار إلى تغير صفة الخلافة بعد ثلاثين سنة، لماذا ترك الإشارة إلى هذا الاستئناف بعد ثلثمائة سنين. وعندنا إن كان بعد الثلاثين بدأ الملك العضوض فعهد مصطفى كمال مبدأ الملك العقور.

ومضحكات المصريين المناقضة لحقائق الوقائع كثيرة لا تحصى...^(٢) حتى لم يخل

(١) وذلك عندما كان شوقي محدوعاً كغيره من المسلمين - كما بينا آنفاً - حيث كان يظن أنه يتنصر للإسلام، وذلك في مثل قوله:

الله أكبر في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
فلما ظهرت الحقيقة، بكى الخلافة كما فعل المسلمون، وقال في قصيدته التي مطلعها:
عادت أغاني العرس رجع نواح وتعت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تلج الإصباح
ضجعت عليك مآذن ومناير وبكت عليك ممالك ونواح
الهند واهة ومصر حزينة تبكى عليك مدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أنما من الأرض الخلافة ماح

(د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، و(فتحى رضوان: مصطفى كمال، ص ٢٤٦)، و(اقرأ)، العدد ٣٩٠، ١٩٧٤م، دار المعارف).

(٢) ومن العجائب أن هذه المضحكات تقع من المصريين عن غيرة وحمية ووفاء منهم للأتراك، بناءً على كونهم دولة الخلافة، لكن تلك الحمية الجاهلية جاهلية بتمام معنى لفظة الجاهلية، ألا تراهم-

- يؤيدونهم حتى في إلغاء دولة الخلافة وقلبها إلى الدولة اللاتينية. ثم إنهم على حفظ العهد والوفاء للترك ماذا يريدون بالترك، هل هو من يتكلم بالإضافة إلى الترك ويجيد في صناعة الدعاية إلى اسمه وإن كانت تلك الدعاية لنفس الداعي ونفس الداعي بالنسبة إلى الترك والإسلام، أو كان متغلباً على الأتراك لا بالتغلب المعتاد للتغلب، بل بالتغلب الذي يثير الفتنة على دينهم وأموالهم وأنفسهم، ويكون أعظم مضاره وأدومها عليها من بين الأقوام الذين مازجهم وعابثوهم لا مكان قطع علاقة السائرين عن المتغلبين بصورة ما، وهذا نجد الأتراك أفقر وأخسر من الشعوب التي افترق منهم في نتيجة سن الحروب مع كون تلك الشعوب في الأكثر على التفرغ التي جرت الحرب بساحتها. وتغلب الأدعياء على الأحقاء والتباسهم بهم صار آفة على الترك أي آفة، فمن سخط من جنابيات الأدعياء يلعن الترك على الإطلاق، فلما يتحمل كلفة التمييز بين الجناة وأشدادهم أو يصب في تمييزه، ومن دام على غيرة الترك وعيته يجعل غيرته وفقاً على الأدعياء وعوناً لهم في كل فعلهم ولو كان قعاضهم ولاءً للترك نفسه.

وقد رأيت مقالة في جريدة (الرأي العام) البيروتية الغراء لصاحبها الفاضل وتبعه صاحب جريدة (الشرق) الغراء في معاتبة أبناء العرب الذين لا ينتهون عن محبة الأتراك بعدما ازوروا عن الجامعة الإسلامية وعوضوا بها الجامعة الطورانية حتى احتهدوا في إقامة أحكامها وشعارها مقام الأحكام الإسلامية وشعارها، لكن أعيد هاتين الجريدتين وصاحبيهما الفاضلين أن يقعا في الغلط ويأخذ الأمة التركية المريعة المسكينة بذنوب الاتعادين والكماليين، وحسبها ما قاسته منهم ولا تزال تقاسيه من أنواع المصائب والدواهي القاضية على دينهم وديارهم. فارحاً مصالهم الذي ما أصيبت بحتله أمه من الأمم ولا تحبوا الملح على حرائلهم، فإن أنقذها الله وفيها حشاشة نفس بقيت قبل أن أجهزوا عليها فتحدثنا على العهد القديم من محبة إخوانها المسلمين ما خاتته وما نكتته وهي تلحن الخائنين والتاكثين قبل ما تلحنان وفوق ما تلحنان، وما أنا واحد من تلك الأمة ومثال حي: جاهدكم قبلكم وجاهدت من يتعصب هم من إخوانكم بالعصية العمياء قبلكم حتى انتفضي واحد منهم في جريدته بأن أريد التقرب إلى غير جنسي، فأنتم تلومان الأتراك على صدورهم واجتثاثهم وهو يلومين على افتراق، مع أنه هو الذي أراد أن يقترب إلى غير جنسه وملته إن كان هو مسلماً، لأن الذين تعصب هم رفضوا الإسلام منذ زمان.

وأما أنا فلا أفهم من دعاوى الجنسية شيئاً يرتاح له قلبي ويلتذ به في أية جنسية كانت، وما هاجرت جنسي وما صرمت قومي الأتراك المسلمين وإنما صرمت ففة بغت عليهم وعلى الخلافة الإسلامية وأحيت اللادينية على الإيمان والجنسية في الإسلام، فإن فعلت العرب كذلك وفضلت جنسيتها على إسلامها فسأصرمهم أيضاً.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلق العلمانية

ثم إن رأس الخطأ الذي يسوق اليوم بعض إخواننا العرب (*) إلى قلى الترك بآمتها ورمتها غلظهم في هوى الترك قبل قلاها، لأنهم أحبوا الاتحاديين والكماليين، على ظنهم أمة الترك، وعززوهم بنية الأمة حين أبطروهم وأبصروهم يكفرون بنعمة الإسلام، وهذا الذي يروونه منهم من الإساءة جزاء ذلك الغلط أعين غلظهم في موضع الحق. ثم إن أعينهم بالله من الغلط مرة ثانية في موضع السخط، وألا يلوم التباس الحق بالباطل فينتجى على المظلوم بجنابة الظالم. وليس من العدل ولا مقتضى العقل أن تحب الحكومة الاتحادية أو الكمالية التي تضيق على الأمة التركية وتحنقها وتعد تلك الحقبة الممنوحة للذين هم المصيبة الموقفة المسببة على أمة الترك عمة الترك، ثم يسخط على الترك بما فعله المسلطون على الترك فعالمهم على الترك، والأمة، كما أنها مظلومة في حالة السخط، فهي ما انتفعت من حالة الحقبة، بل أصيبت بها أيضاً من حيث إنها عززت الداهية الاتحادية والكمالية وسلطتها عليهم. والذي أريد أن أبينه هنا ولا تسعفين مقدرتي في اللغة العربية كما أردت فما ينبغي لإخواننا المسلمين الذين لهم آصرة على الترك فئمة يعز عليهم انصرامها أن يشغلوا به جانباً خطيراً من الدقة والاهتمام.

عديري من لسان أعجمي يضيق معرباً عن رجب نحى
وقد أنطلقت حين إذا ما تنهى طلوله أنطلقت قلى

(م.ص)

(*) وتلاحظ أنه يدعو إخوانه العرب للتمييز بين الشعب التركي المسلم الحرص على إسلامه وبين الاتحاديين والكماليين، فإن هذا الشعب يعان - مع إخوانه العرب - من أنواع المصائب والدواهي القاضية على دينه ودنياه، ويدئ دهنه - وهو حق - لأنه عندما جاهدتهم أقم بأنه يريد التقرب إلى غير جنسه، فلا ينبغي إذن على العرب أن يتخلطوا بين الشعب التركي وحكامه الجدد. وعندما ثار العرب على الحكم التركي - بسبب هؤلاء الطغاة - ابتلوا بالمستعمرين من الأوروبيين اليهود. وعلى سبيل المثال: نقبس هنا بضعة أسطر من رسالة وجهها الوفد السوري في جنيف إلى ممثل فرنسا التي استعمرت سوريا واستولت عليها عقب انحلال الخلافة - والرسالة موزعة في 3 نوفمبر سنة ١٩٢٦م قال فيها:

"لقد مضى ثمانية عشر شهراً والحرب مشتتة نواتها في سوريا وبلاغات حكومتها الرسمية تذكر بالمهاجرة عساسة النافرين، وقد بلغت ١٦ ألفاً (سنة عشر ألفاً) حين الآن - ماعدا النساء والأولاد!! فإن هذه البلاغات تتجاوز الإلماع عنها بالطبع.. لقد دمرت نحو خمسمائة قرية، وأصبح قسم من مدينة دمشق عراباً!! وباتت سوريا في حالة شقاء لا توصف!! -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

منها السيد رشيد رضا أيضاً مع سعة اطلاعه ودقة فهمه، حيث قال: "إن الحكومة الحاضرة التركية ألغت السلطة الشخصية بتمامها"، قاله حين يئن الأتراك تحت قهر السلطة الشخصية الكمالية.

وبين تلك المضحكات كلمة تدمع منها عين الإنصاف.. وقد أكثروا التفوه بها عند ذكر السلطان وحيد الدين، وهي كلمة الباحثة عن قراره من الآستانة والتجائه إلى حماية الإنجليز، كلمة اتفقت فيهم ألسنتهم ينتقصونه بما ملء أفواههم، فهل كانوا يودون أن لا يبرح الآستانة.

ويصاب بما يصاب به المرحوم على كمال بك، وكيف كانوا يفعلون لو وقعوا موقعه وأيقنوا التهلكة، فاحكموا بالعدل والإنصاف ولا تحرموا عليه ما أحل الله لعباده، ولا يجرمنكم شتان الإنجليز على أن لا تعدلوا في الحكم على الخليفة وحيد الدين وأنتم علماء الدين أمناء الله في أرضه، مع أن المرفور منه وهي الشركة المستبدة المستولية على بلاد الأتراك المؤلفة أعضاؤه النافذة من المتفرجين أشد حقداً وأسوأ نية وقصداً في الإسلام والمسلمين من المتحجج إليه، لا تعلموهم نحن تعلمهم. وأنتم مسئولون عند الله ومناقشون في الحساب يوم القيامة أشد المناقشة مما حدثت في بلادنا منذ سنين من الأحوال المدهشة والألاعيب المرتبة لقيض روح الإسلام في مجاه، وكنتم أنتم عوناً للمعتدين القابضين في كل ملمة توقع عليه مغطاة بالمرج والمرج، ولما أنكم سماعون للكذب ونظارون في الأشياء بالعيون غير الصحيحة لا

- (أوجين بونغ: الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية، ص ٨٣، مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بحصر سنة ١٩٢٨ م).

والخطاب كما يرى القارئ الكريم - يتحدث بنفسه ولا يحتاج إلى تعليق. فقط نود أن نسترعى انتباه الباحثين إلى طرف من المآسى التي أحدثت ببلاد المسلمين - وما فلسطين منا بعيد - لكي يقارنوا بين الحكم العثماني - حتى في أسوأ حالاته في عصوره الأخيرة - وبين الاستعمار الغربي الذي لا يعلم إلا الله تعالى من الخلاص من آثار الاستعمار العسكري - الثقافية والسياسية والاقتصادية - التي مازلتنا تحفل بذكرى أعياد التخلص منه!!

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العلمانية

تزالون توجهون في المعارك السياسية المستحدثة بين الأتراك سهاكم المسمومة بالشتماء الشنعاء إلى من تروهم ضعفاء من الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعيدوها متظاهرين عليهم بالإثم والعدوان، وتصطفون مع الذين يؤمنون بالحيث والطاغوت... ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّوْا هَهُنَّ مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيْلًا﴾ [النساء: ٥١]، والله ربنا هو أعلم من جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، ولعل الالتحاق بمن غلب خلة طُبعت عليها مصر وكان فيها من قبل قد قيل للناس هل أنتم مجتمعون... ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَكْثَرُ لَبِيْلِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

فإن كان كبرت عليكم معاتبي وألفيتموها شديدة، بل سيئة، فاعذرونا فإننا قد أصبنا منكم ومن أوليائكم من الأتراك الاتحاديين والكماليين ظلماً وهضماً، وأنه لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم. وإنا رأيناكم أجراً الناس على الفتيا حسب ما يقضى الهوى في القضايا، فلم نحاجون فيما ليس لكم به علم ونجادلون في الحق بعدما تبين، ألم يكفكم في رؤية الحق والحقيقة مسألة الخلافة الحديثة حتى تحريتم لها مساعاً في شرع الإسلام ومثالاً في تاريخه، ولن تجدوا حتى تقوم الساعة مساعاً ومثالاً في الإسلام لتجريد الحكومة عن الخلافة لتجريدها عن الدين، وبعبارة صريحة نطق بها مندوبهم في مؤتمر (لوزان): لتكون حكومة لا دينية. فكيف تشهدون لأناس شاهدين على أنفسهم بالكفر، تؤولون وتقرّبون إلى الذين أفعال الذين يريدون التباعد منه، ما هذا بخدمة لهم ولا للدين... ﴿هَتَّائِشْ هَتُّوْا هَهُنَّ جَبْدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجْبَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

اختلاط الرجال بالنساء:

والم يكفكم بعد مسألة الخلافة ما قد أفنى مصطفى كمال لنفسه ولحكومته في مسألة اختلاط النساء بالرجال^(١) ومقابلتهن بمن يلقين من الرجال بزيهن أو زيهن. والله در السيد رشيد رضا حيث قال في أثناء بحثه عنه: (وقد صرح في مسألة النساء وما سيكون عليه في الأمة التركية الجديدة ما لا يرضاه كله رجال الدين والمتدينون). وقد أمرت حكومته بإزالة الحواجز الفاصلة بين مقاعد الرجال والنساء في الترامات والسفن ومسائر المراكب والسينمات والتياتر، فأزيلت، فاستاء الناس منه وسأل عنه بعض النواب فتهمكهم وزير الداخلية في الجواب قائلاً إن الحكومة لاحظت في رفع الستائر فائدة صحية. وكتبت جريدة (أقشام) مقالة بتوقيع فالخ رفقي بك كاتب تلك الجريدة وأحد النواب ذوى الشأن في مجلس أنقرة يدافع عن الحكومة قائلاً إن الجمهورية التركية ليست بجمهورية إسلامية، وهذه الواقعة محكية أيضاً في جريدة (البرق) البيروتية الصادرة في ٢٥ ك ٢ سنة ١٩٢٤م.

ثم ألم يكفكم مشروعههم الناهي عن تعدد الأزواج.. وقد أحله الله في كتابه على مثنى وثلاث ورباع^(٢) ومشروعههم الناهي عن زواج أبناء وبنات سنين أقل

(١) أحر مصطفى كمال نساء أنقرة على نبد الحجاب، وخرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثياب الرجال، وتعرض نساء أنقرة على المطالبة بمساوئق بالجلس الآخر. (أرمسترونج: الذلب الأغر، ص ٢٠٦).

(٢) وقد راجعت جريدة (الوطن) التركية العودنية في هذه المسألة إلى الآراء والأصوات، فهي تستمر وتوالت في نشر مقالات بتوقيع رجال ونساء من أهل الأستانة منددين على تعدد الأزواج وتناعيه بالنعوت القبيحة. ولقيت واحداً ممن يعد نفسه من كبار علماء العرب وفقهاتهم يصدقهم في هذه المسألة وبعد تعدد الأزواج عيباً على المسلمين ويستدل على مذهبه بشرط العدالة التي قيده الله بها في القرآن ثم يحكم بامتناع تحقق ذلك الشرط بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجْعَلُوهَا نَفْسًا لَّنْ كُنَّ﴾ وعندي أن في تعيب ما شرعه الله خطراً عظيماً، واستدلاله بالأية الكريمة في غاية =

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

من سبع عشرة أو ثمان عشرة حتى اقتفت حكومتكم المصرية أثر هذه السنة السيئة التي تتضمن سوق الشيبية عند التوفان إلى السفاح، وكانت شريعتنا الحنيفية تجعل النكاح المسنون في أصله فرضاً عند ذلك.

فكرة القومية:

ثم ألم يكفكم ما نُشر في الأهرام ليوم ٨ ديسمبر ١٩٢٣م، بقلم كاتب مصري على الوجه الآتي نصه: "إن في أنقرة بضعة رجال تشيعوا بفكرة القومية^(١) على وجه قل من يعرف كنهه في العالم الإسلامي، فإن يوسف أقشورا بك مثلاً ما يرح قبل إعلان الدستور العثمان بسنين ينشر دعوته بين رجال تركيا الفتاة إلى نبذ

- السحافة، لأنه يؤدي إلى القول بأن الله تعالى أبطل ما شرعه من نكاح ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع وجعله عبثاً ولفواً وأن رسول الله ﷺ وأصحابه وكل من جمع بين الأزواج من علماء الإسلام غلطوا في فهم معنى القرآن الكريم وحقق عليهم امتناع رعاية العدالة المشروط بها جواز الجمع. ثم أن قد وفيت بمول الله تدقيق هذه المسألة في كتابي الذي سميته (ديني بمعدل) - محدودوا الدين - الذي صادرت الحكومة الكمالية نسخته المطبوعة، وفي ذلك الكتاب الجواب عن شبهة الأستاذ المار ذكره وعن شبه غيره.

(١) تستمد القومية الطورانية أساسها الفلسفي من أفكار ضياء آلب (مولده ١٨٧٥م أو ١٨٧٦م ووفاته ١٩٢٤م)، حيث اعتبرها كأساس دول عالمي، ورأى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية، وقد دعا بكل قوة إلى سلخ تركيا من ماضيها الفريب، وتكوينها تكويناً غربياً قومياً خالصاً، وإثارة الحضارة الغربية على أسس لها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك في تكوينها وحراستها، فهو يرى أن هناك عصرًا طورانياً قبل العصور القديمة لأن سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجداداً للأتراك ثم رقى الأتراك المسلمون هذه الحضارة ونقلوها إلى الأوربيين.

(أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص ٤٧).

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

الجامعة الإسلامية^(١) وإضمار العدوان والأخذ بفكرة الجامعة الطورانية المبنية على التأليف بين الناطقين باللهجات التركية أولاً ثم تكوين اتحاد حلفى منهم ومن الأمم التي أصلها طوراني مثل المجر (هنغاريا) والبلغار وفنلندا. فهو يرى الاتفاق مع هؤلاء طبيعياً ومفيداً أكثر من فكرة الجامعة الإسلامية. وهذا الرجل وأمثاله يعتقدون أن الدين الإسلامي هو عبارة عن احتلال عربي بسط سلطانه على الترك ودخل بيوتهم وجعل لنفسه سيادة على نفوسهم، ومن الواجب الخلاص منه بأي حال. ويقولون إن الموضوع وسائر القواعد الإسلامية وضعت لأهم تسكن البلاد الحارة والمعتدلة. أما الترك وأمثالهم من أبناء الأمم الباردة فلا تلائمهم هذه القواعد".

هؤلاء الرجال ليس لهم كل السلطة في أنقرة اليوم، ولكنهم من رجالها المحترمين فيها على كل حال. وبالرغم من أن الداعين إلى الجامعة الطورانية كثيرون فإن الذين يضمرون العداوة منهم للإسلام أقلية. غير أننا نقول بكل أسف إن هؤلاء لم يكونوا موجودين من قبل، فصاروا الآن موجودين وأن عددهم على ازدياد ولهم تأثير لا يمكن إنكاره. وإذا كان هذا التأثير ليس هو كل شيء في تركيا، فإنه إذا لم يقاوم وإذا لم يقف عند حد سيكون له شأن غير شأنه الآن، فهم يعتبرون الدين مظهراً من

(١) والآن، بعد ظهور الحقائق التي كشفت عنها بروتوكولات حكماء صهيون (ولم يكن الشيخ مصطفى في الغالب قد اطلع عليها)، لا يدهشنا نبذ رجال تركيا الفتاة للجامعة الإسلامية وإحلال الجامعة الطورانية محلها، إذ ينص البروتوكول الخامس على ما يلي: (وقد خلقنا الحزبات بين المصالح الشخصية والقومية للأغيار - أي غير اليهود - عن طريق استتارة العداوات الدينية والعنصرية التي غذيناها في قلوبهم مدة عشرين قرناً).

ومهما كانت حقيقة هذه التعاليم - كما يقول هنري فورد - فإنها تتفق مع ما هو واقع الآن! ولذا فإننا نضع أمام القارئ دليلاً جديداً على دور اليهود في القضاء على الخلافة بواسطة نفوذهم طيلة القرن التاسع عشر إلى أن وضع في ثورة تركيا الفتاة في القسطنطينية.

(هنري فورد: اليهودي العالمي، ص ٧٢).

(منشورات المكتب التجاري، بيروت، تعريب حماد، ١٩٦٢م).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

مظاهر القومية العربية ومفخرة من مفاخرها، ورجال الإسلام^(١) هم أجداد الأمة العربية، أما الترك فهم - في نظر هؤلاء - لا علاقة لهم بكل ذلك، وخير لهم أن يحموا ذكرى عقائد الجاهلية التركية كالثون التركي القديم (يوزقورت): (الذئب الأبيض)، ولهذا الثون أناشيد يترنمون بها، وهو مصور على بعض طوابع بواسطة حكومة أنقرة".

"قلنا إن هؤلاء ليسوا كل رجال أنقرة، وإذا كان في أنقرة عدد كبير غيرهم من دعاة القومية فإنهم لا يشتركون في الفكرة القومية نفسها إلا في مقاومة الإسلام".

"ثم إن في مقابل هؤلاء وأولئك فئة تقول بالجامعة الإسلامية، ليس من الوجهة السياسية، بل من الوجهة الاجتماعية، وهؤلاء من دأبهم مقاومة يوشف آقشورا بك

(١) أعضاء الإسلام قلوب الأتراك فيمن أعضاء من قلوب الأمم، واشترك التركي مع العربي جنباً إلى جنب دفاعاً عن العقيدة، وقام الأتراك بدور مجيد في حمل رسالة الإسلام والدفاع عنه طيلة نحو ستة قرون بشهادة المؤرخين المنصفين.

ولكن لما لعبت الأيدي الخفية من وراء الستار، وأثارت الفلافل مستغلة بعض انحرافات الولاة وتعسفهم وأخطائهم التي لا يحلو منها قط أي نظام للحكم - حينئذ ظهرت تيارات سياسية مختلفة بين صفوف العرب، يصنفها الدكتور محمد بدیع شريف كالآتي:

- رأى يعتنق فكرة إيجاد خلافة عربية تقوم مقام الخلافة التركية، ويمثله عبد الرحمن الكواكبي.
- ورأى يقول بإبقاء الخلافة في آل عثمان ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة، ويمثله جمال الدين الأفغان.

- ورأى متطرف يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك.

- وآخر يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية.

ويتبين من هذه الآراء جميعاً حرصها على نظام الخلافة الإسلامية.

أما الرأي الذي لعبت فيه الدسائس الأجنبية فهو القائل بوضع البلاد العربية تحت حماية دولة أجنبية، وقد مهدت لهذا الرأي دولتا فرنسا وبريطانيا. ولا نشك في عمالة من دعا إلى ذلك! (د. محمد بدیع شريف، الصراع بين الموالى والعرب، ص ١٧٧-٢٠٤).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وضيا كوك ألب بك وجلال نوري بك وأغا أوغلي أحمد بك، وحمد الله صبحي بك وغيرهم، من دعاة الطورانية ، ويبينون مقاصدهم ويحذرون الأمة من خططلهم التي لا نهاية لها".

"أما عامة الشعب التركي ولاسيما في الأناضول فإنه متدين بلاشك ولا يوافق على أى تغيير فيما ألفه من الشئون الإسلامية. غير أن رأيه هذا قاصر عليه فلا يصل إلى منصات الأحكام ومواد القوانين وخطط الحكومة".

ولا أزيد شيئاً على هذه المقالة وهي تعبر عن الغاية التي تقاد إليها تركيا بتقليها المتوالي، غير أن الكتاب المصيرين كأن عليهم ميمناً أن لا يتكلمون بتمام الحقيقة، ولهذا فات هذا الكاتب الصادق الخيرة أن ييوح بأن خطة يوسف أقشورا وأغا أوغلي أحمد وضيا كوك ألب^(١) وحمد الله صبحي وجلال نوري وأمثالهم من المتطرفين إنما هي خطة مصطنقة كمال نفسه، وهو الذي يحميمهم ويشجعهم ويجعلهم نواباً لبلاد لا يعرفهم أهلها ولا يرضون مبادئهم وليس من حدهم أن

(١) ينظر تعليقا، ص ١٨٥ من هذا الكتاب. مع العلم بأن هؤلاء جميعاً يعبرون عن الاتجاه القومي المتطرف، أى (نظرية القومية التركية الطورانية) وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية، إلا إذا كانت عادمة لتنفيذ القومية الطورانية، حتى قالوا: نحن أتراك، فكعبتنا طوران. وهم يتفنون بمدح جنكيزخان ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم. ويقابلهم المعتدلون أصحاب نظرية (القومية العثمانية الإسلامية)، ويميل إليها الفئة الكبرى من العلماء، وينفى بعضهم وجود أدنى صلة بين الترك العثمانيين والمغول، ويصفون أعمال جنكيزخان وهولاكو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخا العرب والفرس والإفرنج، حتى قال أحدهما وهو طاهرى المولوى: ليس للترك أن يفتخروا بمثل هؤلاء المفسدين في الأرض العائين المدمرين الذين كانوا علة الخطاط الشرق عن الغرب، وأعظم بلاء وقع على الإنسان، وإذا أراد الأتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة حسابهم فليراجعوا تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى والدولة العثمانية. وقال جلال نوري صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة: الترك العثمانيون هم مسلمون أولاً ترك ثانياً.

(شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامى، جـ ١، ص ١٥٧-١٥٨).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

يجاهروا بدعوة مسلمى الأناضول إلى الانفكاك عن الجامعة الإسلامية لو لم تتفق دعوتهم تلك ومرضاة مصطفى كمال، ولم يكن من ورائهم هو وحيشه، ولهذا يظفر المتطرفون في كل قضية بمعارضيتهم وأن معارضيتهم مخذولون وممنوعون من التشكيل والانتظام في شكل حزب. فلو كانت الفكرة الطورانية الجاهلية عبارة عن مجرد أفكار من عدة الكاتب المصرى مثل يوسف آقشورا وزملائه لما علا الذئب الأبيض الذى حكاها على بعض طوابع بوسطة الحكومة.^(١)

ثم ألم يكفكم ما اشتمل عليه برنامج حزب الخلق المحيط بجميع أعضاء المجلس الوطنى الجديد (وهو حزب مصطفى كمال، واسم الخلق من الأسماء المختلفة) من أن يحط بهم إزالة التقاليد القديمة ووضع القوانين بالحرية التامة. وقد انتقدت على ذلك البرنامج جريدة (توحيد أفكار) المنتمية إلى الصيغة الإسلامية وأضافت إليه اعتزال رعوف بك عن رئاسة الوزارة وهو على تعريف تلك الجريدة ممن يبالى الفكرة الدينية ويتقيد بها. وسلام على قوم يتعهد بالواجب دفاعهم عن دينهم جريدة (توحيد أفكار) وتأتى ما فعله طائشهم حمية رعوف بك الدينية وأمثاله.

(١) وفي جريدة (البلى) الصادرة في ١٢ كانون الثانى ١٣٤٠ مقالة اعتمدت الجريدة بشأنها، وهي توصي بتوسيم الراية التركية بصورة هذا الذئب وتفضله على نسر الألمان وفيها انتقاد، وتأسف على ما عوده الأتراك منذ أعصار من إقامة أسماء العرب كعثمان وعمر وفاطمة وعائشة مقام أسمائهم التركية كتيغور وجنكيز وآلب ويكوكم وإيلخان، مثل هذه الكلمات لا تروج قطعاً، بل لا تجد مساعداً لنشرها بين الأتراك المسلمين الذين يغدون عمداً وعمر وعثمان وفاطمة وعائشة بأنفسهم فضلاً عن تيمور وجنكيز وما أشبهما. وقد استقصيت البحث والتدبير على فكرة القومية وعلى تأليفها بالفكرة المدنية والحكمية، فضلاً عن تأليفها بالفكرة الإسلامية في كتابى المسمى (دين يهدلر) - يهدد الدين - وكان مسلمو الأناضول - والآن كما كانوا - لا يبلغ قوم مبلغهم في إقناء عواطفهم الجنسية تحت العواطف الإسلامية. وهذه العقيدة المكتسبة المتوارثة هم من آباءهم المسامين صارت خاصة جنسية وملكية راسخة فيهم. فإن صح ما ذكره في أصولهم الأقدمين فهم نسوة وأما نوه في الجنسية التى تأسست بعد الإسلام، والمحددون المرتجعون يكلفونهم بإحياء ما مات وإماتة ما حى فيهم، وإنشاء تخلق لهم ضد خلقهم ورغمهم.

إلغاء المحاكم الشرعية:

ثم ألم يكفكم ما كتبه (أحمد أغايف) وهو أكبر كتاب الجمهورية الأنقروية^(١) وسياسيها من مقال في جريدة (أقسام) يندد فيها بالقرآن والتعاليم الإسلامية ويعتبرها من التعاليم التي لم يعد يمكن تطبيقها في سنة ١٩٢٤م، على ما نقله صاحب الجريدة (الرأي العام) القراء في عددها ٣٤٤٢، ثم قال: "وقد بلغ - يعني أحمد أغايف - من استنقاله للتعاليم الإسلامية أن هزأ وسخر وتحكم في مقاله كثيراً مما لا يمكن أن يؤمل صدوره من رجل مثله، كان بالأمس يعلم في الكلية الكبرى بالآستانة دروس فلسفة الدين الإسلامي، فلا تعرف كيف نسي ما كان يقوله بالأمس عن هذا الدين الخفيف وفضائله؟ وإن لا أعرف منه في زمن الاتحاديين أيضاً إلا الخدمة لمبدئه ومدتهم اللادين، وإن لم يكن جاهرأ به في هذه الدرجة، لأجل ما عرفه مصطفى كمال بمبدئه هذا ومسعاة قربه منه وأعطاه في حكومته

(١) عندما بدأت تظهر نوايا الكماليين في عدائهم للإسلام، وذاع في كل مكان أن حكاهم أنقرة الجدد كفرة ملاعين، فصار الوعاظ ينددون هم في المساجد والأسواق، وخاصة بزعمهم مصطفى كمال ووزعت النشرات والصور الكاريكاتورية التي تخاطبه أشد الهجوم، واشتت المعارضون حول الخليفة (عبد الحميد) في القسطنطينية ينشدون الأمان في حماه، إذ لم يجل مخاطرتهم أن الغازي يجرؤ بسوءاً على أن يمس الخليفة بسوء. وعندما أدرك مصطفى كمال خطر الحركة الإسلامية ضده في القسطنطينية - حيث أكثرية الشعب تكرهه - حينئذ عجل باستخدام العنف وتقدم بمرسوم بإلغاء الخلافة وطرده لثقلية وفصل الدين عن الدولة.

(محمد جلال كشك، حوار في أنقرة، ص ٢٠٦ وما بعدها، ط. المختار الإسلامي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

ويسرى الأستاذ جلال كشك أن الخلافة العثمانية كانت الحاجز القانوني الذي أحر سقوتنا في الاستعمار الغربي (ص ٣٦).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

منزلة عظيمة. فكلن كان يقول بالأمس عن هذا الدين الخفيف وفضائله، ثم تعامل عليه من مركزه في الحكومة الكمالية، فما هو إلا من خواص تلك الحكومة وفضائلها؟؟

ثم ألم يكفكم مسألة إلغاء المحاكم الشرعية^(١) مع أنها بسيطة وصریحة في الدلالة على النزوح والمروق عن الإسلام. فإلى متى نغامون عنهم وتقرون عليهم ما صدر منهم مما يضيق عنه نطاق التأويل، وإلى أى شئ نحتاجونه في الإطلاع والإقتناع بخطتهم الكفرية، فهل أنتم ماكنون حتى تعترفوا بأنهم كافرون، وقد وقع لك منهم أيضاً حيث صرح مندوبهم في (لوزان) وغيرهم، بأن حكومتهم لا دينية، وكذا صرحت جريدة (أقشام) المترجمة عن خطة الحكومة في أثناء دفاعها عنها حين أمرت برفع الحواجز بين مقاعد الرجال والنساء في المراكب العمومية كما سبق بيانه بأن الجمهورية التركية ليست بجمهورية إسلامية. ولعلكم تعتذرون عنهم بأنهم قالوا لا دينية أو غير إسلامية ولم يقولوا كافرة، كاعتذار من آجر نفسه للدفاع عنهم في الصحف العربية ويعتونه هكذا: "نزىل القاهرة متصرف اللاذقية سابقاً والسكرتير العام بولاية بيروت ع. سئ". عندما أرادوا إلغاء المحاكم الشرعية وقد أبلغته التلغرافات بعبارة "إلغاء المحاكم الدينية" قائلاً ومجيباً عن سؤال واحد طلبه من الأزهر: "محاكم شرعية، لا محاكم دينية في تركيا".

(١) هذه الخطوة من سلسلة الخطوات التي اتخذت في الانتماء للادين وفصل الدين عن الدولة، كإلغاء المحاكم الشرعية، وقانون الشريعة الإسلامية والعمل بالقانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإبطالي والقانون التجاري الألماني، وإدخال الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوروبي، منع التعليم السديني وتعطيل مراكزه، ومنع الحجاب وتقرير السفور والتعليم المختلط وإلغاء الحروف العسرية وإبدالها بالحروف اللاتينية، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية وتغيير اللباس وإلزام لبس القبعة.

(الندوى: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ص ٦٩).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

"إن الترجمة الفرنسية لغة برقية المراسل سببت هذا الشكل، لأنه لا توجد في تركيا محاكم عنوانها (محاكم دينية)، بل محاكم شرعية كما هو موجود في مصر. وهذه المحاكم تقبل مراجعة أى كان من الناس، دون أن تنتظر إلى أديانهم ومذاهبهم، إذا كانت قضاياهم من نوع القضايا الداخلية وصلاحياتها".

"فقد كانت المحاكم العثمانية أيضاً عازمة على إلغاء هذه المحاكم قبيل الحرب الكبرى ولكن حالت دونها الحوائث".

"إن فكرة من قالوا بتوسيع نطاق القانون المدنى (المجلة) وجعله موافقاً للظروف الحاضرة بعلاوة الأحكام الشرعية المطابقة لروح العصر الحاضر عين الصواب والحقيقة".

"وقد كانت تحصل قبلاً ويحصل اليوم أيضاً من الاختلافات والمتناقضات بين المحاكم الشرعية والنظامية مما تؤول إلى ضياع الحقوق والأوقات دون جدوى، ولا حكمة طبعاً في وجود محكمتين مختلفتين بإدارة واحدة إسلامية يستتبط قوانينها من الأحكام الشرعية. (الأهرام، ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣م)".

وهذا الرجل موكل من حكومة أنقرة ليفرغ كل ما فعلته في صورة الحق، ويلتم غفلة المصريين الظانين بما خيراً، ولم أر مثله غير خائف من الله ولا مستحي من الناس عند الاستهزاء بعقولهم، ولكن الكماليين المتسرعين والمترقين كل يوم في درجات الكفر والإلحاد لابد أن يسيقوه ويتركوه وراءهم مع تأويله مذموماً مخلولاً.

وسبحان الله، ما سمعنا قبل هذا أن المحاكم الشرعية غير المحاكم الدينية، ودليله أن تلك المحاكم تقبل مراجعة أى كان من الناس دون أن تنتظر إلى أديانهم

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ومذاهبهم، فهل يناقِ مراجعة من شاء من غير المسلمين إلى تلك المحاكم ثقة بعدالة الشرع الأنور، ومنع كونها محاكم دينية، أى محاكم تحكم على أصول الدين الإسلامى، ومغالطة الرجل تقتضى ألها لو كانت محاكم دينية لما قبلت مراجعة من لم يكن على دين الإسلام، والخال أن من يطلق عنوان (المحاكم الدينية) على (المحاكم الشرعية) من الأجانب الذين يترجمون (الشرع) (بالدين) - ولا يخطئون في ذلك - يطلقها بالنظر إلى ما يجرى من الأحكام الدينية الإسلامية، ولا بالنظر إلى دين من يراجعها، ومن أين عرف الرجل أن دين الإسلام يتولى الحكم بين المسلمين ولا يتولاه بين من عداهم.

وما صدق إلا في قوله: "فقد كانت المحاكم العثمانية أيضاً عزمت على إلغاء هذه المحاكم قبيل الحرب الكبرى، ولكن حالت دوماً الحوائل"، على أن يكون مراده من المحاكم العثمانية العازمة على ذلك الحكومات العثمانية، وهو صحيح ومصدق لما بينا في أوائل كتابنا من أن الاتحاديين لما قبضوا زمام الحكومة كان من أحص أمالهم أو أمانيتهم إلغاء المحاكم الشرعية، لكون عقيدتهم مستقرة على أن الجماعات المدنية الراقية تأسس بالقوانين التي وضعوها فيما بينهم بآرائهم وعقولهم لا بأحكام خيلت ألها نزلت من السماء لكنهم لم يتجاسروا عليه واجتزؤوا بإزالة رباطة تلك المحاكم عن المشيخة الإسلامية، وكان ذلك صولة سرية عليهما وعلى الدين حتى تيسر الجهر بهذه الشجاعة المدنية لإخوانهم الكمالين لكونهم أبطلوا فوقهم، وهم فاتحو الأزمير، ولو ظفر الاتحاديون في الحرب الكبرى لكان في أغلب الاحتمال إلغاء تلك المحاكم بأيديهم، وهذا مراد الرجل بقوله: "ولكن حالت دوماً الحوائل".

ويؤيد كلماتي هذا ما كتبه إمامهم وشاعرهم (ضيا كوك آلب) إبان الحرب من أبيات شعره الذى يعدونه قرآن الترك:

مشيخت

بر دولت دكه حقوقى كندى دوغورماز
قانونته "كوكدن اينمش، دكيشه مز" دير،
أو، اصلا بر دولت دكل، مستقل دورماز
دكه كيشمه ين بر وارلقى طاشيبا ماز ير
حاكم اولان ملتيمدر، مشيختيمدر؟
ملى بجل، مبعوثا غى باب فتوامى؟
مشروطيت بر حيله شر يعتميدر؟
حرير ملت أولد يغمز يوقسه رؤيامى؟

تعريه: "ودولة لا تلد علم حقوقها بنفسها وتقول فى قانونها: "إنها نزلت من السماء، لا تتبدل"، فما هى بدولة أصلاً، ولا يدوم لها استقلال، والأرض لا تحمل موجوداً غير متبدل".

"ومن هو الحاكم فى تلك الدولة، الأمة، أو المشيخة الإسلامية؟ والمجلس الملى هل هى دار المبعوثين (النواب) أو باب الفتوى؟ وهل الدستور عبارة عن حيلة شرعية، وكوننا أمة أحراراً حلم من الأحلام؟" و(ضيا كوك آلب هذا كان نبي الاتحاديين وداعى الأتراك إلى صراط الطورانية، وقد عظمت منزلته عند الكماليين أيضاً، وهو اليوم نائب (ديار بكر) فى المجلس الوطنى، ونشرت جريدة (توحيد أفكار) صورته، وكتبت تحتها أنه أول رجلين أسسا بتيان الجمهورية التركية لمصطفى كمال، وثانيهما أغا أوغلى أحمد.

والذى ذكره الرجل (نزيل القاهرة) من الفكرة الملتزمة لتوسيع نطاق القانون المدن (المجلة) وجعله موافقاً لظروف الحاضرة بعلاوة الأحكام الشرعية، فهى غير

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الخطوة القضائية بإلغاء المحاكم الشرعية، وإنما الموافق لخطوة إلغاء خطة ضيا كوك آلب، على أن توسيع نطاق المحلة بما يستوعب مصالح العصر ويدور بين المذاهب المعتبرة الإسلامية غير مختص بأحدها بأن يجعل المرجع في الدين هو الأدلة الأربعة الشرعية كانت خطة حسنة راقية، ثم ضاع حسنه وصارت معلية مبكية في يد الحكومة المتغلبة الاتحادية، فتولى تلك الوظيفة الخطيرة غير أهلها، وكان الواجب أن يستقل بها مجلس يجمع من أكابر علماء الدنيا، والحال أنه لم يستعن فيها بعد من كبار العلماء المعروفين بالاستانة، بل أحييت إلى لجنة قليلة العدد يرأسها من لا ثقة بدينه وعلمه، مثل سيد بك نائب أزمير الآن في المجلس الوطني ووزير العدلية، وكان من الأعيان العثمانية، وقبله نائب أزمير أيضاً في البرلمان المجتمع عقب إعلان الدستور، وكلا المجلسين جمعني وإياه، ومن كلامه الذي فاه به في البرلمان بين ظهراني النواب والسامعين من الناس، وهو يومئذ زعيم حزب الاتحاد والترقي، في أثناء جدال جرى بين نواب ذلك الحزب ومعارضيه: "لا تتعبوا أنفسكم فإن الدولة تزول ولا يزول حزب الاتحاد والترقي".^(١) ثم العجب العجيب أن هذا الرجل بعد هدنة الحرب

(١) إذا كررنا تذكير القارئ بطبيعة هذه الجمعية وأهدافها، لم يعد لدينا شك في صبغتها اليهودية وظهور أعضائها بمظهر التحدي عندما صارت مقاليد الأمور بأيديهم، حيث طغوا وتجرأوا، وتكفينا العبارة أعلاه لفهم منها ذلك.

وتضيف إليها ما قاله جواد رفعت في كتابه (أسرار الماسونية): (وفي الواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد عن عرشه هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك، وشهدت البلاد من المأسى ما لم نشهده خلال ثلاثة وثلاثين سنة من حكم السلطان... وللفظ مواطنون مخلصون كثيرون أنفسهم الأخيرة على أعواد المشايخ التي نصبت في مختلف أنحاء البلاد).

(ص ٥٩-٦٠، ط. المختار الإسلامي، ١٩٧٥م).

وكانت المظالم التي وقعت على العرب أيضاً في عهدهم لهدف مقصود، حيث أشاعوا الفرقة بين العرب والترك، فقام الشريف حسين بالتعاون مع الإنجليز للدخول في الحرب ضد تركيا، وجاء الاستعمار الأوروبي ليحتل بلاد العرب، مكافأة لهم على مساعدتهم في الحرب العالمية الأولى.

الأسرار الخفية وراء إلفام الثقة العلمانية

الكبرى قال في رسالة كتبها إلى من المعتقل يستشفعين إلى وزارة فريد باشا: "إن لم أحضر عضواً لحزب الاتحاد والترقي، ولو يوماً واحداً، إلا في مركزهم ولا مجلسهم العموميين، ولم أشارك زعماءهم في مفاوضاتهم السرية والعننية، ولو مرة واحدة، وهم كما معلوم لحضرتكم كانوا يعدوننا من الأجانب، وأنا لم أزل منتقداً عليهم ومؤاخذاً بما عثرت عليه من أفعالهم الذميمة". وإلى لا أعلم منه، مع جميع الأتراك الذين يعلمونه، إلا كونه من صناديد الاتحاديين ومحاميه في المجالس والمحافل الرسمية وغيرها الخطيب المتشدق المهذار والمتفقه المتفهيق الثرثار، وكيف يدعى أنه لم يشارك زعماءهم في مفاوضاتهم مرة واحدة وكان نفسه من زعمائهم طول سنين، ثم لم يسمع اعتزاله منهم أو انتقاده عليهم في مسألة من المسائل مثل ما انتقد أحمد رضا بك في مجلس الأعيان، ومن كلمات سيد بك التي لا تنسى وتدل على أنه لا يحجم على الجهر بالباطل أنه لما كانت الحكومة الاتحادية أحدثت في واحدة من ميزانية الدولة مستشارية في الوزارة العدلية وأرادت أن تعين لها (كونت أو ستورلغ) الإيطالي، فعندما توفش في تلك المسألة بالبرلمان، قال سيد بك: "إن الكونت لا يوجد في عاصمة الخلافة رجل عالم بأصول الفقه في درجته"، فعيّنه لها، ثم سمعنا أن بيته اتخذ محل اللهو والطرب وسائر المشتبهات لرجال الاتحاد، هذه الجملة مترجمة من تولى وظيفة تعديل (المجلة)، وأنا لا أحب التعمق في الشخصيات، لكنني ذكرتها عبرة للمعتبر وهداية للمتأمل في سجايا الاتحاديين والكماليين وخباياهم، مع أني لم أفش من أسرارهم إلا قوله في رسالته متبراً من حزب الاتحاد والترقي، أما قولاه للذان فضل في أحدهما الحزب على الدولة، وفي أحدهما الكونت الإيطالي على علماء الإسلام وفقهائه فمنطوق بهما كليهما على ما لا البرلمان.

وأما قوله نزيل القاهرة: "وقد كانت تحصل قبلاً، ويحصل أيضاً من الاختلافات والمتناقضات بين المحاكم الشرعية والنظامية ما تُؤوّل إلى ضياع الحقوق والأوقات

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

دون جدوى، ولا حكمة طبعاً في وجود محكمتين مختلفتين بإدارة دولة واحدة إسلامية يستتبط قوانينها من الأحكام الشرعية^(١)، فمن الأكاذيب التي لا ينطبق بها إنسان دون أن يحمر الوجه من الحياء، فأين الدولة الإسلامية بعد تفكيك الحكومة عن الخلافة وجعلها حكومة لا دينية أو دنيوية بحتة، وأين قوانينها المستنبطة من الأحكام الشرعية^(٢) وقد فصلوها عن الخلافة لتحريرها من الأحكام الشرعية، وهل يوجد في هذا الكلام أثر من المنطق إلا وقت أن يلغى ما عدا المحاكم الشرعية وتبقى هي وحيدة ثم لا تبقى الحاجة إلى توصيفها بالشرعية لعدم وجود محاكم غيرها وإلا فلو كانت قوانين الدولة مستنبطة من الأحكام الشرعية فلا يكون ذلك سبباً لإلغاء محاكمه الشرعية بل تليتها، لكن موقف الرجل في تأويل أفعال الكماليين ليس إلا كما قال الشاعر:

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فمادحه يهذى وإن كان مفصلاً

فهم يريدون أن يُلغوا هنالك وهو يُلغو بالقاهرة دفاعاً عنهم.

وحقيقة المسألة أن محاكم الدولة الإسلامية لا تكون إلا شرعية.. وهكذا كانت الدولة العثمانية في قديم الزمان، قد أحدثت المحاكم النظامية لما طرأ على الدولة الضعف وأثر تغلب الدول الأجنبية في استقلالها، فقلبت تلك المحاكم في أساسها بالضرورة واجتهد في تأليفها بالشرع أيضاً مهما كان، أفلح في ذلك أو لم يفلح، فالحاصل أن وجود تلك المحاكم في الدولة مع قبولها وتأسيسها فيها كانت لا تخلو من أن تعد أجنبية، ولا كلام في وجود المحاكم الشرعية ولا في بقائها، وربما

(١) حقاً.. أين الدولة الإسلامية بعد هذا كله؟ لقد قضى عليها تدريجياً، وكانت كل تحذيرات الشيخ مصطفى صبري تدعو المسلمين إلى اليقظة ومعرفة ما يراودهم، لأن الإجراءات التي بدأها مصطفى كمال تعني فصل الدين عن الدنيا، ومن ثم يصبح الإسلام كدين مجرد عاطفة وجدانية فردية.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

كان يدور في خلد الإسلام توسيع وظائف المحاكم الشرعية وإلغاء المحاكم النظامية عندما عاد إلى الدولة عزها واستقلالها، ولا يخطر بباله إلغاء المحاكم الشرعية حتى عاين تلك القضيحة وقت ما أصبح المسلمون مشغولين ومشغوفين بتهنئة الدولة على إعادة الغزو والاستقلال.

فصار كالتمني أن يرى فلاناً من الصباح فلما أن رآه عمي

فلذلك عاين القضيحية ولم ينكرها حتى إنكارها.

الارتداد عن الدين:

وحادثة إلغاء المحاكم الشرعية وإن كانت مسألة مستقلة ذات خطورة عظيمة بحيث تكفي وحدها في تغيير الدولة الإسلامية وإخراجها عن أصلها، إلا أنها من مستتبعات التفريق بين الحكومة والخلافة ومؤيده لما ذكرنا فيما عمدوا إليه في ذلك التفريق، لأنهم لما نزعوا الحكومة من الخليفة لأجل كونه خليفة له رئاسة دينية ومن واجبه أن يجعل دين الإسلام حاكماً في حكومته قاعداً لها بالمرصاد حتى يستقلوا برأيهم ويفلتوا من قيد ذلك الحكم والرصد، فلا جرم التزموا إلغاء المحاكم الشرعية الممثلة لحاكمية الدين في المملكة^(١)، ومن جراء ذلك حزمت أنا إبان افتراق

(١) كانت خطوة إلغاء المحاكم الشرعية من الخطوات التي حفي على أغلب المسلمين أثرها على (حاكمية) الدين، وما هو المؤلف يصفها بأنها ذات خطورة عظيمة وإن بدت في الظاهر مستقلة، لأنها في النهاية تعني تحكيم الكماليين لأرائهم ونزعانهم الإحادية بواسطة تحكيم القوانين الأجنبية في شؤون الدولة بدلاً من جعل الإسلام حاكماً.

ونسبيل إلى الاعتقاد بأن الشيخ مصطفى جدد استخدام لفظ (الحاكمية) تعبيراً عن هذا الركن الأساسي في الإسلام، وهو لفظ متداول لدى الأصوليين سواء بلفظه أو بمعناه.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الحكومة التركية الحاضرة عن الخلافة بأنه ارتداد عن الدين، وأكثر العجب والأسف على أن كثيراً من العلماء لاسيما المصريين كيف لم يقدروه حق قدره، وإن من أبي منهم تجو به كيف توقف في حد الإباء العادي، وإذا لم يوصلهم علومهم إلى الإدراك بحقيقة هذه المسألة ومرتبطة خطرها في الدين، فقيم ينتفعون بعلومهم مع اتساعهم فيها.

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

ولعمري لا توجد مسألة أدعى إلى استنهاض علماء الدين لواجبهم من هاتين المسألتين، أعني تفكيك الحكومة عن الخلافة وإلغاء المحاكم الشرعية، وإنهم لما لم يحيطوا بمهما علماً ما يرح أعدلهم يرد بعضاً من شدة ما قلته فيهما إلى ما بين وبين الكمالين من شدة الخصومة والشحناء، مع أن الأجدر بهم أن تتلقوها حجتين بالغتين في أن الحق معي ومع من انحاز إلى مذهبي في خصومتهم.

فإن قلت إن الحكومة الكمالية ما ألغت المحاكم الشرعية بعد، فما وجه هذه الشكايات والنكابات، قلت إنهم وإن لم يلغوها بعد فقد هموا بها قطعاً - وسوف يرمونه إن أملى الله فأطال عمر سلطتهم - ومن جراء ذلك بادر إلى تحييد مشروع الإلغاء لسان دفاعهم في مصر، أعني متصرف اللاذقية السابق، ونجحت فكرة تقليد الحكومة التركية فيه من بعض المصريين فأحدثت بحثاً في صحفهم، ولقد كفى بل زاد على الكفاية في إثارة أسفى همهم به، وماذا ينفع تعنيف من مثلى بعد ما وقع الإلغاء.

ومن قرأهم الذى أنزل على (ضيا كوك آلب) ونقلنا آناً منه قطعتين:

السرار الخفية وراء إقام الحلقة العلمانية

علمى بىراق كليه به، عدلى دولته
سن ساده جه دياتك نشرينه جاليش
مراد كسه نائل أو لمى حقلى حرمته
عصره أوبان وظيفة كى يا بمعة جاليش

يقول محاطياً للمشيخة الإسلامية التي كانت تحمى العلوم الإسلامية ورفيها وتعمل المحاكم الشرعية وظائفها تحت نظارتها: "اتركى العلم للجامعة والعدل أى الحكم والقضاء للدولة واشتغلى بنشر الدين فقط، إن أدت أن تنالين الاحترام الذى تستحقينه فاجتهدى فى وظيفتك التى تتفق مع العصر الحاضر". والرجل أغش وأكذب من مسيلمه، لأنه لا يكتفى بنزع الحكم عن المشيخة الإسلامية، بل يأمر بنزع العلم عنه أيضاً، ولكن مشيخة إسلامية كهذه كيف تنشر الدين؟ والدعوة إلى سبيل ربنا تكون أولاً بالحكمة وهى تحتاج إلى العلم، فيكون نشر الدين والدعوة إليه بلا حكم ولا حكمة مقتضراً ومتنزهلاً إلى دركة التضرع والاسترحام. والكثيرون من أمثال الرجل فينا وبينهم رجال يشتغلون بالتدريس فى الجامعة العالية يقولون: "إن من شاء من الأمة يتمسك بدينه ويتعبد على مقتضاه إلا أن الكنيسة يلزم أن لا تتدخل فى شئون الحكومة ولا يكون لها شىء من السلطة والنفوذ"، ويريدون بالكنيسة ما يشمل مسجداً وبسلطتها ونفوذاها سلطة الدين ونفوذه، إذ لا معنى لسلطة المساجد ونفوذاها، وأخذوا هذه الفكرة من أوروبا لاسيما من انقلاب فرنسا، ولذا عبروا بلفظ الكنيسة عينا، لكن دين الإسلام له أحكام فردية واجتماعية وسياسية تتعلقان بالحكومة وأنه يلزم أن يكون له نفوذ على المسلمين، وأقوى النفوذ ومنتهاه نفوذ السلطة وإليه يرجع فى أمور العامة عندما وقف قوة المنطق والإقناع، وبه يؤمن على إعلاء كلمة الله العليا، فذلك يأبى هذا الدين إلا أن تكون تلك القوة فى يده، ومن لا يرتضيه له فما هو إلا عدوه.. ﴿وَمَنْ لَّعَنَ حُكْمَ رَبِّمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ونقلت الأنظار هنا إلى المهديان الذي خرج من بعض الأفواه أولاً.. ثم راجح بين الكماليين، فتلقاه دعاةهم وشياطينهم الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً بقبول حسن، وتمسكوا به كالعروة الوثقى في الدفاع عن بدعة الخلافة المنحردة عن السلطة، واهتموا بنشره وتعميمه بين الناس، وذلك كالمهديان كون الخلافة بعد افتراقها عن السلطة تكاملت وحصل إمكان تأسيس علاقات لها تترجم في الأيام الأخيرة بهذا النغم المزد في الطنبور مأمورهم ومأجورهم بالديار المصرية متصرف اللاذقية السابق^(١) فبنى عليه كلامه المنشور بالصحف، وكفى مصر وعلماءها عاراً وشانراً أن يسمع بين ظهرانيهم صوت هذا الشيطان المرذول الذي تأتي غثوة الإنسان أن يضلل بتسويل مثله، وهو الذي ادعى بأن المحاكم الشرعية ليست محاكم دينية كما سبق مع ما يستحق من تزييفه. وحديث تكامل الخلافة المنحردة عن السلطة أيضاً كما عبرنا هذين محض لا يمكن أن يصغى إليه في غير مصر من البلاد الحرة الإسلامية، لأنه مع قطع النظر عن أن كون الخليفة الذي له

(١) هو عبيد الغنى سني بك، وقد نسب إليه كتاب (الخلافة وسلطة الأمة)، ويذكر الدكتور محمد حسين أن لجنة من الترك قد وضعته بإشارة الكماليين، وأن حكومتها هي التي أشرفت على تأليفه وأعانت على نشره.

(الانتماءات الوطنية في الأدب المعاصر)، جـ ٢، ص ٦٤.

ويُنظر الفصل الأخير من كتابنا (نظرية الخلافة في الفكر الإسلامي)، ط. دار الدعوة بالإسكندرية، حيث عرضنا لمضمون الكتاب بشيء من التفصيل، وهو يبين الدفاع نظرياً عن خطورة أتاتورك في الفصل بين الخلافة والحكومة، ولهذا تعرض له الشيخ مصطفى صبري بالنقد العنيف.

غير أننا نتوقف لتأمل ظاهرة (تنظير) أعمال الساسة وصياغة أفعالهم في ثوب (فلسفي)، وإضفاء طابع الأصالة الفكرية على أناس ليسوا من أهلها، وإلا فمضى كان (مصطفى صبري) مفكراً أو فيلسوفاً أو حتى صاحب رأى؟

لقد أثبت الشيخ مصطفى صبري بأنه كان صاحب هوى!!

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

حكم وحكومة في بلده أقل نفوذاً في العالم الإسلامي من الخليفة الذي لا حكم له حتى في بلده المقيم فيه غريب جداً، فاللازم المتحتم للخليفة قبل كل شيء وقبل الخلافة لا تصح مجردة عن الحكومة، بل هي عين الحكومة ونوع من أنواعها، بمعنى الحكومة التي تنوب عن حكومة رسول الله ﷺ . فإذا أخلت الخلافة عن الحكومة فلا يبقى فيها شيء من آثار الوجود ولا لوجودها معنى من المعاني. كما أنه لا يرى النظر الصحيح معنى لوجود الخليفة عبد المجيد منذ سنة وبضعة أشهر، وكان ينبغي للمصريين أن يسألوا نزول القاهرة أعني متصرف اللاذقية السابق عما اشتغل به الخليفة في الآستانة على أمر تلك المدة الطويلة، وماذا يحتمل أن تكون مشاغله ووظائفه التي لا يفتنون يبحثون عنها مُحالَة عقد مؤتمر إسلامي^(١) يعينها خارجة عن مشاغل الحكومة ووظائفها فلنفسرها على التقريب بوظائف الإرشاد والدعاية

(١) لقد ثبت صحة رأى الشيخ مصطفى بقوله إن عقد مؤتمر إسلامي لا يقوم مقام الخلافة، قد ينظم السراويل بين الشعوب الإسلامية المتفرقة، نعم، ولكن الخلافة أو الإمامة العظمى تجمع شملهم وتجعل منهم أمة واحدة - كما أراد لها الله عز وجل.

ولم يعش الشيخ معنا ليرى كيف انعقدت مؤتمرات إسلامية وانقضت بلا جدوى!

وفي الوقت الذي كان فيه مصطفى كمال ينفصل من مسئوليات الخلافة ويترك العالم الإسلامي فريسة سهلة لثول أوروبا، في هذا الوقت بالذات عقد مؤتمر (الإيمان والتنظيم) في لوزان، فكتبت جريدة (الأكسيون فرانسيز) عنه في ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٧ ما يأتي:

(إن ممثلتي الكنائس الأرثوذكسية الشرقية - روسيا ورومانيا وأرمينيا وسربيا وبلغاريا - وممثلي بطاركة الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم وقبرص وأثينا، اشتركوا في البحث في لوزان مع الإنكليسيكان واللوثريين والمصلحين، على أنه مع تعارض الآراء والنظريات، قرر ممثلوا جميع هذه الكنائس توجيه رسالة عامة إلى جميع المسيحيين يبينون فيها ضرورة وشروط الوحدة المسيحية "وهي الخطوة الأولى نحو هذه الوحدة". (يونغ، الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية، ص ١٣١). والآن تتساءل: لمصلحة من تجزئة الدول الإسلامية بعد أن كانت موحدة في إطار الخلافة؟ وكان بالإمكان الإبقاء على النظام مع إصلاح المفاسد إن صحت ادعاءات الكماليين؟!

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العلمانية

وتنظيم الروابط بين الشعوب الإسلامية، ولنفرض استطاعته لها بأكمل وجه، مع تسليم أهميتها العظيمة، لكنها ليست بوظائف الخلافة الصحيحة مهما عظمت أهميتها وعم نفعها، بل وظائف الخلافة المصنوعة التي أنشأها بمخيلته من يجعل دين الإسلام بل لا يدين به ويجهل الخلافة والإمامة العظمى وما وضعت هي له في شرعة الإسلام. ولنعلم أولئك الجهال أن تلك الوظائف التي عدوها وما يحتمل أن يعدوها - على عظم نفعها وأهميتها - وظائف علماء الإسلام الذين هم خلفاء الرسول ﷺ وورثته، وإنما الفرق بين خلافتهم والخلافة التي بمعنى الإمامة العظمى في كون الإمام جائزاً للحكومة، ليس إلا، فإذا جرد عنها بصير واحداً من العلماء إن كان له علم، ولا يبقى الفرق بينه وبين غيره قطعاً. هذه هي الحقيقة الناصعة الباهرة وما وراءها عبارة عن التعليقات والتسويلات التي يديرها ويوزورها شياطين المتفرجين استهزاءً بعقول المسلمين وعلومهم، فدعوى التكامل في موع الخليفة عند تعريده عن حكومته بحجة أن تلك الحكومة منحصرة ببلاد الترك. مع عدم الإمكان لتحقيق ماهية الخلافة بدون الحكومة باطلة جداً وغريبة بمنزلة أن تعكس قضية (ما لا يدرك كله لا يترك كله)، ويقال ما دام الخليفة لا يمكنه الحكم والحكومة في عامة المسلمين فلتنزع عنه أيضاً حكومته في بلاد الترك. ولنتختم الكلام هنا بتذكير قوله تعالى الآتي تأييداً لعدم انفكاك الخلافة عن الحكومة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [حر: ٢٦].

ومن عجائب فقدان الحياء أن (ع سني)^(١) أيضاً ذكر قضية ما لا يدرك كله.. في مقالته التي أشرت إليها، وهذه عبارته في الأهرام ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣م:

(١) وهو الذي كتب له الكماليون كتاباً يتضمن مقالاتات تتصل بالخلافة موضوعياً وتاريخياً، ونشره باسمه للدفاع عن أنفسهم تحت عنوان (الخلافة وسلطة الأمة).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

"وأقول رداً على بعض المترددين والقائلين في أن الخلافة إذا كان حائزاً على الصفة السياسية والإدارية فلا تكون صفة الخلافة فيه تامة صحيحة. نعم إن الخلافة يجب أن تكون عنده الولاية العامة على جميع المسلمين في إدارة شئونهم الدينية والدنيوية من سياسية وإدارية واجتماعية وغيرها، ولكننا يجب أيضاً أن لا ننسى أن هذا الشرط كان ممكناً تطبيقه في أيام الخلفاء الراشدين إذ كانت البلاد الإسلامية كلها تحت لوائه وحكمه، ولكنه أصبح عديم النفاذ بعد أن انقسمت البلاد إلى ممالك مستقلة، وقد كنا نرى خليفتين في وقت واحد، هذا عدا الملوك والأمراء الذين لا يذعنون لأمر الخلفاء، وبما أن العمل بالشئ خير من إبطاله فيمكننا الآن أن نقول إن الخلافة يفرض قسمًا من واجباته إلى الملوك والأمراء والحكومات، وهي السياسية والإدارية، ويستبقى ما يمكن تنفيذه حسب ظروف الزمان، ولو أن هذا التفويض لم يقع قولاً ولكنه واقع فعلاً كما يقال ما لا يدرك كله لا يترك كله، وهذا مطابق لأحكام الشرع الشريف، وطبعاً العقل والحكمة يقتضيان قبول الممكن وإعمال المتعذر".

وعلى مذهب الرجل كل من الشرع والعقل والحكمة يقتضى قبول كل شئ وقع لما أنه هو الممكن وخلافه المعتذر، إذ لو لم يكن ممكناً لما كان واقعاً، وعلى هذه القاعدة بين الرجل قبول إلغاء المحاكم الشرعية وإلغاء مسمى الخلافة، فلو اتبعه الكماليون إلغاء اسمها أيضاً لثقله أيضاً ورده إلى أساس كون العمل بالشئ خيراً من إبطاله، وأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، جاعلاً أمثال هذه القضايا المتعارف عليها سافها عند تطبيقها بالحادثات، وإن أقول للرجل قل ما بدا لك، فأنت في مصر ولن تبور تجارتك وتخور بضاعتك في سوق العميان، وقد بين كلامه هذا على أن الواجب أن تكون الخلافة حائزة للولاية على المسلمين في شئونهم الإدارية والسياسية التي تندرج تحت تعبير الحكومة، وبما يحصل كمالها وقوتها، إلا أنه لم

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

يمكن ذلك في هذا الزمان، فاقترضت الحال على ما أمكن، مع أنه ادعى في صدر مقالته أن نفوذ الخليفة ازداد بتحريره عن السلطة فساغ له هذا التناقض مع قرب مكان المتناقضين، وغاية ما يستنبط من كلامه أن الواجب إما أن يكون للخليفة حكومة وولاية على المسلمين في جميع البلاد أو لا يكون له ذلك حتى في بلده وقاعدته (ما لا يدرك كله... معكوسة الدلالة عنده، فكأن عبارة تلك القاعدة (ما لا يدرك كله لا يترك كله) ولم أدر ما معنى قوله: "ولو أن هذا التفويض ما لم يقع قولاً ولكنه واقع فعلاً" أو اسئلوه لماذا لم يقع التفويض قولاً أو لماذا وقع ذلك فعلاً؟ وقد سبق منا أن لا يقلص ما فعله الكماليون بما وقع في أدوار الخلفاء المستضعفين، وسبق أيضاً رأينا في تعدد الخلفاء.

تصريح صحفي لاتاتورك وتفنيده:

ولابد أن نبحث هنا في كلام فاه به في الأيام الأخيرة مصطفى كمال عند مقابلته الكاتب الفرنسي (موريس برنو)، وقد نشر في جريدة (الوطن) التركية في عددها (٣٠٢)، يقول فيه: "إن أسعد أدوار الترك التاريخية مرحلتان لم يكن سلاطينهم خلفاء، ثم بذل واحد منهم نفوذه وثروته للحصول نفسه على الخلافة، وكان ذلك من آثار الصدفة والاتفاق، ون نيينا أمر تلاميذه أن يدعوا الأمم إلى دين الإسلام، ولم يأمرهم أن يتولوا حكوماتهم، وما دار فكر كهذا في خلده قط". ثم قال: "إن الخلافة عبارة عن الحكومة والسياسة، إذا أراد خليفة أن يقوم بواجبه ويسوس جميع الشعوب الإسلامية فكيف ينجح في ذلك، وتصور خليفة يقوم بواجبه الديني الذي تقتضيه ولايته على جميع الأمم الإسلامية، فكر مستنبط من الكتب لا من الحقيقة، ولم يخضع لخلفاء الأستانة الإيرانيون ولا الأفغانيون ولا

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

مسلمو أفريقيا، نحن أبقينا الخلافة للتقليد القديم المحترم^(١) نؤمن له ولعائلته معيشتهم وما يحتاجون إليه والترك هي الأمة الوحيدة بين العالم الإسلامي في تحمل نفقة الخلافة، والذين يدعون العموم والشمول لجميع شعوب المسلمين في العلاقة بالخليفة جانيوا إلى الآن كل اشتراك في الخلافة، فماذا يدعون الآن، وكيف يجوز أن تحمل أمة الترك أعباء الخلافة وترعى وحدة نفوذ الخلافة وسلطته، إن هذا الإفراط.

لا يخفى أولاً ما ادعاه من كون الخلافة شقاءً على سلاطين الأتراك ناشئ من زعمه الذي ارتكز في نفسه لكرهه الخلافة الإسلامية، وما أشقت الخلافة أحداً من آل عثمان سوى عبد المجيد الثاني، وتعبيره بالتلاميذ عن أصحاب رسول الله ﷺ بنين عما في ضميره من عده ﷺ كشيخ زاوية أو أستاذ مدرسة، أو يدل على أنه أخذه من تعبيرات النصاري حيث يعبرون عن حوارى سيدنا عيسى ﷺ بالتلاميذ^(٢)، ثم إن قوله عن نبينا ﷺ وما بعده إن حمل على ظاهره فلا يخلو عن فساد كبير في نفسه وتناقض بين طرفيه وإهمام يجعله كهذيان المحموم، ورأيت تعريبه في بعض الصحف العربية فلا يحصل له أيضاً ولعل الصحف روته غير فاهمة أو غير محسنة في تفهيمه، وأنا عربيته من عبارة (الوطن) بحرفها.

(١) كانت الخطة تقضى اتباع أسلوب (المراحل) كما عرفنا خشية رد الفعل الناجم عن مصادمة الشعور الإسلامي، وقد صبح وصف أحد كبار الاستعماريين آنذاك عندما صور الخطوات الجزئية التدريجية بفعل مصطفى كمال، قال (فلتجنب) التزوير في التاريخ، لأن الستار لم يلق بعد على آخر فصل من رواية تركيا مصطفى كمال. مقال بقلم رينيه دابرياس، ينظر ص ٤٤ من كتاب (الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية).

(٢) يبدو الفهم العميق للمؤلف وحرصه على التزام ضرورة الدقة في الألفاظ، ويدل أيضاً على غيرته الإسلامية التي تجلي على كل مسلم أن يضع الصحابة رضوان الله عليهم في مكانهم اللائق بهم، وما نيل من الإسلام إلا منذ تجرأ البعض على الصحابة رضى الله عنهم، وهذا منهج متبع للآن لمن يخلو له الطعن في الإسلام وتاريخه وحضارته.

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وتوجيه كلامه عندى بما يخلصه من حيص بيص، إنه أراد أن يقول إن الخلافة المضافة إلى جميع الأمم الإسلامية لفظ لا معنى له، لأن الخلافة عبارة عن الحكومة ولا تكون للخليفة حكومة وسلطة على شعوب المسلمين المنفصلين في مشارق الأرض ومغاربها، والنبي ﷺ أمر بنشر الدعوة لا بتوسيع الحكومة إلى كل ما يصل إليه انتشار الإسلام، فإذا كانت الخلافة العامة الولاية عبارة عن لفظ لا يتحقق معناه، فنحن أبقينا ذلك الاسم حرمة للتقليد القديم، وتحملنا نفقته ونفقة عياله، وما زالت أمة الترك تحمل هذه المؤونة دون سائر الأمم السابقة، فليس من حقهم أن يتدخلوا في شأن الخلافة ويتكروا علينا نزع سلطة الخليفة ونفوذه وتكليف الترك الحاملة لنفقة الخليفة بتحمل سلطته أيضاً فرط وشطط، هذا تلخيص مراده من كلامه وغاية توجيهه، ولو لم نفسره هكذا لكان أشد اضطراباً وفساداً، وبعد هذا لا يخفى أنه يطالع الخلافة بنظر التاجر السلانيكي لا بالنظر الإسلامي فضلاً عن نظر عظيم وزعيم الإسلام، ولذا يُكثر البحث عن نفقة الخليفة، ولير المسلمون بطل الشرق وبطل الإسلام الذي ولدته أمس أمواج الزمان ورفعته كما يرفع اضطراب الماء سفالته، واليوم بمن نفقة الخليفة عليه وعلى الأمم الإسلامية، واستدلاله في إزالة سلطته ونفوذه غريب جداً، حيث بناها أيضاً على مسألة النفقة، وقال إن أمة الترك يحملونها فلا يحملون سلطته.. فمن لي بأن يقول له - أي المصطفى كمال: فكيف تحمل أمة الترك سلطتك ونفقتك التي لا تقل عن نفقة الخليفة؟ فإن تبجح بكونه أفاد الدولة وربحها ولاية أو ولايتين فقد خسرها أضعاف ذلك حين كان قائد الجيش في الحرب الكبرى^(١)، مع أن بيت آل عثمان - والخليفة من ذاك البيت - بنى

(١) هكذا حسق، فقد اقتسمت دول الغرب ميراث الخلافة العثمانية، وانحصرت تركيا داخل حدودها وأصبحت من دول العالم الثالث - تابعة بعد أن كانت متبوعة - ألا تنوح من تصرفاته والبعة الخيانة؟!

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العثمانية

كيان تلك الدولة المشتتة على ما رُجّح مصطفى كمال وخسره وغيرهما، وإذا جازيناه في مطالعته الاقتصادية فقد ركبت على الترك بعد البدعة الكمالية سلطة مصطفى كمال التي هي أثقل وأثقل من سلطة السلاطين نفقته التي تعدل نفقة الخليفة ثم نفقة الخليفة العاطل الباطل الخلافة.

وقد اعترف في كلامه هذا بأن الخلافة عبارة عن الحكومة حين أراد أن ينقي علاقة الخليفة بسائر الأمم الإسلامية لعدم إمكان أن تشملهم حكومته، ويلزم على كلامه أن لا تصح علاقة الخليفة بأمة الترك أيضاً بعد زوال حكومته بالنسبة إليهم أيضاً ولأجل هذا قال: "أبقينا الخليفة حرمة للتقليد"، وفسرناه بإبقاء اسمه، وهو الذي تقتضيه حقيقة الحال وسياق كلامه، وفي اعترافه أيضاً حجة بالغة على أن الخلافة لا تفرق عن الحكومة وهو الذي اتخذنا إثباته موضوع كتابنا، والذين ناهضونا في هذه القضية من علماء وكتاب بمحض العبودية لمصطفى كمال فبريهم ذاك الاعتراف منه أن حاجتهم داحضة عند ربحهم وكنا نحن نؤمن بيوم ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَزْأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وما كنا حاسبين أن مصطفى كمال يتبرأ في قريب العهد من الذين اتبعوه وأجهدوا في تأييد باطله، وكان ترويه منهم بعد أن لم تبق حاجته إليهم، لأنه أتم مسألة تجريد الخلافة عن السلطة وحصل فيها على النجاح بمعرفة هؤلاء المصدقين والمحبذين، وهو الآن في حاجة أخرى وهي منع تدخل الأمم الإسلامية في قضية الخلافة، ولقضاء هذه الحاجة الثانية يلزمه القول بأن الخلافة لا تنفك عن الحكومة، بل إنها عبارة عن الحكومة، على خلاف ما قال به أولاً وفعل، فالخلافة في يده كدوامة الصبيان يلعب بها ويدورها كما يقتضيه هواه؛ ففي معاملته مع أمة الترك لا تلزم الحكومة الخلافة، فلماذا جردها عنها، وفي معاملته الأمم الإسلامية في خارج الترك فالخلافة لا تنفك عن الحكومة بل هي عبارة عنها، ولما لم يكن للخليفة حكومة عليهم ولم يمكنه فلم

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

تصبح علاقته بهم لأن الخلافة عبارة عن الحكومة، وأياً ما كان فقد حشا هذا القول بأن لا علاقة للخليفة بأمة لا حكومة ولا سلطة له عليهما، التراب في أفواه كثير من محاييه ومحاميه لاسيما في فهم (ع سني) متصرف اللاذقية السابق الذي ادعى ازدياد نفوذ الخليفة وازدياد علاقته بالشعوب الإسلامية لما تجرد عن سلطته وحكومته، ولكنه مستخدم مأجور لمصطفى كمال في مصر لا خادم أية مسألة دينية أو سياسية كمن قال أنا عبد سيدى لا عبد الباذنجان، فلا بأس أن كذبه سيده وأحمله مع أن (وقاحة المرء سلاح الفتي)، وهما - أى السيد والمسود - يتلاعبان بينهما ويتلاعب كل منهما بالإسلام والمسلمين، وإنما الرزية كل الرزية في محلة المحامين المتطوعين بدافع الغفلة والحماسة، وربما يتناهون حماقة ويظنون أن الدافع حمية الدين عندما ينصرون اللادينيين.

شعار الذئب الأغبر:

ورأيت اليوم في جريدة (السياسة) المصرية دفاع (ع سني) عن الحكومة الكمالية في قضية الذئب الأبيض - أو الأغبر - الذى صورته في مطابع البريد والذى ارتقت الروايات إلى تقديسه والدعاء باسمه وهو يتعزى في كلامه بأن ذلك الذئب^(١) لم يكن معبوداً للترك القديمة ويستعين بمقالة نشرت في جريدة (البرى)

(١) يقصد المؤلف رمز الأتراك القدامى، أى (الذئب الأغبر)، وكان مصطفى كمال قد بعثه من مرقدده لسيقوى نزع القومية الطورانية، وكان ذلك بداية مشجعة لرفع شعارات الوطنية والقومية، كالفرعونية في مصر، والفينيقية في الشام، والآشورية والبابلية في العراق، والبربرية في المغرب. وكان الحرس عند بعث هذه القوميات من رقادها أن تكون محلية ومرتبطة بالغرب وأوروبا المسيحية ومقطوعة الصلة بالجامعة الإسلامية أو الخلافة، يقول الدكتور محمد رشاد سالم: (وقد تعاون المبشرون مع الاستعمار في الترويج لهذه القوميات في حين أنهم حاربوا كل قومية ترتبط بالإسلام).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

التركية باحثة عن قصة الذئب، وذلك على ذكر شعار الجمهورية التركية الموضوع موضع البحث والمذكورة في مجلس أنقرة. وهذه فقرة (إيلري):

"وعلى ذكر الشعار أقول إنه لا حاجة هنا إلى المناقشة، لأنه يوجد شعار للترك مولود من أساطيرهم، وأنهم اتخذوه دهرًا، وأسطورته أنه لما انسحب الترك إلى (أركنة قونة) بعد انهزام أصابهم، بقوا في تلك البقاع المخاطلة بالجيال المسلسلة، ثم أنهم لما تكاثروا على مرور الزمن تحروا لهم مخرجاً منها، وكان القوم أضرموا ناراً ذات يوم على سفح جبل، فصادفت فلذاً من الحديد وأذابته فانفتحت منه فوهة، وكان أول من مر على هذه الفوهة ذئب أغبر، فمشى القوم على أثر هذا الذئب وخرجوا وفتحوا بعده الدنيا وشادوا ملكهم العظيم، ومنها صار الحديد والذئب محترمين مكرمين عند الترك، وكان على رايات الأمراء والخواقين القدماء من الترك شعار يدل على الذئب، وكانوا يركزن على أعلامها رعوس الذئب".

وأنا أقول أيا ما كان أصل الأسطورة، فالترك القديمة لم تكن مسلمة، ولم تكن تعبد من يعبد المسلمون، بل كانت مشركة على ما نسمعه، فإن لم تكن تعبد الذئب فهي كانت تعبد ما يشبهه من ما سوى الله، ولو علم دعاة الطورانية للترك القديمة المنظمسة الشعائر شيئاً كانوا يعظمونه فوق هذا الذئب لقلدوهم فيه وفضلوه اليوم على شعار الذئب، على أن القصة لا تدل على عدم اتخاذهم إياه معبوداً، لأن كل أمة اتخذت شيئاً من الأشياء أو نوعاً من الحيوان إلهاً فلا بد من أن لها في ذلك قصة أو خرافة ساقتها إلى ضلالها، وكانت منشأ ذلك الضلال ومبدأه، ثم إنه لا

٤ = (المدخل إلى الثقافة الإسلامية، ص ٣٨، دار القلم، الكويت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). وينظر كتابنا X (التبشير والاستعمار في البلاد العربية)، الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ، من ص ١٧٢-١٧٨، عن الحركة القومية في الإمبراطورية العثمانية والتبشير والحركات القومية، المكتبة المعصرية، صيدا، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

حاجة إلى تأمينه القراء في أن أمة الترك المسلمة لا تتخذ الذئب معبوداً، ونحن على أمن من ذلك، حتى أن دعاة الطورانية الظاهرين كيوسف أقشورا وضيا كوك آلب وأغا أحمد وجلال نوري وحمد الله صبحي وغيرهم، والسريين كمصطفى كمال، نحن على يقين في أنهم أيضاً لا يتخذونه معبوداً مع عدم كونهم مسلمين، وهم لا يعرفون إلهاً ولا يعبدون إلا المنفعة المادية الدنيوية الذاتية، وإنما مرماهم في إعادتنا إلى تبعية الأمة بأية صورة كانت عن شعائهم الإسلامية وروابطها التي تكرهونها قدر ما تقيون منفعتهم المادية الذاتية، وإلى تعويدها بشعائر الجنسية وعواطفها^(١)، وفي مقالة (إيلري) التي استعان بها (ع سني) في الدفاع عن الحكومة الكمالية انتقاد وتأسف على ما اعتاده الأتراك منذ أعصار من إقامة أسماء العرب، كعثمان ومحمد وعمر وفاطمة وعائشة، مقام أسمائهم التركية، كتيغور وجنكيز وآلب وبيكسوم وإيلخان. وقد ذكرنا هذه الفقرة مع ما تستحقه من المقابلة فيما سبق، وبمحاكي الكماليين في مصر عندما ذكر مقالة (إيلري) لم يبحث عن هذه الفقرة.

ومما كتبه (ع سني) في تلك المقالة: "وهل خلت أمة من الأساطير والخرافات المتداولة بين أبنائهم منذ أحقاب، وأية أمة لم يكن لها من الروايات الخرافية التي لا يقبلها العقل السليم ولكنها راسخة في الخافطات يتوارثها هؤلاء عن جد، ولا تضر فعلاً بعبادتهم وأديانهم". ثم ناقض نفسه من حيث لا يشعر، وقال في المقالة نفسها: "لنأت إلى قصة الذئب الأبيض الذي جعله غير الترك معبوداً لهم وهؤلاء يجهلون ما عزى إليهم كما يجهلون نفس الذئب، نعم إن الذئب الأبيض وقصته مجهولة عند الترك، ولم نسمع حتى الآن غيراً ولا رواية، وأنا - وقد مضى نصف عمري في

(١) سألت القومية رؤوسهم فسعوا بكل الطرق ليث الروح القومية في أبناء الترك وإرجاعهم إلى أصولهم الأولى حتى ولوا إلى الوثنية الطورانية، ومن ثم التخلص من العقيدة الإسلامية وعوها.

(د. بدیع الشریف، الصراع بين المولى والعرب، ص ٢١٣).

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

تركيا وهي بلادى وولدت بعاصمتها ونشأت في مدارسها الابتدائية والثانوية والعالية - لم أسمع كلمة عن هذا الذئب فيها ولا بحث واحد من أساتذتي عنه ، وكان معلماً في المدرسة الملكية العليا لعلم التاريخ المؤرخ والكاتب الشهير صاحب المؤلفات القيمة في هذا العلم وصاحب جريدة "ميزان" المعروفة "مراد بك" لم يبحث هذا الأستاذ الكبير أيضاً مطلقاً عن هذا الذئب المخيل. وأؤكد لكم أني لما رأيت طابعاً للبريد التركي لحكومة أنقرة لأول مرة في بيروت سنة ١٩٢٢م عند أحد غواة الطوايع عجبت منه ولم أفهم مغزاه. وسألت كل أصحابي الأتراك الموجودين يومئذ هنالك عنه فلم يجيبني أحد منهم وأظهروا جهلهم التام فيما يعنيه".

وأنا أشهد أيضاً - مع أن عشت تمام عمري في تركيا سوى ما مضى لي من بضع سنين في خارجها حينما قررت مرة من الاتحاديين وأخرى من إخوانهم الكماليين وولدت في سرّة الأناضول ببلدة "توقاد" وأبي وأمي وكذا أبواهما وأبوا أبويهما، وهكذا دواليك، كلهم أناضوليون ذوو نسب عريق في الترك - بأن ما سمعت هذا الذئب ولا رأيته لا في طابع بريد ولا في شيء آخر من طارف أو تليد حتى زمن الاتحاديين والكماليين. ولكن ماذا يجدي هذا الذي أشهد به أيضاً وكل تركي لحكومة أنقرة التي تسعى لجعل هذا الشعار الجاهلي المجهول عند الترك معروفاً، وماذا يجري نفعاً لمنصرف اللاذقية السابق الذي يبرر الكماليين في كل ما ابتدعوه حتى لو دخلوا جحر ضب لدخله معهم. وإلنابه في إثبات مجهولية هذا الذئب عند الأتراك لا ينفعه، بل ينقص ما قاله أولاً عند تأسيه بكل أمة لم تخل من الأساطير والخرافات التي لا يقبلها العقل السليم ولكنها راسخة في الخافطات، لأن خرافة الذئب ما مرت بمحافظة الترك المسلمة، فضلاً عن رسوخها فيها كما يستشهد بنفسه التي جهلته إلى سنة ١٩٢٢م، وإنما تحاول الحكومة الكمالية إنشاء هذه الخرافة في حافة الترك، مع كونها مما لا يقبله العقل السليم كما تشهد به نفسه أيضاً، ومع أنه يجب أن تكون الحكومة تمثل عقل الأمة السليم وتعمل بمقتضاه لا أنها

الأسرار الخفية وراء إلغاء الثقة العلمانية

تذهب بهم من محجة العقل السليم إلى تيه الخرافات التي جهلوها، والمتوارث من آباؤهم إنما هو جهلها أو نسيانها بحيث توحشهم إعادتها أو إحيائها. وبهذا يفترق ويمتاز ذنب الترك الغالب من الخارج ومن حافظة الترك عن أبي الهول المصري الذي يصادم الأبصار في مصر بالأوضح من مصادمة مصر، وقد اجتهد الخماي في التأسى بهذا القياس أيضاً مع وجود الفارق الجسيم حسامة أبي الهول.

ولا ينفع الرجل أيضاً ما ذكره من أنه: "يذهب قسم كبير من أكابر مصر وأغنيائها إلى الآستانة في أوائل فصل الصيف كل سنة، ويقيمون فيها أشهراً، ثم يرجعون، وهل سمع أحد من هؤلاء من روى هذه القصة عن الترك وعن عبادتهم أو تقديسهم الذنب الأبيض^(١). وجوامع مقر الخلافة حافلة بالمصلين العابدين المخلصين لله إيماناً من هذه الأمة المسلمة المؤمنة الموحدة والمحترمة لدينها وشعائرها لا تقل عن غيرها من الأمم الإسلامية، بل أكثر صلابة فيها وأكثر تمسكاً بها". بل يؤيد ما ذكرنا من براءة الترك ونزاهتها عما ينكره من الشعائر الجاهلية أو البدع اللادينية وكون الحكومة الكمالية تقودهم إلى مثل تلك المنكرات وتكلفهم بها ضد ألفتهم وفطرتهم... لكن الرجل يريد التدليس في كلامه والتلبيس على القراء بين أمة الترك

(١) مازال المؤلف يتحدثنا عن اتخاذ مصطفى كمال بصورة "الذنب الأبيض" رمز الأتراك القدماء كأحد العلامات الوطنية، وذلك ضمن الإجراءات التي أجبر عليها الشعب، ومنها ليس القبعات بالقوة وبواسطة "محاكم الاستقلال" التي حكمت على مئات بالشنق والرمي بالرصاص والسجن، لا لسبب إلا لرفضهم لبس القبعات!!
(أرمسترونج، مصطفى كمال، ص ٢٢٥-٢٢٦).

ولعل إسهاب الشيخ مصطفى صبري في هذا الموضوع يرجع إلى حرصه على توضيح دور الإسلام في قطع الصلة بين الأمة التركية وتاريخها قبل اعتناقها الإسلام، مؤكداً أن الأتراك لا يرضون بغير الإسلام بدلاً، بالرغم من كل ما القترفه مصطفى كمال في حقهم من جرائم لصرفهم عن عقيدتهم بشنق الطرق.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

والحكومة، فيدلهم بديانة الأولى وشهرتهم فيها على الديانة الثانية كالقائس المغالط الذي يخدع في الحدد الأوسط المتكرر بين صغرى القياس وكبراه ولا يكرره بعينه. والذين يقيمون الصلاة بالجوامع التي ذكرها إنما هم الأمة الأصلية لا الكماليون الذين يدافع عنهم الرجل والذين يريدون قطع علاقة الحكومة بالجامع تقليداً للمبدأ الذي وضع في الانقلاب الكبير الفرنسي من قطع علاقة الحكومة بالكنيسة.^(١) وأمة الترك في ديانته وارتباطها بالشرعية الإسلامية - وهي ضاربة المثل القائل "شريعتك كسديكي بارمق آجيماز" ومعناه: "لا تتألم الإصبع التي يقطعها الشرع"، والقائل: "باش باشه باغلي، باش شريعته باغلي" ومعناه: "الرأس مربوط بالرأس والرأس مربوط بالشرعية" - غنية عن شهادة هذا الرجل الذي آجر نفسه وجعلها وقفاً على خدمة القاضين على دين الترك والقاصدين قطع ذلك الرأس المربوط بالشرعية الإسلامية مع أن إسهاب الكلام في ديانة الترك لا يبين إلا عن زيادة جنابة الحكومة الكمالية المعتدية على دينهم والناصر المروجة لمساعى المعتدين عليه.

وانظر إلى قوله: "يتخذ هؤلاء المقفرون على الترك ظلماً ومهناً سنداً لأقوالهم ما يصدر من بعض الطائشين الترك مما لا صفة لهم، أو من الذين حولتهم الصدفة

(١) يقصد بذلك ما حدث على أثر الثورة الفرنسية، ويرى خطأ القياس بين الظروف التي حدثت فيها الفصل هناك في أوروبا وبين أحوال المجتمعات الإسلامية التي لم يحدث فيها مثل النزاع الذي نشب هناك بين "رجال الدين" والعلماء.

ولكن من الخطأ الظن بأن دول الغرب تخلت عن الكنيسة، فإن إنجلترا لم تفصل الكنيسة عن الدولة بل هي حامية "البروتستانت"، كما أن فرنسا ابنة الكنيسة الكاثوليكية وحامية "الكثلكة" في العالم.

(الشيخ محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص ٩٤).

ولكن إذا طالب المسلمون بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتحكيم شرع الله تعالى، وصفهم "المتغربون" - أو المتفرغون باصطلاح الشيخ مصطفى - بالهم "رجعيون"، ولا يصفون أوروبا - كمتهمهم وقبلتهم - بهذا الوصف مهما كان الدين متغلباً في أحشائها اجتماعياً وسياسياً!!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

عضوية المجلس الكبير وبينون عليها العلالي والقصور وبلصقونها بالأمة التركية ولم يكن عند أغليبتها الساحقة علم عن كل هذا". ونحن نعلم ونسلم، بل نصيح، إن إلصاق تلك الفضائح بالأمة التركية ظلم، ولم يكن عند أغليبتها المسكينة - لا الساحقة بل المسحوقة - علم عنها، وإنما هي فعل الحكومة الطائشة الباطشة الكمالية، وظلم الرجل للأمة أشد من ظلم الذين عاتبهم على إلصاقهم التهمة بما من حيث إنه يجتهد بكل قوته وحيلته في إخفاء المتهمين الحقيقيين ونفى الذنوب من أصلها وهي ماثلة مشهورة فترجع إلى ذمة الأمة. ومن قلة حياته وكثرة ثقته بسهولة إغفال المصريين يعد عضوية الطائشين المتطرفين في المجلس الكبير من حول الصدف، وهو يعلم من حولهم تلك العضوية، ويعلم أنه ليس في قدرة أحد في تركيا ولا قدرة الصدف أن يخول أحداً عضوية المجلس الكبير غير مصطفى كمال وحزبه. وسعر العضوية للبرلمان مع كون مرتبته دون مرتبة المجلس الكبير أرفع وأعلى من أن يترك تخويلها إلى الصدف في أي بلاد الدنيا، لاسيما في تركيا، حتى أنها لغلاتها لا يترك تخويلها إلى الأمة أيضاً.

والمرحوم مراد بك الذي أطرى الرجل علمه وتعليمه وشهرته بمها في تركيا، لم يأل جهداً في الحصول على عضوية البرلمان، ولم تأل الأمة جهداً في تأييده، فما نجح بسبب مزاحمة الحكومة الاتحادية إلى أن مات مقهوراً. ولو عاش اليوم لراحته الحكومة الكمالية، ولكان في خارج تركيا مثلنا، ولما يطره (ع سن)، وقد اعتقل الله سبحانه لسان الرجل عن أن يعزو تخويل الطائشين عضوية المجلس الكبير إلى الأمة، فعزاه إلى الصدف. وذلك أفصح شاهد على أن الأمة التركية برآء من انتخاب أعضاء المجلس الكبير براعهم من الحركات اللادينية التي حدثت في تركيا. ثم إن عضوية المجلس المذكور لجديرة - بالرغم من إنكاره - بأن يبنى عليها العلالي والقصور في كل البلاد لاسيما في تركيا ولاسيما عضوية الطائشين فيها، كيف لا

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

وقد بين عليه قصر رئاسة الجمهورية لمصطفى كمال؟

ولنرجع بعد طول الكلام إلى قول من كتب في المقطع راداً على: وقد تشبث صاحب المقالة بذيل الشورى المذكورة في كتاب الله تعالى وتحكم بها في أحكام الخلافة^(١) مع أنه لا يمكن عد ما ابتدعه الكماليون خلافة مقترنة بشورى الأمة بعد

(١) وكذلك كل من رأته من المصريين المتكلمين في شأن الحكومة الكمالية تترأ أو نظماً يبحثون عن الشورى ويمتدحونها بما وبإلغاء سلطة الفرد. وهذه غفلة عظيمة لا يصر عليها تجاه الأحوال التي حوت في الأناضول وأحرقت دموهاً ودماءً إلا من له عناية مصرية، لأن شورى الأمة أو المجلس الوطنى الكبير أو الجمهورية أو الحكومة الديمقراطية أو إلغاء حكم الفرد وأمثال ذلك من الألفاظ والأسماء الباردة الموهبة العذبة إن كتبت في تقرير المصريين فلا تكفى في تقرير الأتراك الذين تتحلى مسميات تلك الأسماء عليهم بأضدادها. إذ لا بد لتحقيق تلك الألفاظ كلها أن تكون مستندة إلى إرادة الأمة وإحارها الناشئة من محبتها ومرضاها، والحال أن الأمة لم تنتخب هؤلاء النواب الذين انعقدت بهم الشورى أو المجلس الوطنى الكبير بطوعها وطيب نفسها، بل لا تعرف بهم ولم تر وجوههم، ولولا سلطان السيوف المشهور بالحرب في أعناق مثاق وألوف من كبار أبنائها وصغارها لما قتلهم نواباً عنها، وهم أنكر الناس إليها وأبغضهم، فنيابتهم عنها فضولية بتمام معنى الكلمة وإضافة شوراها إليها غير صحيحة قطعاً. وقد اطلع على هذه الحقيقة واعترف بها جميع أهل البسيطة إلا المصريين، ولن يدعوا حتى يحل بهم ما حل بالأتراك من سفاهتهم ولصوصهم من البلايا والمصائب التي عربت بلادهم وأنفسهم وأموالهم وجعلتها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. ثم إن الأمة التركية التي طالما يبحث عن سلطتها واستقلالها كذباً واقتراء، كما أقام تستغل بانتخاب نوابها فكانت هؤلاء الذين يدعون بالنواب ما استقلوا ببيان آرائهم وإعلان أصواتهم فإن سمع من نفر قليل منهم في الندوة صوت ضئيل يدافع عن الدين أو شيء غيره من الحقائق فهو مقضى عليه بأن لا ينفذ، وصاحب الصوت يعرف ذلك ويعرف أن مصطفى كمال هو الذى عينه للنيابة لخدمته هو لا الأمة لخدمتهم، فلا يلج في صوته واقتراحه وإلا انتهى الأمر إلى فقد نيابته أو رأسه كما حارب ذلك في شكرى بك نائب طربزون قتله طوبال (*) عثمان من اللصوص الذين يستخدمهم مصطفى كمال وعثمان قتل عند القبض عليه، والأمر بالقبض وعوف بك الذى كان رئيس الوكلاء وقتئذ، وكان ذلك من أسباب حدوث الانتشاق بينه وبين مصطفى كمال وتجنحه عن دست الأجراء بل ومن منسزله في المجلس الوطنى وحزب الشعب، فإذا -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

« فثبتت عن خفايا ذلك المجلس من أصل نشأة الأعضاء إلى أحوالهم الراهنة عثرت على تضاعيف الجبر والإكراه، والذي يعبر عنه المصريون ملاأفواههم بشورى الأمة كتابة عن مجلس أنقرة إذا نظرنا فكل واحدة من كلمتين لا مصادق لها لأن الأمة بمعمل عن تلك الشورى لكونها مكرهة في تعيين أعضائها إكراهاً ملجئاً، والشورى ما صحت شورى في نفسها لكون أعضائها أيضاً مكرهين فيما بينهم فهم كذئاب تسلطن على غنم (**) - كما أن شعارهم الذئب الأبيض - ولا يأمن بعضهم بعضاً فيما بينهم. فكل ما وقع في تركيا منذ سنة وبضعة أشهر من تقريد الخلافة عن السلطة إلى إعلان الجمهورية ما هو بصنع الأمة، بل صنع تلك الذئاب التي تغلبت على الأمة وتغلب بعضها على بعض. فبعداً لها من جمهور مقهور ومن ظن خديعة اللصوص حقيقة راقية فلم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأما حديث بحق الفرد وإلغاء حكمه فقد آمن به المصريون فوق إيمانهم بالله ورسوله ﴿وَيَمُنُّ الْإِنْسَانُ مَنْ يَفْتَرِي﴾ لَهْوَ الْحَدِيثِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَقْرَءُ الْقُرْآنَ وَيُفَسِّرُهُ هَكَذَا ﴿[لقمان: ٦]». ومع أن حكم الفرد اليوم في تركيا أشد بطشاً مما في الماضي بألاف أضعافه، إلا أن اسمه الآن حكم الشعب كذباً واقتراءً عليهم. فالشعب تحت ظلم ذلك الفرد الذي ليس القتل والشنق العاديات بمنتهى عقوباته وتحت نسبة ظلمه إليهم، مكابدون برزيتين أن يظلمهم الفرد وأن لا يعد هو فاعل الظلم، بل الذين ظلمهم كأفهم ظلموا أنفسهم. والاستبداد القديم لا أقل من أنه براء من هذا الاقتراء. والفرق الثاني كون حكم الفرد اليوم انتقل من رأس إلى ذنب ومن عادة إلى عجب، ولست بمائن فيما قلت للمصريين.

أين بحق الفرد بل من عسدم أوجدوه وهو كالقرد مهيس
تعقياً لقول شاعرهم:

حق الفرد وألقى حكمه إن حكم الفرد مردول لعيس

وليت شعري ما قول المصريين في قضية التضيق الذي وقع بأخرة على صحاح الأستانة والحكم على لطفى فكرى بك بسجن ستين. ولو وقفت موقفه في محكمة الاستقلال حين سأله حاكمها عن كونه على ضد الإدارة الجمهورية، لقلت نعم ومذهبي حكم الفرد واستبداده اقتداءً بمذهب الجمهور الذي اختاروا الاستبداد والقضاء على حرية الفكر والاجتهاد لما قبلوا قانون الحياة الوطنية الذي يحكم بأشد الجزاء على من يقول بضد الجمهورية أو يكتب، فجمهوريتنا ليست بجمهورية حرة كجمهوريات العالم، وسلطة الشعب فيها عبارة عن السلطة والضغط على أنفسهم بحجزها عن حرية الفكر والاجتهاد. هذه ماهية تلك الألعاب غير خافية على أولى الألباب. =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

= ولكنها ضلالة مصيرية لا تزول بإرشاد النصح ولا تقبل التصحيح ولا ينكشف غطاء أعينهم وإن مسها المسيح. وحديث محكمة الاستقلال المتعقدة بالأستانة ذو شجون (***). وسنبحث عنها في موضع آخر أيضاً. فإن كان القراء طالعوا الجرائد التركية المنتشرة في أيام المحاكم المائة صحائفها بما نطق به المتهمون والمحامون عنهم والنايب العمومي للمحكمة لرأوا عجائب، ولا سيما عجيبين، وهما القضاء على الدين وعلى الحرية. فمن أقام بيئات ووثائق من حاله وماضيه على أنه لا يفكر بغير الفكرة الجمهورية وأنه لا دين المبدأ والرسم فقد يُعاج. حين أن رضا نور بك وزير الصحة السابق التزم عند شهادته لوليد بك أن يبحث عن عدم اعتقاده بصحة الدين وإن حبابه وحامي عنه في جريدته - توحيد أفكار - لينفعه ذلك البحث. وكان رئيس المحكمة يرتاح بمثل هذه الأقوال ويوسع له إلى ما شاء قائله، كما يضيق على من أعرب عن فكرة دينية وتكلم عن حيمته منتقداً على انتهاك حرمة مثل إبراهيم أدهم أفندي. وبما يملأ القلب أسفاً أن الصحف أيضاً بغت وسعت عليه متفقة الكلام، ولم تشفع له عند المحكمة كما شفعت لمن عدها ولم تأل جهداً فيها، فأسفرت عن عدم تعلقهم بمبادئ الحرية، مثل عدم تعلقهم بالمبادئ الإسلامية.

(*) ينظر هذه الواقعة بكتاب أرمنسترونج "مصطفى كمال أو الذئب الأغبر"، حيث يقول: "كان يهرّب خصومه، فقد كلف شخصاً باغتيال أحد معارضيه، ألقي أحدهم خطبة أيد فيها الخليفة، فهدده بالشنق"، ص ٢٠٩.

(**) لقد أكره الأعضاء إكراهاً على الموافقة على اقتراح مصطفى أتاتورك بفصل السلطنة عن الخلافة، ويروي لنا كاتب سيرته ما حدث بالجمعية الوطنية كالآتي: "فبين مصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يحيل إلى رفضه.. وكان أنصاره مسلحون، وصاح مصطفى كمال - وقى صوته رنة التهديد بينما وضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم: (أنا وأنت من أن المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء، ويكفي أخذ الأصوات برفع الأيدي..)، فلم ترتفع غير أيد قليلة، لكن الرئيس أعلن النتيجة بقوله: (أقر المجلس الاقتراح بإجماع الآراء)، فقفر نفر من النواب فوق مقاعدهم محتجين صائحين: (هذا غير صحيح.. نحن لم نوافق)".

(أرمنسترونج، مصطفى كمال أو الذئب الأغبر، ص ١٩٤).

(***). نعم، إنه حديث ذو شجون، فقد صار أي إجراء أو نقد شغوى للحكومة بعد خيانة عظمى تعاقب عليه محاكم "الاستقلال" بالموت فوراً، حيث قرر أتاتورك محاكم معارضية الذين كانوا من أخلص أعرانه، فأصدرت حكمها عليهم جميعاً بالشنق، بغير مراعاة لقواعد المرافعات والإثبات -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

إخلاء الخليفة عن الحكم والنفوذ والعمل، وانتقل الكل إلى المجلس الوطني أو إلى مصطفى كمال بانتقال السلطة والحكومة إليه وبقاء الخليفة مقطوع العلاقة عنها وعما انتقل إليه المجلس الوطني أو مصطفى كمال. ولو فرض كون هذا المجلس مجلس شورى فليس مستشير الخليفة ولا هو مستشار له لعدم المناسبة بينهما أصلاً. ولم تقع حتى الآن مفاوضات بينه وبين ذلك المجلس في أمر من الأمور ولا مراجعة ما منهم إليه يستأذونه أو يستفهمون رأيه في مصلحة من المصالح. فهل يكون هكذا حال المستشار مع شورا. ومجلس الشورى للخليفة يلزم أن لا يصعد فوق كونه مستشاراً للخليفة في حكومته مع بقاء الحكومة والأجراء في يد الخليفة. هذا معنى المشورة ومقتضى ماهيتها اللغوية والشرعية. فإذا صعد مجلس الشورى وحده إلى حد الحكومة والسلطة وتغلب الخليفة عنهما خرج الشورى عن أن تكون شورى والخليفة عن أن يكون خليفة. وهل يصح بعد هذا أن يقال لمجلس الكماليين مجلس الشورى والخليفة الذي رضى بهذه القسمة الضيزى خليفة.

ولا يتوهم أن مذهبي تعظيم السلطان وتصغير الشورى على الإطلاق كما هو دأب المشغوفين بالحكومات المطلقة، إذ يعرفني من يعرفني ومناظرني الاتحاديين في البرلمان العثماني ودفاعي الذي قضيت به حق الشورى عند البحث والمناقشة على المادة الخامسة والثلاثين من مواد الدستور. وكان الاتحاديون يومئذ ساعين في اغتصاب حقوق المجلس ونقل قوته تماماً إلى السلطان على ضد مسعاقم اليوم،

- المقرة في القانون، ومن بينهم "عارف" صفيه القديم!!

وكانت محاكم الاستقلال في الإقليم تنشر الإرهاب الدموي، فتحاكم المعارضين وترسلهم إلى المشنقة من أجل أنه الانتقادات.. وحين كان القضاء أنفسهم يظهرون تردداً أو ضعفاً كان "الغازي" يهددهم بأقسي عقاب!

(أرمسترونج، مصطفى كمال، ص ٢١٨-٢١٩).

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، وأنا اليوم - كما كنت أمس - ومذمبي إيتاء كل ذي حق حقه.

ثم إنه لا يقاس تنازل الخليفة الجديد، أعني به عبد المجيد، عن حقوق الخلافة على ما تقوله الاتحاديون الكماليون قبل هذا على الخليفة محمد السادس من ضياع نفوذه تحت يد الإنجليز المسؤولة على الآستانة لأنه ضياع اضطرارى حصل باضطهاد الأعداء لا باضطهاد الأحياء، ونحن لم نرض بذلك الاضطرار ولم نسيبه، بل أنتجته غلبة الدول الائتلافية في الحرب الكبرى التي دخلها الاتحاديون على خلاف مرضاتنا. وكنا نحن معاشر المخالفين عند احتلال الأجانب بالآستانة نائين عن أوطاننا مثل ما كنا اليوم أو معتقلين في أيدي الاتحاديين منذ زمان تقدم مبدأ الحرب. وقد أمضى عقد الاحتلال في "مندروس" وزراء مصطفى كمال ويدها اليمنى واليسرى "فتحى ورؤوف"، وكان وقتئذ معظم جيش الدولة المقهقر تجاه جيش الإنجليز البرى تحت قيادة مصطفى كمال. فأولئك الأبطال لماذا رضوا بالذل وخضعوا مهدنة "مندروس" التي هي بمنزلة الأساس المعد لكل مصيبة وملمة بعدها، ومن تلك المصيبات والملمات احتلال أزمير، ولماذا لم يمنع مصطفى كمال صديقيه الصادقين له من عقد تلك الهدنة أو لم يهجم عليهما وعلى هذنتهما إن لم يصغيا إليه بجيشه الذى يقوده، كما فعل ذلك بمعاهدة "سيفر"، لكن الفرق بين الحالتين من حيث إن الحكومة المركزية كانت بيد الاتحاديين في أحدهما فأطاعها وبيد المخالفين في الأخرى فيغى عليها.

نعم، كان ما كان من سوء أعمالهم، واحتل جنود الأجانب الآستانة، وضاع بعض نفوذ الخليفة، ولكنه كما قلنا ضياع اضطرارى يزول بزوال الاضطرار. وما

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

استقر عليه آراء المجلس الوطنى الكبير من تجريد الخليفة عن حكومته وعن جميع حقوقه ونفوذه^(١) فهو ضياع كللى اختياري وقع عليه التواطؤ بين الخليفة وبين صناديد الكماليين، واتخذ دستوراً ناطقاً بافتراق الحكومة عن الخلافة التى كانت تكسوها صفة دينية فصارت حكومة لا دينية بالضرورة. وإلا أى ولن لم يكن المرام هو اللادينية، أعنى عدم تقيد الحكومة بالقيود الدينية التى تتقيد بها الخلافة، فما الذى دعاهم إلى هذا التفريق؟ أسأله عن علماء مصر مرة ثانية فليستلوه عن سادقهم الكماليين إن كانوا ينطقون، هل هو عدم أهلية محمد السادس للحكومة، فإن كان السبب ذاك فليبدلوه، وقد بدلوا بما عبد المجيد واعترفوا بأهليته، ولكن لم يعيدوا إليه سلطته. وإن كان السبب الاهتمام بالشورى فقد عرفت حال الشورى الكاذبة وانتقلاهما عن ماهيتها بتصاعدها فى حد السلطة مع أن الشورى كانت موجودة ومرعية فى الدستور الذى أبطله المجلس الوطنى الكبير ولقبوه بالكتاب الأسود وأقاموا مقامه التشكيلات الأساسية الجديدة، وكان مكتوباً فى ذلك الدستور القديم أن دين الدولة الإسلام، وأن من حقوق السلطان إجراء الأحكام الشرعية والمحافظة عليها. وكنت أستفهم أنه هل استحق ذلك الدستور القديم لقب الكتاب الأسود بما احتوى على مثل هذه المواد، وأسائل المصريين أى مواد جديدة أقيمت مقامها، لولا معرفتى بجهلهم بقدم شأننا بعد اختيار شأقم.

نعم قد انتهز الكماليون أيام كونهم مرتدين برداء الرياء الدينى فرصة الصولة على الدستور القديم من حيث احتوائه على عدم مسئولية الخليفة. والعجب أن مع إخوانى الذين صحبت بعضاً منهم فى سقرى هذا، وبعضهم خلفتهم فى الأستان

(١) مع أن الكماليين كانوا إبان لمحضتهم فى الأناضول غروا الناس وقادوهم إليهم بوعد إنقاذ الخليفة من الأسر وإنقاذ نفوذه من الخسر. (م.ص)

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

والأناضول، والله أعلم بحالهم وبعضهم شقهم الكماليون، كالمغفور له الحاج مصطفى أفندي مفتي آقشهر ومن العلماء الأفاضل، والمغفور له الحاج عبد الوهاب أفندي - نائبي قونيه وبولي - جادلنا الاتحاديين الذين ليس الكماليون إلا منهم لأجل هذه القضية في لجنة الدستور المنعقدة في البرلمان، ولم نأل جهداً في تغيير تلك المادة فلم نستطع، وكان المانع المنعة الاتحادية التي هي صيغة الكماليين الأولى، يعرف ذلك رجال أذكرهم بأسمائهم، وكفى بالله شهيداً. ثم العجب أن المادة القائلة بعدم مسؤولية الخليفة هل تبدلت بعدما أبطل الكماليون الدستور الذي احتواها وغدت قائمة بمسؤولية الخليفة؟ كلا، إنه لم يبق للخليفة بعد تجريدته عن الحكومة شغل رسمي حتى يستل به، فعدم مسؤولية العامل ما هو بأشد غرابة عن مسؤولية الممنوع من العمل.

ومن نقولات من كتب في المقطم الذي نقلنا أشرطة من كلماته فيما سبق وأسهبنا في جوابها: "هؤلاء المصريون هم الذين يقولون، والأسف ملء قلوبهم والدموع تفرق في عيونهم إنكم ومن على شاكلتكم من أسلافكم أنتم الذين فرقتم شمل الإمبراطورية العثمانية الضخمة التي مدت ظل الإسلام سيوف السلاطين الفدحام".

وأنا أقول يا مصري ويا أزهري: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" (١)، وقل ما جرى على لسانك، وإلا ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، إن كان كل ما تعلمه هكذا.

(١) والحديث بالكامل: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت." (رواه البخاري).

تقويم سياسة الاتحاديين والكماليين الداخلية والخارجية:

فما البيض إلا السود والنور ظلمة وذو الجهل دار والضير بصير

فالذين فرقوا شمل الإمبراطورية العثمانية الضخمة، هل هم نحن أو الذين قضينا حياتنا السياسية وديوننا الوطنية والإسلامية بمخالفاتهم ومجادلتهم ومخاطبتهم وهم الاتحاديون الكماليون^(١) الذين وضعوا أيديهم على تلك الإمبراطورية العثمانية

(١) وقد حرينا من أول كتابنا إلى آخره على الحكم بعدم الغيرة بين الكماليين والاتحاديين، وهو الحق الذي لا شبهة فيه لنا ولا لأحد بتعرفهما من قريب، بل هما عبارتان عن شذمة مختلفي العروق والأجناس اتفقوا على احتلاس سلطة الدولة العثمانية وحصرها وحكروها لهم بقصد المنافع الذاتية، أما ما أصبح الحال في نتيجة ذلك الحصر والحكم، ولو اضمحلل الدولة وخراب بلادها وضياع نفوس أمتها^(*)، وقد اتسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقي وانساقوا خلف أشخاص مثل طلعت وأتور وجمال. وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت في حاشية مصطفى كمال فتسموا بالقوى الملية والكماليين وجمعية مدافعة الحقوق وحزب الخلق وتناشوا اسم الاتحاد وتناكره، وما هم بأعيانهم، ولم يدع واحد من الفريقين شيئاً من العتاف والتناظر بينهما، بل هما بأجمعها حصراً جهدهما في معارضة المخالفين إلى حزبي الحرية والائتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة.

نعم حدث بوسيلة فسخ المجلس الوطني بأنقرة وعرض أعضائه الجديد في معرض الانتخاب اللفظي حديث الخلاف والمنافسة بين الاتحاديين والكماليين كأنهما بران منذ كانا، حتى شنع الكماليون على الاتحاديين ورموهم بجنابيات ثقيلة وطنية طالما كان يرميهم بما معارضوهم القدماء. فمن ذلك ما كتبه "فالح رفيق بك" نائب "بولي" و"كاتب جريدة" "أقشام" من مقالة رئيسية يصول فيها على حسين حناهد بك كاتب "طنين" وصاحبها الاتحادي الشهير، قائلاً:

"إن حزب الاتحاد والترقي بعدما عفا السلطنة العثمانية فر بالدمرة الأجنبية من طريق (بوسغو وسلم الأمة إلى الأعداء (جنود إنجليز والفرنسيين والإيطاليين واليونان، يمكن ما وقع في منتهى الحرب الكبرى عقب هدنة "منتروس"، وهذا الخرب هو الذي أشقى الأستانة في معاهدة -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

«لوزان وتركتها مع المضايق من غير دفاع (يعني الذي سبب حصول الأضرار إلى عقد الصلح بذلك الشكل هو هذا الحزب من حيث دخوله الحرب الكبرى التي هي رأس كل خطيئة ورزية)، وعليه مسئولية أخرى قرية احترقت بساحل بحر "سقاريا" (الجارى تحت أنقرة وكان غاية ما امتدت إليه معركة اليونان في الأناضول)، ولو علم يتامى الحرب أين الآن ذلك الحزب لحق لهم أن يستلوه آباءهم الذين قتلهم وهم مئات ألوف بدل أن يسألوا الحكومة الفقيرة سعادتهم، وكل ضحرة أو شقوة أفلقت بلادنا مثل عطالة موظفي الحكومة من الأعمال والوظائف وضيق المعاش والمعيشة العام واضطرابات الحرائق وشذائد المجاعة وسائر أدوائنا التي تنتقد على الحكومة بعدم مداواتها، فمستولها الحقيقي هل هو في أنقرة أو في حزب الاتحاد».

"إن البحث عن مسئولية الاتحاد والترقي حق موبد لكل أحد، وإن ذلك الحزب المسئول المجرم بهذين الوصفين مبحث مهم ومستقل في تاريخ الترك العمومي"، أقشام، ٢٨ ديسمبر ١٩٢٣م.

وهذا هو أول اعتراف وقع من الكماليين بذنوب إخوانهم الاتحاديين مع ما يرون أنفسهم برءاء منهم ومن ذنوبهم. ولكننا نقوم لهذا الاعتراف أهمية عظيمة ونسجله حجة قاضية على الاتحاديين والكماليين معاً، ضاحكين من ادعاء براعة الكماليين من الاتحاديين وأفعالهم، فلقد تأخر الكماليون في تصديق جنابيات الاتحاديين تأخراً يكفينا للبرهنة على أنهم شركاؤهم فيها، بل هم أنفسهم المتناسخون عنهم، الآن أحرم الاتحاديون على الوطن وضحوه في سبيل أغراضهم وأهوائهم؟ أو قبل هذا بعدة سنين، سيما وقت دخولهم في الحرب العظمى ووقت خروجهم عنها واقرار ما هم مقترفون في غضونهما، فوقعت منهم تلك الوقعات وممرت عليها السنوات، حين كاد ينسى آثامهم وأصابعهم، فهل صدرت إلى هذا الآن ممن تسموا باسم الكماليين كلمة اعتراض أو حركة معارضة إلى هاوية البوار؟ فأين مصطفى كمال وفتحى ورأفت ورعوف وعصمت وكاظم قره بكر.. وغيرهم من الذين تخضع لهم رقاب الأمة وتقلب بين أصابعهم الدولة، إن شاعوا عصوا السلطان وبغوا عليه وأنزلوه من عرشه وعزلوا جميع آل عثمان من السلطنة وتلاعبوا بالخلافة الكبرى الإسلامية وخلوها من نفوذها.. ولماذا لم يعصوا الاتحاديين ولم يخرجوا عليهم عندما رأوهم يجرّون على الوطن مضترات وخسارات اعترفوا بها بعد خراب البصرة وبغداد والشام وحلب وبيروت والموصل والحجاز وطرابلس غرب، وعندما أحلوا القوات الأجنبية الآتية الدردنيل بالفعل وأرمر بالقوة، مع أن انتقال مسئلة أزمير فقط من القوة إلى الفعل في زمن السلطان وحيد الدين عد كافياً في جزائه وإخزائه قبل الاتحاديين، والحال أن آفة أزمير جزء من =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

= معشار ما اكتسبته أيديهم، كما سنوضحه بتمامه، وهل كل أصحاب الأيدي الأثيمة التي فعلت هذه الأفعال الجسيمة عبارة عن طلعت وأنور وجمال فقط؟ كلا، بل زعماء الاتحاد كهؤلاء فعلوا ما فعلوه مستندين إلى قوة الحزب الكامن بين القواد العسكرية، وهو عين القوة التي يمثلها الآن مصطفى كمال، وأقول لفاخ رفقي بك ما أدراك بهرائم الاتحاد والترقي؟ أين أنت من ذكرها إلى هذا الآن؟ وأين كنت في زمنهم؟ أليست منهم حين قضيت شباب عمرك ما عمروا في خدمتهم عامة وخدمة جمال باشا قاتل العرب والترك خاصة كما احتلت الآن وتوغلت بخدمة مصطفى كمال باشا، وكيف نسيت باشاك القديم باشاك الجديد حين يقول رحم الله الباشا الأول والنباش الأول.

ولكل أحد حق البحث والتفتيش عن جرائم الاتحاد والترقي كما قال (فاخ رفقي بك) إلا نفسه وإلا الكمالين، لأقم ليسوا بخيرهم، وكفى مقهوماً له بأن الكمالين ليسوا غير الاتحاديين كون فاخ رفقي بك نفسه من الكمالين، ومن كلامه: "لو علم ينامي الحزب أين حزب الاتحاد والترقي..."، فأين الآن حقيقة ذلك الحزب الأعظم؟ وما هو عبارة عن حسين حاهد بك فقط، أين تغيبت أركانه وأعضاؤه وأفراده التي كانت تبلغ الملايين من الملايين، وأنا أذكر هؤلاء ينامي ألهم يلقون في حزب الاتحاد والترقي أن تخروهم في حزب الكمالين كما ألقوا فاخ رفقي بك فيه، وقد بحث في مقاله عن هدنة (مندروس) وأراها كحجة الإعدام على الاتحاد والترقي، ولم يذكر من عقد تلك الهدنة ووقعها، ونحن حاثرون في أن يعوق بك رئيس الوكلاء السابق لحكومة أنقرة وفتحى بك رئيس الوكلاء ثم رئيس المجلس الوطني الكبير هل هما اتحاديان أو كماليان؟

ومع هذا الاحتلاط والامتزاج الصميم والعميم بين رجال الكمالين والاتحاديين لا فرق بينهما من حيث المبدأ، مع أن التمايز بين الفرق السياسية إنما يكون باختلاف المبدأ مثل ما كان بينهما وبين مخالفتهما في حزبي الحرية والائتلاف، فكلامهما متفق في نزع السلطة عن الخلفاء والسلطين، ومنحها لصناديده تحت ستارة منحها للأمة، بل كلامهما جمهوري كما اتضح عما جرى من الأقوال عند محاكمة صحافي الأستانة في محكمة الاستقلال، وكلامهما لا دين يرى للناس تارة بوجه طوران متعصب الجنسية وتارة بتقدمات البلشفية، وتارة في سبيل الإسلام ومنحبه وكلامهما مفرط في دعوى الحرية بلطفه وقاتلها بفعله، وكلامهما مولع بالحرب والقهر وطرائق المخرج والمخرج غير باذل في كل ذلك عن نفسه وماله، بل مثل ما جدح جوين من سويق خيره، غير متضرر ولا مستحي من خيره، ولكن عجز القدر المعلى من خيره، وكلامهما حائض في غمرات الظلم =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

- واليغى وإن عبرا خصومهما بسياسة الشدة والتدمير، والحال أن عهدهما هو الذى امتلأ بهم وفاض، ويعلم الله وكل واحد في تركيا أن غيرهما لم يأت بعشر عشر من معشار ما أتيا به من الشدة والتصف، حتى أن الذى غلبهما على معارضيهما عدة مرات هو عدم شفقتيهما على معارضيهما ورفق معارضيهما بهما.

ومن حديث الدلائل على ألهما متحذان، انتهاء محاكمة الصحافيين في محكمة الاستقلال بالبراءة، ولو كان الاتحاديون من غير الكماليين أو من أهل الديانة حقيقة (كالوليد) لقضى عليهم، وما رأينا كاهستام أهل الأستانة بتلك المحاكمات وقلقهم للإطلاع على نتائجها إن صح ما كتبه صحفها، كأنها أول محكمة استقلال انعقدت في تركيا، وكان أحوالها الكثيرة لم تشق قبلها من أعيان البلاد وأبرارها مئات وألوف، وكأنه لم يوجد في تركيا من يعيا بهم وبمخالفهم ومخالفيهم غير حسين مجاهد بك ووليد بك، حتى أن محكمة الاستقلال لما حكمت براءة ساحتهما صارت أعدل المحاكم، بالرغم من إسرافها في قتل نفوس آخرين، وحتى حكم بعدائنها في ذلك أيضاً. ورأيت إسمان المحاكمة مقالة في (طنين) لفاضل أحمد بك يعرف فيها نفسه بأنه يعبد الخطارة ويتجنب التعصب ممن أى نوع كان، ثم يطرى في فضائل حسين مجاهد بك ووليد بك، وما سبقت له المقالة أعادتهما عن سطر الحكم عليهما، ويغيب عن مقالة فاضل أحمد بك وإن لم يغيب عن نفسه ألهما كانا في زمنهما وهو زمن الاتحاديين لا تهنر قلوبهما يقتلى المحاكم العرقية ظلماً، بل يشجعان حكوماتهم بأقلامهم إلى أمتال تلك المظالم.

وصفوة الكلام أن الكماليين ليسوا بأغيار الاتحاديين، وأن النهضة الكمالية مرتبة ومدارة لإحياء ميادئ الاتحاديين، بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أمانوا الدولة العثمانية الكبرى في الحرب العالمية، وأن الاتحاديين الذين هدموا الإمبراطورية العثمانية على ما اعترف به لدى الكماليين لو لم يكن الكماليون منهم ومعهم في أفعال الهدم على ما نينا ثم لم يزيدوا عليهم بدم الخلافة الإسلامية أيضاً كان لهم حق التصحيح على الاتحاديين، وكلا الحزبين في الحقيقة من جنس واحد، وكلاهما غير مستند إلى القوة للشرعية التي تستند إليها الأحزاب السياسية وهي القوة غير المسلحة، أعين بما قوة الشعب وقوة الانتخاب المبني على المحبة العامة، بل منبع القوة في كليهما عبارة عن الجيش، وكثيراً ما يؤكد ذلك بقوة اللصوص، بيد أن «العسكر» كان في زمن الاتحاديين بمنزلة الآلة وقوة الظاهر لسياستهم، ففرقت تلك الآلة في الدولة الكمالية وغدت عاملة بنفسها، وربما كان يشام في زمن الاتحاديين بعض من علامات المنافسة والمطالبة بين فرعيهم العسكري =

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العثمانية

= وغير العسكري فينظم الميزان بمذاقة طلعت، والآن رجحت كفة العسكريين، فلعنة الله على الاتحاديين، ألهم أدخلوا السياسة في الجيش فسبوا هذه السنة السيئة فينا وصاروا آفة على الدولة، ثم صار الجيش آفة على الدولة وعليهم، وتدخّل الجيش وتحكمه في سياسة الدولة هي الطامة الكبرى والبلية التي لا يقاس عليها بلية، بمنزلة أن لا ينقاد سلاح المرء له ويصير عاملاً بنفسه، فإن شاء يستأجر عن صاحبه وإن شاء يتقدمه وإن شاء يتوجه إلى حلقه فيصيب صاحبه، والجيش عند استقلاله مثل هذا السلاح ذو حركة عمياء، وإذا كان يصدر منه في حين من الأحيان ما يعجب الناظرين وراءه فلا يدرون ما يتضمنه وراءه، ومن هذا القبيل فتح أزمير لأتوم مع ما خربوا في سبيله من البلاد وخربوه نفسه طاشوا وعثوا بذلك الفتح واستكبروا وخرجوا على الخليفة والخلافة بإخراجها عن وضعها الشرعي وعلى الحكومة بجعلها لا دينية، وأصبحت آفة على الدين والدولة وأفراد الأمة من المسلمين وغيرهم، ولا تحسّن الآفة انحصرت على غير المسلمين لانضمامهم إلى اليونان ومن المسلمين على من التحق بهم لفساد حيلتهم، وهم بعض الأتراك وأكثر الشراكسة، كيف يكون هذا الحال، وكيف تؤمنون باتفاق المؤمنين أفراداً وأقواً مع الكافرين، أولئك الشراكسة المتوطنون في الأناضول وهم من أهل السنة والجماعة ورايتهم بدينهم أقوى وأقوم من رابطة الكماليين السلافيين بلا شبهة، كيف يتصور منهم بأجمعهم أو أكثرهم ومعهم علمائها من سكان المدن والقرى أن يغتالوا دولة الإسلام ويتحزبوا مع اليونان، وحقيقة الأمر لهم وكذا من ثار على الكماليين من الأتراك الأناضوليين من أهالي (بوزغاد) و(بورقير) و(زغفرا نبول) و(كرمندة) و(كويه) و(بكيازاري) و(نعللوخان) و(وقوچكير) و(مودرى) و(قونية) مع ١٤ من بلدانها ما أطاقوا أن يهيموا على طيشهم وبطشهم واعتدالهم على الأموال والأنفس وأحسوا حركاتهم اللادينية باسم الحركات المالية وخروجهم على السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية فثاروا عليهم وانتصروا منهم ﴿ وَلَمَنْ أَتَضَرَّ بِقَدِّ ظُلْمِهِ فُلُوكُكُمْ مَا عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إِنَّمَا أَتَشِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَتْلَوْنَ فِي الْأَرْضِ بُحْرًا لَمَحَقًا ﴿ [الشورى: ٤١]. والظلم والبغي مردودان على صاحبيهما وإن كانا مؤولين بوقوعهما في سبيل فتح البلاد، وبعد فتح لاحق لأحد أن يحتل رقاب الناس بغير الظفر ويتعدى على دينهم وديارهم ويكرههم على السكوت عن الحق ويسلب عنهم حرية الكلام والاحتجاج والانتخاب، لأن المقصود من الفتح إعلاء كلمة الله وكلمة الحق وإسعاد العباد وإعزازهم، فإذا كان الفتح محلاً لهذه المقاصد وهادماً لها فضلاً عن أن يخدمها وجراً الظالمين على تشديد الظلم والتضييق على عباد الله فوجوه أشأم من عدمه وإلته أكبر من نفعه =

الأسرار الخفية وراء إلغاء البلقمة العلمانية

= واعتداء الكماليين في الأناضول قبل الفتح وبعده على الأموال والأنفس مما شاع وذاع وبلغ حد التواتر، ومع ذلك صار سبباً لازدياد من يتبعهم.

ومن يقف آثار الهزيم يزل به طرائع حمر الوحش إذ هو واتسع

ونحن نعلم - ويعلم غيرنا - أن كثيراً من الضباط العسكرية والاحتياطية بعد الهدنة ارتحلوا إلى الأناضول والتحقوا بمحسني كمال لاكتساب الغنى والتخلص من ضيق المعاش الذي طالوا أفلقهم في الآستانة فمالوا ما أرادوا، وبما كان سبباً لخللان حكومة السلطان وحيد الدين عدم إشباعها الضباط العسكرية من أموال دولة حرب وافتقرت، ألا ترى أن الحكومة الكمالية عينت حل أموالها ثم وزادت في مهابتهم بما لا تسمح الحكومات المليّة فضلاً عن الحكومة التي هي أمتها وموظفوها غير العسكرية في اضطراب ومضض عظيم من الفقر والمجاعة، هذا مع كون أغلب النواب في المجلس الكبير الوطن من أولئك الضباط.

والكلام في أنه لا يأتي الخير من حركة الجيش بإرادة نفسه، والتمرد العسكري كم أعياء الدولة وأعجزها في تاريخها باسم (بكيحريلر) ودامت بلبتهم ومعضيتهم في عهد كثير من السلاطين حتى استأصلهم السلطان محمود وخلص الدولة من فتنهم، وكانت الغاية المطلوبة من التشكيلات العسكرية في كل مملكة وجود صنف متعهد لخدمة حراستها وحراسة أهلها بأموالهم وأنفسهم وحريتهم وسائر حقوقهم السياسية والمدنية من تعرض الأعداء، فإذا أخذ العسكر يتحكم ويتعدى على الأمة انقلب الخادم حاكماً وصارت الأمة جهزت أعدائها بأيديها على ظن أنهم حرسوها من الأعداء، فالعساكر الذين أعددتهم واستأجرتهم لصيانة أنفسنا وأموالنا إذا هم أول المعتدين علينا بأسلحتنا، وهم الذين كنا رجونا بهم لحفظ استقلالنا وأموالنا وحريتنا وأمتنا، فإذا مقدساتنا تلك ألغيت بأيديهم ونحن أذل في أسرهم من كل ذليل، قال الشاعر:

وكنت أعبدك للتألمات فما أنا أطلب منك الأمان

والحاصل أن الجيش الضام أخذ يتفسخ بمرض السياسة في زمن الاتحاديين وبلغ التفسخ غايته في زمن الكماليين، وإن الدعوى المستحدثة المنبئة بالتعايرين الكماليين والاتحاديين دعوى باطلة لا تسمح، فإن كان بينهما فرق فما هو من حيث حيث الاتحاديين وطيب الكماليين، بل من حيث إن الكماليين أحيث وأشنع من الاتحاديين وبلىة على الدولة والأمة أشد منهم، فالإتحاديون كانوا ظالمين وسفاحين من الدماء الحقونة، والكماليون أظلم وأسفك، وكان الفريق الأول مستبدين متغلبين على آراء الأمة في عهد حريتهم، والكماليون أشد استبداداً وتضييقاً على الأمة في عهد =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

- السلطة المالية، فكان تناقضهم مع الأمة واستهزاؤهم بها فوق تناقض الاتحاديين واستهزائهم، وكان الاتحاديون لم يزالوا غاصبي الوزارة، والكماليون ترفقوا إلى غاصبي الوزارة، والكماليون ترفقوا إلى غضب السلطنة، وكان الاتحاديون لا دينيين مندرجين غير مجاهدين، الكماليون متسرعون ومجاهرون في الإلحاد، فهم أضر منهم بدنياً ودينياً، وأما الفرق بين الفريقين من حيث إن الاتحاديين سبوا إضاعة أزمير والكماليون استردوها، فإنما هو أمر تنحدر به النظرة الخمقاء، لأهم كانوا مع الاتحاديين حين ضيعوها كما ذكرنا، ثم إقم حين استردوها، استردوها له أنفسهم لا لدولتنا ولا ملتنا، دولتهم غير دولتنا، وملتهم غير ملتنا، ولمنا منهم وليسوا منا، وتستمع منا مزيد تشرريح وتوضيح في مسألة أزمير.

ونتيجة هذا البحث أن حديث الغربة بين الاتحاديين والكماليين على أن الاتحاديين من شرار الناس هادمي الوطن والكماليين عيارهم عادية غلطة من الغلطات وترعة من الترهات، وحقيقة الحال ما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمُ الْكُفْرُ الْكُفْرَيْنِ يَتَقَتَّلَ﴾ [النساء: ٨٨]، وأنه اعترف بجنايات الاتحاديين من قبل الاتحاديين ولات حين منة لذلك الاعتراف، فليته وقع إبان إيقاع الاتحاديين تلك الجنايات فكفهم عنها أو عن بعضها، ومما ينبغي أن تدوب لثله القلوب من كمد أن كثيراً من المسلمين لاسيما المصريين لم يعترفوا بجنايات الاتحاديين إلا بعد ظهور أشدهما بغير، كفضية النبش الأول، وهم يعكس القضية يعظمون الشر والظلم ويقدمونه حال كونه شرّاً وظلماً بالفعل، ويقبحونه بعد انطفائه وانقضاء أوانه، فكأنهم أسخطهم انقضاؤه وسقطه عن العمل، ألا يرى أنهم يمحلون بعده ما هو أضر منه وأظلم، ويطرونه، أو كأنهم أسقط الأولين عن أعينهم تفوق الآخرين عليهم في الظلم والعدوان، وهذا غاية في الضلالة والركون إلى الظلمة الذي شدد الله تعالى في فيه وقده العياذ به، وقد كان المصريون قبل هذا يعبدون رجال الاتحاد مثل الأتور، والآن أعرضوا عنهم وعدلوا إلى الكماليين فسبكفرون بعبادتهم ويكفونون عليهم ضدّاً كما كفروا بعبادة الاتحاديين، ولكننا نستعيد بالله من تجدد آفتهم مرة أخرى، حيث لا يصير ذلك إلا بعد امتلاء رجل على بلادهم أظلم وأطغى من مصطفي كمال، ولعل للمصريين حالة مرضية مزمنة توارثوها من تاريخها القديم يعجبهم كل فرعون عملا في الأرض ﴿وَيَحْمِلُ أُمَّهَاتُ حِمَمًا يَمْشِيْنَ كَظُلُمٍ فِى تَبَعٍ أَعْيُنُهُمْ﴾ [م.ص]

(*) ينظّر تفاصيل حركة الانقلاب على السلطان عبد الحميد بواسطة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي =

السرار الخفية وراء إلقاء الحلقة العلمانية

الضخمة قبل بضعة عشرة سنة وتسلموها من يد المغفور له عبد الحميد خان، وهي إذ ذاك تمتد من بصرة إلى سراى بوسنة ومن اليمن والحجاز إلى طرابلس الغرب، مع ما لها من الجزر الكثيرة في بحر ايجة، فتصرفوا فيها كما يشاؤون ولم يقبلوا نصيحة ولا شركة رأى من أمة أو خليفة مع كون حكومتهم مشروطة في الادعاء ومن جهة الأسماء، وأساعوا المعاشرة مع أبناء الوطن، فأوقدوا نار الحرب في داخل المملكة وبين عناصرها من ألبانها وأكرادها وسراكسها وعربها بل وأتراكها. ثم إنهم كما أساعوا وأفسدوا المعاشرة في الداخل أفسدوها أيضاً في الخارج، فبدلوا في عشر سنين أكثر من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول، حتى دخلوا الحرب الكبرى من غير ضرورة، وغلبوا فيها، إلى أن سلموا الأستانة وهي عاصمة الإمبراطورية إلى عساكر الأعداء، ولم يبلغ سائر الدول المغلوبة مبلغنا في إضاعة النفوس والبلاد لم يحصل الأعداء إلى عاصمتهم، ومع هذا فهم لم يروا غير الخضوع لأحكام المغلوبة أسلم وأنفع لسياستهم، وبينهم الألمان الذين علت أسماؤهم في الحرب الكبرى وغلت

١٠٠- (١) - وآثارها على الشعب التركي - بكتاب أرمسترونج السلاف الإشارة إليه (ص ٣٧ وما بعدها) - حيث يقول: "وكان الشعب التركي يتهم الحكام الجدد بالإلحاد واعتناق المبادئ البائسة الهدامة، كما يتهمونهم بأنهم يهود وماسونيون وليسوا أتراكاً ولا مسلمين، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الإسلام والحلقة"، ص ٣٨-٤٠.

ويقرز الدكتور محمد بديع الشريف أعضاء هذه الجمعية فيذكر أن العدد السائد فيها على الترتيب: الأتراك ويشكلون الأكثرية، ويلقبهم اليهود في الكثرة، ثم تأتي بعد ذلك الأجناس الأخرى. وهم كما رأينا أصحاب حركة الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد. (الصراع بين الموالى والعرب، ص ١٩٧).

وقد تنبه الشيخ مصطفى صبري مبكراً جداً - ربما أول من تنبه إلى تلك الحقيقة، أي نفوذ اليهود الفعّال داخل الجمعية واستخدامها لباقي الأعضاء في تحقيق مآرهم حيث يخربون بيوتهم بأيديهم، أسفا على أعضائها من المسلمين الذين استخدمتهم القلة اليهودية في تحقيق مآرهم!!

السرار الحقيقة وراء إلغاء البلقنة العثمانية

قيمتهم الحربية حتى صاروا مثلاً سائراً في فنون الهجاء. ولا يتحاصر رجل من رجالات السياسة والدولة وهو يتعمق في محاسبة نفعها وضررها وبعد خسارة خسار نفسه أن يضع الوطن على خطر حرب جديدة ضد الدول اللاتي حاربونا وغلبونا واعترفنا بجهلهم بالمغلوبية بتوقيع هدنة "مندروس" وتسليم العاصمة إلى جنودهم، مع أن هذه الحالات والخسارات كلها وقعت بأيدي الاتحاديين والكماليين معهم في ذلك. حتى لما فروا عقب الهدنة من الأستانة وتركوا الوزارة فتولاها مخالفون العائدون من المناق والمهارب فوجدوا البلاد في جرف هار وأولادها جرت بلا جدوى من دمايتهم الأتغار. فلا جرم يعد معاينة الحرب والمغلوبية فيها حال كوفها كسب أيدي الاتحاديين رجحوا خطة الصلح والاستسلام مثل كل واحدة من الألمانين والنمساويين والبغار بين زملائنا في الحرب والفشل فيها، وقالوا:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هي عنها بالحديث المرحم

نعم كان عند ذلك طريق آخر، وهو أحداث حرب ثانية دائرة بين تلاق بعض مما ضلح في الأولى أو إتمام المحو على الباقي، مع كون الاحتمال الأول بعيداً والثاني مؤيداً بالحرب الأولى التي أفادت علماً تجريبياً لما بعدها وأفنت القوات الموجودة عند الدخول فيها، فلا بد لتجربة هذا الطريق الذي هي عبارة عن تجربة المحر، وضحية التجربة الأولى ضاحجة ملقاة أمام أعينهم، من رجل لا تجل به الندامة عند بحية التجربة الثانية، لكونه مجازفاً غير تام العقل أو العلاقة بالدولة والملة، حتى أنهما لو كانتا ملكه لأمكن أن يعذر ما فعله بهما على التهور وسماحة النفس، ولا كذلك سياسة الدولة التي هي مبنية على المصالح العامة ومتعلقة بحقوقهم التي هي ودائع الله.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

والذين يعرفون الاتحاديين - ومنهم الكمالين - يعرفون أنهم متى اضطروا إلى الانسحاب من دست الحكومة يعملون أقوى عُدة لهم ووسيلة لإسقاط من خلفهم واسترداد ما فاتهم من دست الحكومة إغراء الدولة والأمة بالحرب.. فإن خاف من تولى الحكومة أن تخسر الأمة والمملكة في الحرب فاجتنبها يعدون هذا المنهج ذنباً عليه مقسراً بتفسيرات مختلفة من العجز واحتمال الذل وتتصاعد إلى خيانة الوطن وبيعهم، فلا يفلح تحت هذه التهم فيتدهور، وإن دخل الحرب فالجمعية السرية المؤلفة من ضباط الجيش وقواده المرتبطة بهم لا يبذلون جهدهم في الحرب للحصول على الظفر، بل يسعون للهزيمة معاكسة ومحاداة لمن أخذ بيده زمام الحكومة من شخص أو حزب حتى تكون الحرب وبالاً عليه كما كان اجتناها وبالاً، وهم جربوا هذه الحيلة ذات الوجهين مرتين فففعهم كلا وجهيهما في خذلان خصومهم، لأنهم قضوا على وزارة المرحوم داما فريد باشا، بل وسلطنة محمد وحيد الدين باجتناب الحرب بعد هدنة الحرب الكبرى، ونحن نعلم ما يعلمه غيرنا أيضاً من ذوى الخبرة في تركيا أنهم كيف اجتهدوا إبان حرب البلقان في إفساد الجيش من داخله وخارجه حتى دخل فيه (طلعت) بالذات متطوعاً، ومن المعلوم المحزوم عندنا وعند أصحاب الدقة أن ضباط الجيش المنسوين إلى الشركة الاتحادية التجارية إنما يحاربون لنفع شركتهم لا للدولة، حتى إن الحرب التي أصبح اجتناها بعد الهدنة تحمة عظيمة وويلاً وئبلاً على المرحوم فريد باشا والسلطان وحيد الدين لو دخلوها لما عززها وما نصرها هؤلاء الضباط في طريقة الحرب، بل اجتهدوا في مخاذلتهما وتخجيلهما عند الأمة بإيقاعهما هاوية الهزيمة الحربية مثل ما فعلوا بالمرحومين الغازي مختار باشا وكامل باشا، وإنا لا نرتاب في هذا الحكم ولا نبالغ، وأن هذه النقطة كانت مما يجب أن لا تغفل عنها الوزارة التي خلقت وزارة الاتحاديين بعد الهدنة ورأت نشأة الكمالين

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

المُتحدِّين مع الاتحاديين مثيرى الحرب الجديدة وسائقى الدولة إليها، وإطاعة كثير من الضباط العسكرية وصدائقه للاتحاديين أو الكماليين دون غيرهم لا تعد ميزة لهم وتقيسة لغيرهم، بل هى وليدة جنائتهم العظيمة من إدخال السياسة والتحزب مع الأحزاب السياسية فى الجيش، ولذلك تراهم متى تولوا الحكومة ينثرون أموال الدولة الفقيرة ويبدرونها فى تزويد ماهيات الضباط العسكرية ويقتلون الأمة والموظفين غير العسكريين مع الأفراد العسكريين من إملاق، والحكومات المؤلفة من سوى الاتحاديين والكماليين لن يمنحن هذه الدرجة ولن بمنع بالضرورة، فهم وشركاؤهم فى مناص الحكيم والنفوذ عند الجيش اتخذوا الدولة والأمة برقيتهما ملكاً لهم وبحارة إن احتصوا بهما فيهما ونعتما، وإلا فالدمار والخراب عندهم أولى لهما.

وهكذا كان موقف وزارة المخالفين عقب هدنة الحرب العالمية لقاء رجال الدول الغالبة الذين قرروا فيما بينهم احتلال حليقهم اليونان بأزمير وكلقونا المطاوعة على قرارهم جزاء بما كانت اليونان وقفت بجانبهم ووقفنا نحن بجانب أعدائهم فى الحرب التى دخلولنا فيها فعل الاتحاديين والكماليين، وحادثة أزمير وليدة فعلهم ذاك عريقة النسب، وكانت الدول فى ذلك الحين مجتمعين ومتمثلين فى تلك الحالة النفسية من التحبب والبغضاء، وتقلب أفكار الفرنسيين أمر حادث بعد تقلب الحال فى اليونان بين فنسزيلوس وقسطنطين، وبعد هذه التحولات المساعدة لنا، ومع أن إقامة اليونان بأزمير لم تكن أمراً باتاً ليس لأحد أن يدعى أن استردادها منها لم يكن ممكناً بوسائط سياسية خالية عن التخريبات الحربية الهائلة الشاملة لنصف الأناضول، ويؤيد ذلك أن رجال الدول الائتلافية قرروا فيما بينهم فتح أزمير بعسكر مصطفى كمال رده إلينا وإخراج اليونان من أناضول، حتى أن شيوع مقرر الدول المذكور بين عساكر اليونان آيسهم وأخل بقواهم الروحية، وكان تأثير ذلك

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

في الخزامهم - مع الخطأ الفاحش الذي وقع فيه قائدهم العام من سوق خمسين ألفاً من جنودهم التي في الأناضول إلى جهة الروم ايلى - أكثر من استيسال مصطفى كمال، وهم قد وصلوا قبل ذلك ظافرين إلى فناء أنقرة، ومما يجب أن ينبه عليه أن مصطفى كمال كان يذكر اسمه بالتعظيم أيضاً حين ما تأهب للقرار والتقهقر عن أنقرة، وهذا يدل على أن الذين أنشأوه ليحمد ويعظم مطلقاً على حد قوله:

فهم صمدوا دنوا وصلوا جفوا غدروا وفوا هجروا رثوا لضانائى

ثم إنه لو لم يخطأ اليونانيون في السياسة وإدارة الحرب ولم تنقلب الغلبة عليهم بأسباب يؤول جلها إلى التصادف، وقد عدت الصحف الكمالية غلبتنا من المعجزات التي لا يجوز الدخول في مهالك الحرب ثقة بها، فكيف كانت بنا الحال والعياذ بالله من تمام الاضمحلال، وهذا الاحتمال يجب أن يهتم بشأنه ولو بعد وقوع خلافة معجزة أو مصادفة عند من له علاقة صحيحة بما ينفع وطنه أو يضر، فيتقى كل الانتقاء أن يركب به الخطر لا عند من يعود إليه شرف الظفر ولا يتصل به ضرر الهزيمة، لما قلنا في أولى مقالاتنا من أنه كالمقامر بمال غيره، فله حراً فوق حراً رب المال، ومن ذاك القبيل مصطفى كمال وإياك أن تغلط في القياس، فإن لم يظفر بالغلبة على أعداء الوطن فله الظفر باغتنام الأموال المنهوبة في سبيل تخليصه، فإن لم ينزل بعد الحرب قصور السلاطين فله النزول بكنندات أوروبا التي لا تقصر عن تلك القصور زينة ورفعة، كما وقع لرؤساء الاتحاد الذي ولد الكمالين ومن يشابهه أباه فما ظلم.

ثم إنى أرى من الواجب أن أفضى حق التدقيق في مسألة أزمير التي عليها مدار فخرهم وتيجهم، فأقول زيادةً على ما قلت فيما سبق أولاً:

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

إن ما سلك في سبيل هذا الفتح من دماء المسلمين فنحن أحنّ لها.. وهي أقرب إلينا منهم.. وكذا كل حرب دخلتها الأتراك وجدت أكثر النفوس المستهلكة فيها من غير الاتحاديين والكماليين^(١) وإن كانوا هم البادئين بها والحائزين عليها.

وإذا فتشت أيضاً وجدت لكل من خالفهم شهداء من أنفسهم وأقاربهم.. ولا تجد ذلك من الاتحاديين والكماليين السلانيكيين، ومن جراء هذا تراهم بعد الحروب التي تركت الأمة ضعفاء أقوياء وتراهم دائماً مشغوفين ومشغولين بالحرب مثلاً: إن الحرب العظمى التي ساقنا إليها الاتحاديون حسبنا أن في عاقبتها الأليمة خزيهم واندراسهم، فإذا هم أعزة وذوو قوة وثروة فوق ما كانوا عليه قبل الحرب، ومن هذا يعلم أنهم يكتسزون لأنفسهم حياة مدخرة لما بعد الموت حين ما يسوقون الناس إلى الموت، فهم لا يموتون في الحرب، بل يموتون الناس ليعيشوا بعدها.

وأقول ثانياً: لمن هذا الفتح؟ ولماذا هو؟

(١) هل هي حروب مصطنعة للقضاء على خصومهم؟

تسرك الإجابة لأسئلة التاريخ، فإن تاريخنا المعاصر بالذات يحتاج إلى إعادة كتابته لإظهار الحق وكشف التفسير المزور المكتوب على أعين الاستعماريين وأعدائهم.

ولسّم نذهب بعيداً وقد وصف الشيخ مصطفى دنشول تركيا الحرب العالمية الأولى بأنها (رأس كل خطيئة)؟ لقد أحس بأن وراءها أيدي خفية كانت تريد تحقيق مصالح ذات بال، لاسيما إنجلترا.

وقد رأى بعض الممثلين أن تركيا (أرغمت على عرض غمار الحرب إلى جانب أعداء بريطانيا، وضد مصالح تركيا الخاصة بالذات)!!

زهدي الفاتح، لورنس العرب على عظمى هرتزل، تقارير لورنس السرية، ص ٧٢.

فتح أزمير ذريعة لهدم الدين

(١)

فإن كان للدولة العثمانية التي كان مصطفى كمال وأصحابه ممن تربي بنعمتها ووضع نفسه تحت أمرها ونهيها، فهم عصوها وبغوا عليها ثم هدموها وأرادوا أن يحرقوا اسمها ورسمها حتى أن واحداً منهم اقترح سن قانون يأمر الأمة^(١) بتحرير طربوشاتهم عن زر معلق عليها لكونه من آثار الدولة العثمانية، فإن أوجب كل فتح فاز به قائد جيش حق البغي والثوب على دولته المتبوعة من المرشال (فوش) واللتني) وأمثالهما، لماذا لم يتحكموا ولم يبغوا على دولتهم، فإن قلت إن مصطفى كمال وأصحابه عصوا دولتهم قبل فتح أزمير لكونها أمرة بالصبر على احتلال اليونان بها، ومن أجل ساقط عليهم الجيش كاليونان وحكمت عليهم بالإعدام، قلت أولاً: ليس من حق الجيش وفائده أن يحكم في سياسة دولته ويعمل برأيه على خلاف رأيها، لأن موقف الجيش^(٢) في الدولة إنما هو موقف أداة الإجراء لا مصدر

(١) يشير إلى إرغام الشعب التركي على ارتداء القبعات ومحاكمة الرافضين للبسها بواسطة محاكمات صورية غاشية سميت (محاكم الاستقلال)، والأصح تسميتها (محاكم الإذلال)، فقد اتخذها مصطفى كمال سوطاً رهيباً يلهب به ظهور كل معارضيه، وقد سخط الناس على ما ارغموا عليه من لبس القبعة الأوروبية مما سخطوا من أي إجراء آخر اتخذته الحكومة الجمهورية.
حب (وجهة الإسلام، ص ٢٠٩).

(٢) اعتمد مصطفى كمال على الجيش في تنفيذ أغراضه، وقد مر بنا الشيخ مصطفى صبري (أن المعسكر كان في زمن الاتحاديين بمنسولة الآلة وقوة الظهور لسياساتهم، فترقت تلك الآلة في الدورة الكمالية وغدت عاملة بنفسها)، وكان شيخنا سابقاً لعصره يمثل هذا الرأي، حيث ذهب إلى أن حكام تركيا الجدد لا يستندون إلى الشرعية ويعني بها الأحزاب السياسية المعيرة عن إرادة شعبية حقيقية، فاستخدموا الجيش أولاً كأداة ثم تولى رجاله بعد ذلك الأمور بأنفسهم، وهو أسلوب =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الأحكام والآراء، وإن كان رأى دولته متضمناً لما يشق احتماله على الأمة، ألا يرى أن جيش الألمان مع كونه أقوى بكثير من جيشنا ما خرج عن طاعة حكومته التي عقدت معاهدة (فرساي) مع كونها في غاية الشدة والثقل على أعناق الأمة الألمانية، وثانياً أن خروج الكماليين عن طاعة أمير المؤمنين لم يتولد من مقاتلين والحكم بالإعدام عليهم، بل تولدت مقاتلتهم والحكم بالإعدام عليهم من خروجهم عن الطاعة، حتى ألهم توجهموا وهجموا على الأستانة قبل التوجه إلى أزمير، فقتلوا بعد ذلك، على أنه لو كان هذا الخروج لاسترداد أزمير ولم يكن مقصوداً لهم بذاته لانتهى وزال بحصول أمر الاسترداد.

- الانقلابات العسكرية التي انتشرت في دول العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية، فهل هي مجرد مصادقات؟ أم أن وراءها مخططات مرسومة بعناية ودهاء؟
نعود إلى أتاتورك الذي احتال للجمع بين القوة العسكرية والشرعية المستندة إلى إرادة شعبية، فهداه تفكيره إلى إنشاء (حزب الشعب) الذي أخذ يحكم باسمه، فكيف تكون هذا الحزب؟ ومن هم أعضاؤه؟

يجيبنا على ذلك أرمسترونج بقوله: (إنه يطمع في أن يصير دكتاتوراً، ولكن علام يعتمد في بلوغه غايته أن الجيش الذي يؤيده اليوم سوف ينسى انتصاراته وأعباده غداً حين يتقدم به العهد في أحضان السلام والفقر وحفنة من أنصاره من النواب المستعدين لتأييده بمسدساتهم، لن يستطيع أن يرهب بهم الجمعية والبلاد كل حين، وإذن ينبغي أن يكون له سند غير القوة.. أن يخلق آلة سياسية محاربة يتخذها سلاحاً له، وهنا فكر في لجان المقاومة المحلية التي أنشأها في الأقاليم بمعاونة رعب ورفعت سنة ١٩١٩م، والتي كانت نواة المنظمات الشعبية للمحتدين التي طردت الإنجليز واليونانيين من البلاد وقادتها إلى النصر.. ولما كانت هذه المنظمات التي يلتهب أفرادها وطنية وحماسة ذات صيغة عسكرية، أي تخضع لأمره مباشرة فقد قرر أن يحملها إلى آلة حزبية منظمة تخضع لإشرافه وتصبح الحاكم الفعلي لتركيا.. وفي وسعه أن يطلق عليها (حزب الشعب) ويمنح كل لجنة منها سلطة اختيار عمدة القرية وواعظها وناظر مدرستها ومدير شرطتها وبريدها وكثاسي شوارعها.. ومن ترتبط اللجان به ارتباطاً شخصياً بحيث ينعكس على كل منها نجاحه أو فشله. (الذهب الأخير، ص ١٩٦-١٩٧).

وإن قلنا إن ذلك الفتح للإسلام ولإعلاء كلمته فهم فارقوا الإسلام بعد ذلك لما أنهم فرقوا بين حكومتهم وبين مقام الخليفة وحردوه عن نفوذه، وقد بينا أن ذلك التفريق تضمن تلك المفارقة، لأن الخلافة صفتها المميزة عبارة عن الرئاسة الدينية التي تستتبع الحكومة الدينية الجسمانية، وبعبارة أخرى كون المسلمين تحت حكومة رجل وكون ذلك الرجل تحت حكومة الدين لنيابته عن الرسول ﷺ في حكومته بين أمته، فلما جردت الحكومة عن الخلافة وصارت حكومة عادية زمنية ولم يكن فرق بينها وبين حكومة الخلافة إلا كونها غير مقيدة بقيد النيابة وحكومة الدين عليها فلا حرم صار معنى افتراق الحكومة عن الخلافة افتراقها عن الديانة. ومع ذلك فإنهم كثيراً ما قد صرحوا بأن تجريدهم الخلافة عن السلطة والتفريق بينهما إنما وقع بقصد التفريق بين الدنيا والدين، وكان فتح أزمير عملاً واجتهاداً في سبيل تلك الدنيا التي جردوها عن الدين لا في سبيل الدين، وليس في ذلك الفتح نصيب للدين إلا تجريده عن نفوذه وتبعيده عن حكومته.^(١) فهم بما أفادهم فتح أزمير من القدرة والجرأة أظهروا حيلهم اللادينية، والغافل يستدل به على دفاعهم عن بيضة الإسلام، مع أنهم الذين ترقبوا فرصة لاقتراس دين الإسلام بادعاء احتراس الإسلام، وقد جردوها في فتح أزمير. فلو كان كل من حل بأزمير وأحرزه ناصب نفسه للدفاع عن بيضة الإسلام من غير أن ينتظر إلى حال الفائز ظاهره وباطنه وما صدر منه لكان اليونان الذين احتلوا قبل هذا بأزمير ناصبي أنفسهم للدفاع عن بيضة الإسلام. وإذا كان مصطفى كمال لما تغلب على أزمير تغلب على دين الإسلام فماذا يعود من هذه

(١) هذه هي القضية الرئيسية التي خصص لها المؤلف أكبر عنايته في كتابه، لأن نزاع (الحاكمية) عن الإسلام حوله إلى عاطفة فردية وسلوك شخصي، وقضى على شوكة وسلطانه في المجتمع والدولة.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلقة العلمانية

الغلبة للإسلام وماذا يعود للمسلمين بصفة أنهم مسلمون، ولئن كانت أزمير شر ذريعة وشر قوة في أيدي الكماليين لهدم ما كان للدين من الحكم على الحكومة في تركيا فلجنة الله على أزمير وعلى فتحها واستردادها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَازِلٌ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ قَوْمُهُمْ، بَلْ تَضَاعَفَ أَسْفَى لَهُمْ لَيْسُوا إِذْنُ بِقَوْمِي، بَلْ أَعْدَاءُ دِينِي، وَلَا يَسْرِقُ قُوَّةُ الْأَعْدَاءِ. ^(١)

(١) تلخيص الكلام أنه لا شبهة لأحد من المسلمين في داخل تركيا أو خارجها أن الكماليين وحكومتهم تلاعبوا بأحكام الدين وأنوا ما يدل على استخفافهم بها من قول أو فعل، وقلما بمضي يوم إلا وتغير عنهم الصحف بشيء من ذلك. ولعل القراء المسلمين المخلصين المستيقنين هم مودة وعاطفة إلى الحكومة التركية منتقلة من ماضيها إلى حاضنها الحاضرة، بعدما رأوا أن لا مندوحة عن تصديق ما قلته فيهم يودون لو كنت اجترأت في نقدي عليهم بالانتقاد الديني والعلمي غير بماوز به من مسلك النصيحة إلى معرك السياسة، ودون أن أناضلهم في تلك الساحة. لكن أعلم أن الأمور منتبهة إلى السياسة، ومنها يستفيد كل خير أو شر قوة الوجود في الخارج ابتداءً وبقاءً، وأن الساعي المتعلقة بمصلحة العامة إن تجردت عن السياسة تذهب هباءً وهواءً، وكل نصيحة لا تؤيدها من أن تكون معلقة على نصفه أو صحاحته وإن شاء يضحك من عجز التصاح وربما يعاقبه عليه أن لا يج. والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم أو إخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة للعلماء الذين يحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم ومخادعة العلماء بتسزييلهم مسئلة العجزة فيقبلون أيديهم ويخلوهم بذلك أنهم محترمون عندهم ثم يفعلون ما يشاؤون بدين الناس وديانهم محررين عن احتمال أن ينجى إليهم من العلماء أمر محجور أو قبيح عن منكر إلا ما يعد من فضول اللسان ويكمن في القلب وذلك أضعف الإيمان. فالعلماء المعتزلون عن السياسة كأنهم تواطؤوا مع كل ساسة صالحهم وطالحهم على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم رواتب الإنعام والاحترام كالحليقة المتنازل عن السلطة وعن نفوذ سياسي. ولما أن الله تعالى هدايا من قسم إلى التنبه لمكائد لسياسيين ذوي المبادئ -

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

- اللادينية وواجب علماء الدين لقائهم ما تنحيت عن المعاهدة في غمرات السياسة لا على اتخاذ الدين آلة للسياسة بل على جعل السياسة آلة للدين مستعملة في تعزيزه وتنقيته لكونها أداة الآلات ممثلة لقوة الحكومات. فإن فائنا الظفر في زمان أصبحت فيه نصرة الدين مهلكة أو متعبة وأصبح هو وناصره غريباً فلا يقوئنا جهد المقل في «الواجب المعطل» على أننا موقوفون بأن الظفر النهائي لنا، فإن لم يكن في الدنيا غنى الآخرة.

ورأيت في بعض الصحف العربية منشوراً لجماعة من علماء الإسلام الذين جمعهم البيت الحرام من بلاد وأمم إسلامية بحسب الحج الشريف في السنة الراحلة، يصفون فيه حالة المسلمين في أمسهم الذابر ويومهم الحاضر ويدعوهم إلى الاستمسك بعري الشريعة السمحاء، ويرون أن العلة في انحطاط المسلمين هي تركهم العمل بدينهم ونذهم كتاب الله وراء ظهورهم وإهمالهم سنة نبيهم والسير على هديها، ويستشهدون على ذلك بتاريخهم المجدد، فقد سادوا الدنيا وشادوا أيام استمسكوا بهذا الدين حين حببت لهم الأرض ودانت لعزمهم في طولها وعرضها، فلما تولوا أزراغ الله قلوبهم وأذهب ربهم وحاقت بهم أسباب الانحطاط والمثلة.

نعم ما قالوا وحيداً ما فعلوا من إذاعة ذلك المنشور الذي لم يعرب إلا عن الصدق والحق، ولم ينشئ إلا عن نية طيبة وفكرة شريفة، ولكن لا أرى لهذا السعي المحترم عظيم جدوى علمية إن لم يتبع أولئك العلماء الكرماء عملهم ذلك باستعمال الأدوات السياسية لتنفيذ ما أوصوا به المسلمين في منشورهم من الخطط التي يريدون أن ينتهجها المسلمون، لأن أشد البواعث على الفساد أو أقوى الموانع من المصالح في الأمم إنما هي الحكومات المتولية عليهم. وخطاب هؤلاء العلماء الكرام الذين يكون تعلقه بحال الفرد أكثر منه بحال الجمعية يلزم أن يتوجه إلى تلك الحكومات، فما دام لم تساعد الحكومات على ما يستهمون المسلمين به في منشورهم فذلك المنشور (*) لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا ينهض بالمسلمين من الخجوع.

وصقوة الكلام أن الأحوج إلى النصيحة إنما هي الحكومات، ولكنهن لا يقبلن نصيحة لا توجد وراءها سيطرة. فالواجب للعلماء أن يفرسوا في الأمم الإسلامية تلك السيطرة الرشيدة التي تهدى بها حكوماتهم طوعاً وكرهاً إلى صراط مستقيم، لا تفضلاً منهن، وإلا فيتمادين في أهوائهن وتندهور الأمم من ورائهن إلى مهاوى الانحطاط والضلال أو تنجم في الأمم سيطرة جاهلية تكثر بذورها شياطين الإنس فتهدى الأمم وحكوماتها إلى هاوية البوار. (م.ص)

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

ومما لا يجوز أن يغر به العاقل بل يدل على تلاعبهم بالأفكار الإسلامية تصريحهم عند إعلان حكومتهم الجمهورية بأن دين الدولة الإسلام، وليس معنى ذلك التصريح مراجعة منهم إلى الإسلام، بل مراجعة جديدة إلى مخادعة المسلمين في أقصى البلاد الذين استاءوا من مروقهم عن الدين، لكن ذلك فرية ما فيها مرية، وقول يناقضه فعل بل تنقضه أقوال. وقد صرح مندوبهم في لوزان وغيره أن حكومتهم لا دينية، وأن جمهوريتهم ليست بجمهورية إسلامية، فكيف يتفق هذا مع ذلك؟ ومؤسسوا هذه الحكومة الجمهورية هم بأعيانهم مؤسسو الحكومة التي تقدمها وهي حكومة المجلس الوطني التي هي بمنزلة التصريح بضد الإسلام وأبيت هذه التفرقة أيضاً في الحكومة الجمهورية على حالها. ولأن مناقشة الديانة وضدها مازالت تجري في صحفهم حال كون الذين يختارون الخطلة اللادينية عبارة عن أنصار الحكومة الجمهورية ومؤسسيها مثل جلال نوري بك وأغا أوغلي أحمد بك وضيا كوك آلب بك. والذين يلتزمون الخطلة الدينية مثل صاحب جريدة (توحيد أفكار) في جانب المعارضين للحكومة. ويجب للمصريين أن يتذكروا هذه المناقشة والاختلاف التي طالما بحثت عنها صحفهم وتبحث الآن، إلا أن الصحف المصرية لا

(*) ويتصل ذلك برأيه عدم فصل السياسة عن الدين كما بنا. وإلى هذا الرأي أيضاً يذهب الزعيم المصري الشاب مصطفى كامل الذي وضع نصب عينيه طوال حياته خدمة القضية المصرية باستتارة الحماسة الإسلامية في النفوس، ولم ير غربة إذا تكلم على (المسألة المصرية من الوجهة الدينية الإسلامية، فإن السياسة لا انفصال لها عن الدين. وبالإحساسات الدينية تقاد الأمم أسهل ما تقاد بالاعتبارات السياسية).

وقد فجر الزعيم الشاب بهذا الرأي قنبلتين لعلهما يثيران رواد الفكر السياسي والمؤرخين، فقد حسم النزاع حول فصل الدين عن السياسة، ووجهنا إلى (إسلامية) الثورة المصرية سنة ١٩١٩م. (مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ص ٢٧٩، مطبعة الآداب، مصر، سنة ١٩٩٨م).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

تصرح كون الحكومة في هذا الاختلاف متفقة بل متحدة مع أصحاب الخطة اللادينية تصريحاً تاماً، وتخيّل ذلك إلى إمكان تفهم الحقيقة بتصنيف الرجال المختلفين في هذا المسألة وتعيين مواقعهم في داخل الحكومة أو خارجها، بينما دام الخلاف والمناقشة مع كون الحكومة وأنصارها في جانب أصحاب الخطة اللادينية إذا أعلنت الجمهورية بغتة مع التصريح بالديانة على عكس ما ينتظر ويستدل من جريان المباحثات، فثبت أن هذا التصريح ليس بمبنى على الحقيقة والإخلاص، بل جعل ذلك ضم إيلاف إلى وحش الجمهورية مسوقاً لتحسينها في الأسماع، فقد دلت المناقشات التي تقدمت إعلانها على مشروعات، الجمهورية والإلحاد، يدعو لهما فريق ويضادها فريق، فالفرق الأول لما رأوا صعوبة في قبول مشروعيتها معاً اجتزوا بإعلان أحدهما وإضمار الآخر إضماراً وقتياً، مع أنه أعلن ذلك أيضاً من قبل في ضمن تفريق الحكومة عن الخلافة وفي صراحة أقوال وأفعال. وليست هذه المناداة بالديانة رجوعاً منهم إلى الإيمان بعد الكفر كما ذكرنا، بل من قبيل ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُلٌّ لِّمَ تُؤْمِنُونَ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وتؤيد كل ما ذكرنا مقالة رئيسية انتشرت في جريدة (البري) لسان حال مصطفى كمال في الآستانة، بتاريخ ٢٤ شباط ١٣٤٠، وعنوان المقالة: (التضاد وإدارة المصلحة)، والشطر الثاني من العنوان يطلق في اللغة التركية على قول أو فعل يراد به قضاء الحاجة الوقتية، ولا يقترن بدافع الصدق والإخلاص. وفي تلك المقالة هذه الكلمات نصها غنيا بتعريبها لتكون عبرة للمعتبر ويقظة للغافل الذي أبطأ في يقظته كل الإبطاء: "إن مجلس الأمة فصل بين الخلافة والحكومة، وما باله حتى الآن لم يبلغ الوزارة والمحاكم الشرعيتين. نريد أن نعيش عيشة لا دينية ثم نبحث في قانون

السراير الائمة وراة إلاءم الائمة العلمانية

الأسرة عن الأزواج الأربعة. كلما تواصينا بفك الدنيا عن الدين جرينا على عكس ذلك المبدأ أو تقع في مهاوى التضاد، فإذا نظرنا إلى آخر شكل لقانوننا: (التشكيلات الأساسية) الذي كتبناه بمحمد تنقب وتأهب وشجاعة، فأول تضاد يصادم النظر فيه: (١) أن دين الدولة الإسلام، (٢) أن أهالي تركيا يسمون بالترك، (٣) أن في الجمهورية التركية حرية الوجدان. فلنقف عند هذه الأسس: فك السلطة عن الخلافة ثم نبحث حين الآن عن دين رسمي، فما هذه الحماية وما محل الملفوف ذاك^(١) فإذا كنا نمشي على التضاد وإدارة المصلحة والحيانة فلا نمشي عليها في دولة الجمهورية، وإلا فالعالم يضحك منا لا يثق بجدنا وإخلاصنا، فهل نحن نخدع أنفسنا أو نخدع العالم؟^(٢)

ولا يكون دين الحكومة دين الإسلام بمجرد أن يقال إن دينها كذلك، مع أن القرائن الماضية والحالية كلها قائمة على خلافه، وبأباه التفريق بين الخلافة والسلطة قبل هذا وإبقاؤها الآن مفترقتين، لأن كون الحكومة متدينة بدين الإسلام لا يتحقق إلا يجعل الدين عاملاً وذا نفوذه في الحكومة، والحال أن الحكومة خرجت عن ربقتها وقطعت تدخله فيها بتفريق الخلافة عن السلطة كما أثبتنا ذلك وأوضحناه في هذا الكتاب على طوله، والحاصل أن ديانة الأمة تتصور لها جهتان وحيثتان^(٣)؛ الأولى كون أفرادها متمسكين إليها ومقيدين بها باختيارهم التام غير مخاطبين في ذلك بأمر أحد أو نهي يبلغ درجة السلطة، فهذه ديانة الأمة بالنظر إلى أحوالهم الانفرادية.

(١) تعريب مثل تركي. (م.ص.)

(٢) فسقت تصرفات الحكومة الكمالية إزاء (الخلافة) هذه المسألة الهامة التي نطن لها لم تبحث في العصر الحديث قبل الشيخ مصطفى لافقار الداعي لها. أما وقد حدث، فإن رأيه غير مسوق إليه فسيما نعلم، إذ اشترط لإسلام الأمة شرطين: الأول: كون أفرادها مسلمين، والثاني: حكم الدولة بالإسلام.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ثم إن هم حالة الجمعية وحالة الحكومة، ودين الإسلام لما لم يعزب عن عنايته ورقابته حال الأفراد وحال الجمعية معاً.. بل كان شديد العناية والعلاقة بالأحوال الاجتماعية والمدنية فلا حرم كان شرطاً لصحة أن تعد الأمة أمة مسلمة لإسلام فرداها الحكمي وشخصيتها الاجتماعية والسياسية كإسلام أفرادها الجزئية يكون هذا الفرد الحكمي أيضاً منقاداً لأحكام الشريعة الإسلامية ومعترفاً بها. فإن أذعن الأمة لأحكام الإسلام وحدانا ولم تدعن لها في حالة الجمعية والحكومة التي تمثل فرد الأمة الحكمي ما صح إسلامها. وإذا اختارت الأمة حكومة لا تعترف بكونها تحت مراقبة الأحكام الشرعية، بل تكون حرة مطلقة العنان كما صرح بذلك في برنامج حزب الخلق أعين حزب مصطفى كمال وكما تمناه ضيا كوك ألب أمام الاتحاديين وواضع أساس الجمهورية الكمالية وأنكر خلافه حيث قال:

فالأمة بمجرد اتخاذهم بطوعهم حكومة لهم كتلك، يخلعون عن بردة الإسلام عندي قطعاً، ويخلع عنها من ارتاب في ذلك أيضاً ولا ينفعهم دياتهم من حيث أفرادهم ما لم يقرروا بحكم الدين وحكومتهم عليهم، بل يكون ذلك ارتداداً منهم بجملتهم كما حكمنا به قبل هذا بسنة في مقالتنا التي نشرناها بالمقطم والأهرام ولا تفتؤ لحكم به.

فإن قلتم إن الحكومة التي وضعت نفسها تحت قيود الدين كيف تكون حرة ومستقلة، وهذا السؤال مما أساء للداء العضال الذي حدا المتفرجين إلى الفصل بين الحكومة والدين، لكننا نقول بحول الله وتوفيقه إننا إذا اعتقدنا أن دين الإسلام نعمة للمسلمين وسعادة لهم في دنياهم وآخرهم وأنه داخل في مشخصات شعوب المسلمين الذين يشعرون بها أنفسهم ويعدونها من مزاياهم النفسية، فلا يناق حريتهم واستقلالهم كون حكومتهم ممنوعة بالطبع عن العمل بما يغاير الوطنية والشعائر المالية لا يناق الحرية والاستقلال.

السرار النخبة ورام إلفام البلمة العلمانية

وهنا مزلة فكرية جب أن ننبه عليها: وهي أنا إذا أحببنا الحرية وأطرينا مكانها عند النفوس الشريفة فلا بد أن نريد بها حرية الأمم تجاه الحكومات لا حرية الحكومات في القيام بأمور الأمة، حتى أن الزيادة في حرية الحكومة تضر بحرية الأمة وتنقصها، لهذا يُحب جداً أن تكون الحكومة في معاملاتها مع الأمة مقيدة بقوانينها، والإدارة القانونية مثل سائر في الترقى والتمدن، والمراد بها أن تثبت الحكومة لقاء الأمة وتبر في عهدها الذي تضمنه قوانينها وأن تتجنب التزحزح عنها أو التلاعب بها. ثم إن هذا الثبات وعدم التزحزح وإن كان عبارة عن أن لا تخرج الحكومة في أعمالها عن قوانينها إلى أن تبدل تلك القوانين وكان فرق بين ذلك الخروج عنها وبين الإكثار في تبديلها ثم المشى الجديد على القوانين الجدد إلا أن الثاني أيضاً لا يخلو من أن يكون تلاعباً بالقوانين، ولا يوجد عظيم فرق بين تخطي القوانين بأعمالها وبين تخطيها بإبدائها، ولا يجوز أن يجعل القوانين المستنونة لتحول بين النفوس وأهوائها آلات بيد الحكومة لإجراء الأهواء. وكون التبدل باختيار الأمة لاقرانه بأراء نوابها غير مجد في استئصال المخاذير، إذا لم تكن آراء النواب في الحقيقة آراء الأمة بعينها وإن عدت كذلك، دعوا آراء النواب في تركيا لأهم ليسوا بنواب الأمة، فضلاً عن أن تكون أراؤهم آراءها، بل ابحت عن النواب الحقيقيين، ولهذا يحتاج في بعض البلاد إلى توثيق القوانين الصادرة من البرلمان بعرضها على الأمة، مع أن الأمة نفسها أيضاً تحتاج إلى رقيب من نفسها ودساتير أولية فكرية وأدبية ارتكزت فيها تقيها الخطأ والزلل في اجتهداها الذي تبين عليه قوانينها.^(١) وبعد ذلك

(١) تتضمن هذه الصفحة وما بعدها نظرات ثاقبة للمؤلف، تناول نقد النظام البرلماني حيث لا يوثق فيه بالقوانين الصادرة من المجالس النيابية لأنها قد لا تعبر تعبيراً صادقاً عن رأى الأمة، فضلاً عن عجز سلطة المراقبة في التنفيذ، فهل تنبه إلى إحدى أزمات الأنظمة الديمقراطية في هذا الوقت المبكر؟

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

ربما يتقاصر أكثر أفراد الأمة أن يراقب القوانين ويماشيها، لاسيما إذا جعلت عرضة للتبديل أو سنت على خلاف طبيعتها الأولى أو الثانية. ويذكر هنا مثالا من قوانين حكومة أنقرة؛ فقد حكمت على لطفى فكرى بك بمقتضى قانون الخيانة الوطنية السالب حق الانتقاد على بعض مبادئها، وكيف ذهل عنه فكرى بك مع كونه نقيب المحامين بالأستانة ولم يتقدم عهده ليطراً عليه النسيان، حتى استمد عند الدفاع عن نفسه في محكمة الاستقلال في تفسير القانون بأنه لا يمنع حرية الكلام ولا يكون به أن يمنعه، وإن ألفت النظر إلى أن واضع ذلك القانون بحجة حرية الحكومة في سن القوانين كيف اضطهدوا الحرية، ورأس الخطيئة أن تعد الحكومة بل الأمة نفسها حرة في سن أى قانون شاءت.

فإذا كانت غاية القوانين وزع الأمة أو الحكومة عن النزوع إلى أهوائها فمستبعد جداً ومستغرب وزعها بما تستقل في سنه وتبدله متى شاءت. فنحن ندعى

" = وهنا تصبح المقارنة مفيدة إذا اطلعنا على رأى الفيلسوف المسلم المعاصر (رجاء جارودى)، حيث وضع يده على إحدى أزمات النظام السياسى الغربى، متتبعا إياه منذ نشأته كفكرة فلسفية عند (روسو) إلى تطبيقاته العملية في شكل إنشاء أحزاب وقيام برلمانات. يقول جارودى: (وقد نطق جاك روسو في "العقد الاجتماعى" من مفهوم مجرد حول "الفرد" ولم يكن يستطيع تصور عملية اندماج الفرد بالمجتمع إلا عبر هذه الأسطورة التى سماها (الإرادة المشتركة)، وقد تجلت تاريخياً في برلمانات وأحزاب لم تحقق إلا الوصاية على الشعب والمزيد من الاستلاب، لتصل إلى (ديمقراطية) كاركاتيرية ليست مشاركة الشعب فيها إلا وهماً وسدبة!!). (جارودى، ما يعد به الإسلام، ترجمة: قصي أنس وميشيل واكيم، دار الوثبة، دمشق، سنة ١٩٨٢م).

وإذا صح هذا بدول أوروبا حيث لا ينكر أحد درجة الوعي والثقافة واليقظة التى بلغها الشعوب هناك، فماذا يمكننا القول في البلاد (النامية)؟ إن وصف (الكاركاتورية) الذى أطلقه جارودى على الديمقراطية الغربية يصبح هنا أكثر انطباقاً!!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

أن كل إنسان يجب أن يكون تحت أمر القانون وحكمه، مع أن القوانين من موضوعات الإنسان فأيهما يحكم على الآخر؟ وهل الذين يضعون القوانين عارجون من نوع الإنسان الذي حكمنا بلزوم كونه تحت حكم القانون حتى عندما يضع القوانين التي تساس بها البلاد؟ فيلزم أن يكون لسن القوانين حدود يوقف عندها، وبعبارة أخرى يلزم أن توجد قوانين أساسية لا يتخطاها نُظُم القوانين ولا يسوغ لهم تعديلها حتى تنتهي القوانين الموضوعة فيها وتستفيد قوة الوزع منها، وتلك القوانين الأساسية أكملها ما كانت سماوية لما أن تغييرها ليس في وسع البشر^(١)، فهي أخرى أن تكون تخوم الاستناد وتتخذ آخر مفزع لإصلاح الفساد الناشئ من أنفسهم ومنهم نُظُم القوانين. ويذكر الطبيعيون بدل القوانين السماوية القوانين الطبيعية، مع أن وازعيتها غير تامة لخلوها عن القوة التأييدية كالثواب والعقاب. وفي الدرجة الثالثة بعد القوانين السماوية والطبيعية قوانين أساسية موضوعة الأمم، ولياقتها للاستناد المبحوث عنه ولوصف الأساسية بقدر اعتدادها مصونة من التبدل، حتى كأنهم لم يستوها فلا يستطيعون تعديلها، لا كالذي جرى في بلادنا من تبديل القانون الأساسي في خمس عشرة سنة خمس عشرة مرة. والمصونية من التغيير كما يجب في القوانين الأساسية يستحب في القوانين الفرعية أيضاً، ولهذا نرى أسعد البلاد إدارة وأثبتها أمناً بلاد ترض فيها القوانين وتسان من

(١) حجة قوية من حجج الشيخ مصطفى التي يتحدى بها عصومه، لاسيما القائلين بأن (الحریات مقدسة مادامت لا تتعارض مع القانون)، فيسخر سخريه لادعة من هذا البدأ المصطنع بقوله: (إذا ترك الطاغية فإنه يضع قانوناً يحطم به الحریات)!!

كذلك ينهم اللادينيون بأنهم كاذبون في دعوى الحرية إذ يعضرون الرغبة الأكيدة في كبت الحریات وفرض إرادتهم على الجماهير، ويرى أنه مادام الأمر متروكاً للإنسان ليضع القوانين والتشريعات فسينتهي الحال بأحد الطغاة إلى أن يضع بيده قانوناً يقضى به على الحرية!!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

التلاعب بما بكل معنى كلمة التلاعب. وعكس ذلك ما يُرى في بلادنا من هرج ومرج بالقوانين؛ فقد علمت دعاوى الكماليين ودعاياتهم في إعزاز الأمة وترقية الإدارة، حتى ما اجتزوا بحرية الشعب فترقوا إلى سلطتها وبمشرولية الإدارة فترقوا إلى جمهوريتها، ومع كل ذلك الذي يتعلق بدعوى الحرية والترقي إلى عليا درجاتها سنوا قانون الخيانة الوطنية وأبطلوا به حرية الفكر والاجتهاد عن أصلها.^(١) وقد قرأت قول واصف بك نائب (صاروخان) في المجلس الوطني الكبير والنائب العمومي لمحكمة الاستقلال عند محاكمة لطفي فكري بك مبيناً للسبب الذي ساق المجلس إلى نظم هذا القانون وبجيباً عن اعتراض لطفي فكري بك بأن معنى القانون إذا كان كما فهمه النائب العمومي فأين تبقى حرية الفكر وحرية المناقشة وحرية الكلام؟ "إن كل من يعيش في وطن الترك تحت حكم قوانينه فلا يكون له حق الكلام في هذه المسألة، والحريات مقدسة بشرط أن لا تتعارض هي والقانون"، يعني مادام هذا القانون يمنع حرية الفكر والمناقشة والكلام فلا يجوز البحث عنها في هذه البلاد. وعلى ما قاله النائب العمومي للمحكمة الكمالية فدعاوى الحرية السامية مبنية على السقوط والحبوط بعدما كان من حق الحكومة أن تمنعها شاءت بقانون تسنه.

ومن كلامه: "إن نُظِّم ذاك القانون رأوا ما أصيبت به البلاد (تركيا) تحت دعاوى الحرية من الحوادث والكوارث الموقية"، ومن سمع هذا الكلام يظن أن قائله يصور أدوار الاتحاديين والكماليين لأن تلك الحوادث والكوارث وليدة هذين العهدين وفيهما أيضاً بولغ في دعاوى الحرية ودعايتها. وإذا كانت الحرية أضرت بالبلاد على ما ادعاه حضرة النائب العمومي للحكومة الكمالية فما الذي كان

(١) لقد عان المؤلف كثيراً من تهمة الخيانة الوطنية، هذا السيف المشهور في يد كل ديكتاتور لإسكات أصوات المعارضة وخنق حرية الكلمة.

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العلمانية

عيب الحكومة المطلقة وذنبها؟ ومن أين لزوم تلك المحاكم الاستقلالية الموضوعة لإرهاب الناس على احتمال الرجوع إلى غير الحكومة الجمهورية؟ وما هذه السخرية والشعوذة من أمانة الحرية لإحيائها وإعزازها؟ ورأس البلية ومنع الخديعة تلييس حرية الحكومة بحرية الأمة وسلطنة شركة اللصوص بسلطنة الأمة المسكينة وأرأتهما معاًهما.

وقد تبين من تفصيل ما ذكرنا في هذا المقام غفلة أناس يتبرمون بدين الإسلام.. لكونه مبنياً على قوانين ثابتة كهاشم ناهيد بك الذى ناظرته وحادثته على مبادئه ومذاهبه في كتابي المطبوع باسم (دين مجدول) - محدود الدين - وتبرمه بقوانين الإسلام الثابتة ناشئ من أنه يراها منافية لحرية الإنسان في وضع القوانين^(١)، مع أن الإنسان إذا خلى ونفسه الطاغية يضع بيده قانوناً يقضى على الحرية ويجعلها كلعية لآعب ودعوة كاذب، فلا بد له من بعض قوانين ثابتة تكون أول حائل بينه وبين طغواه وما يضاده من دعواه. هذا وإلى حريت اللادينيين فوجدتهم كاذبين في دعوى الحرية كما أنهم كاذبون في كل موعد هم ترتاح له نفوس الناس، وأهل الديانة أصدق في فسحة الحرية ومأنق القانون.

(٣)

نرجع إلى مسألة أزمير: وإن قلنا إن ذلك الفتح للأمة لنعني بهم الأتراك المسلمين، ففي قلوبهم شتان من اعتصم منهم بدينه. وخطتهم التي يتناجون بها ولا يجيدون عنها استئصال المخلصين من المسلمين، كما أن خطتهم استئصال الدين وإنقاذ البلاد من نفوذه، حتى أن إفتاء الدين عندهم يتوقف على إفتاء المتدين^(٢)؛ إذ

(١) يقصد بالقوانين الثابتة القوانين السماوية - أى الشرع - لأن تغييرها ليس في وسع البشر.

(٢) وهكذا أخذت الحرب ضد الإسلام أبعاداً جديدة تمثل في (التصفية الجسدية).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

لا أثر بعد عين، ففتح أزمير حين قواهم وشجعهم في مذاهبهم ومرايهم جراًهم أيضاً على نكايه رجال خلصوا دينهم، وأبغض المسلمين إليهم علماءهم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

وهل تدري يا أبا الإسلام ما جرى في الأناضول قبل الفتح وبعده من دماء أمثالهم المنتفخة خاصة تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، وفي تجريدهم الخلافة عن الحكومة إعلان الحرب على من بقي منهم^(١)، فهل سلامة أوطان المسلمين مطلوبة

(١) ومن أدل دليل على صدق ما قلنا أن الكمالين أصروا على عطف الفصل بين الخلافة والسلطة بعددنا تبين لهم استياء العالم الإسلامي العمومي منه، حتى عتوا وقالوا ليس من حق العالم الإسلامي أن يتدخلوا بشأنهم، وشددوا في القضية فأصدروا قانوناً يحكم على من يخالفهم في تلك الخطئة بالإعدام، إرغاماً لأنوف أهل الإسلام ومناقضة لحكم الشريعة الغراء، فرحمة الله وسلامه على الإسلامية وحرية الأفكار والآراء.

وشددوا حملاتهم أيضاً على العلماء أصحاب العمامة حتى صرح مصطفى كمال الغازي في سيل الله (١) والغازي بدين الله في خطبته التي نطق بها حينما يقول في الولايات في مأى حضروا لسمعوه - وحسرها حرائد الترك بنصها - أنه عازم على قهر أولئك الطائفة المعمنة الباحثين عن الديانة وسيكفي هو وحده أصحابه في أمر القهر. فسيفكفكم الله يا أبا الحمية الدينية والعلمية وهو السميع العليم.

واضطهاد علماء الدين بدأ في عهد الاتحاديين وبلغ كماله في زمن الكمالين، وكان في بلاد الترك مراكز لعلم الدين ودراسته كمعهد جامع السلطان محمد الفاتح بالآستانة، وهم كانوا يهابونها ويخشون مواقعها عند الأمة. والآن أبادوا أهلها وجعلوها أحاديث. والعادة تقرر من عهد الاتحاديين بشن الغارة في كل ثورة أو حادثة سياسية على الطائفة المعمنة، ولا أظنك نسيت يوم ٣١ مارس ١٣٢٥ كيف حمل أوزاره على طلبة العلوم الدينية واللغة العربية واتخذ شر ذريعة لتدميرهم، حتى أن الجيش المجهز المنسق من سلاتيك (*) عند دخوله الآستانة عمم القبيض على كل من لقي في شوارعها من العلماء ومتعلميهم وسمتهم العمامة، وكل حادثة سياسية أعقبت شرأ على طائفة من الأمة بتمد بينهم العلماء والمعلمين أكثر من غيرهم بالحساب النسبي مثل معتقلي (سينوب)، ثم إن معارك الدرنيل (جناق قلعة) المائلة داست من شبانهم وكهولهم كالأوف -

السرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

= ودستهم في التراب، وبعد هدنة الحرب العظمى كم قتل الكماليون أو شنقوا من كهولهم وشيوخهم في بلاد الأناضول، وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ورسوله ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ولا يركنوا إلى الذين ظلموا. علماء مصر لا يدرون العيشة الدستورية التي غدوا في عنفوانها وما بروج فيها من مكائد التفرغين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

والحاصل أن علماء الدين والذين لم يقتلوا بكفرة المسلمين في مبادئهم ولم يداروهم قد قطعت رؤوسهم من أبدانهم أو علاقتهم من أوطانهم ولا أقل من قطع روابنهم التي كانت لهم، كما قطعوا روابب الأشراف الذين كانوا شرقاً لبلادنا. فهذه الصور المختلفة أعين عليهم الزمان وأفهامهم وأدخولهم في عبر كان، ما مر عصر ولا تصفه ولا ربه ليستوعب مثل هذا التقلب العظيم، وكنت قبل خمس عشرة سنة أروح إلى جامع السلطان محمد الفاتح المار ذكره، وكان الأزهر المصري وهذا المعهد فرسي رهان فأجده على سمته ملأ إلى خارج أبوابه ركعاً وسجداً، وأربعة أجناس الجماعة المثلثين المعمون، والآن هو وأمثاله في بلادنا كما قال الشاعر:

كان لم يكن بين المحبون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سمامر

وأقوى ما يتمسكون به في دعوة الناس إلى عدم الاعتداد بالعلماء المعمون بأقوامهم أنهم يقولون: "لا اختصاص لواحد من صنوف المسلمين في العلم بالدين ولا امتياز ولا رهبانية في الإسلام". أقول: نعم، ولكن هناك طائفة قال الله تعالى في شأنها: ﴿ قُلُوبُهُمْ مُّكِنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُوا فِي آيَاتِهِ وَلِيُبْذِلُوا قُرْآنَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. حتى استثنى سبحانه وتعالى تلك الطائفة عن فريضة الجهاد، وكان العمل في الدولة العثمانية بذلك الاستثناء، إلى أن صارت الحكومة الاتحادية أول من ألغاه في الحرب العظمى، فهم رفعوا استثناء العلماء من الجهاد وحاربوا معهم في صف واحد، وترقى الكماليون فشنتوا الحرب عليهم. وكان ما ينبغي النظر إلى الآية الكريمة أن يكون من ينذر قومه ويحذرهم من العلماء، والكماليون ينذرون العلماء ويهددوهم بقومهم. وفي الآية أيضاً عظة للعلماء المعتزلين والمجاهدين ودلالة على أن جهادهم إنذار قومهم. ثم إن تلك الطائفة الذين حنثهم الله في كتابه على أن يتفقوا في الدين وينذروا قومهم ليسون الإمامة من قديم الزمان، بل كان جميع المسلمين ليسوا قبل هذا، ثم نزعها الأتراك ودام عليها علماءهم. فالإمامة التي اعتدى عليها الكماليون وعلى من يلبسها ما هي إلا زى علماء الدين، وقد يوجد بين من تزى بها من لا يكون أهلاً لها، كما أنه يمكن أن يوجد بين غير المتزين بها من تعلم أحكام الدين وتفقه فيه، ولكن الغالب المستفيض كون علماء الدين من أصحاب المعالم =

= لأهم الدين يتوغلون بعلم الدين ويفنون شبابهم في درسه، كما أن المستفيض المتعارف أن يسلم علم الطب للصنف الذي يشتغل به ويكتسبه في مدرسته الخاصة، وكذا سائر العلوم والصناعات يتفقد كل منها بين أربابه المختصين به. وإن كان قد يوجد بينهم من لم يزل منه يحفظ واف ووافر وفي خارجهم من نال ذلك بسعيه الذاتي الخصوصي لكن الحكم على الغالب لا على النادر، حين أن دعوى التقدم في الفنون العسكرية على المسافر من غيرهم كذلك، وطبقة دعوى التقدم في علم الدين على العلماء من غيرهم. وإنكار هذا إنكاراً لا أساس الإحصاء أو إنكار لعد علم الدين شعبة من العلوم التي تحول لأهلها حق الكلام الحاسم، وللواقع للواقع المضمر في نفوسهم هو الاحتمال الثاني، لأهم لا يعترفون بأصل الدين فضلاً عن أن يعدوا العلم بالدين من شعبات العلوم التي يجري فيها الإحصاء. وهذا منشو عداوتهم لعلماء الدين، أعني أن عداوتهم غير متوجهة إلى جهل الذين يُعدون علماء الدين بالدين بل إلى علومهم وإلى ما تتعلق به علومهم، وهل كانت عدائفة العلماء الأحرار لبدأ الفصل بين الخلافة والحكومة وصولاً لمصطفى كمال عليها لأجلها ناشئة من جهلهم بأحكام الدين أو من علمهم بها، فإن صح الشق الأول فما أنا صاحب هذا الكتاب مقر بأى اليوم أجهل جاهل. ويتبكت عن ماهية هذه العداوات والاعتداءات ما ترى من أن أكثر ما تروج هي فيه قديماً وحديثاً للصحف اللادينية، وما نسينا ما نشر في جريدة (الاتحاد) للدكتور عبد الله جودت المعروف بخطته اللادينية من مقالات متسلسلة بعنوان إعلان الحرب على علماء الدين (صوفته لره إعلان الحرب).

بقي أنه لا يقال: لعل هتك الاحترام لعلماء الدين من الغازي مصطفى كمال وأمثاله إنما نشأ من الانحطاط العلمي الذي طرأ عليهم في الأعصار الأخيرة وهو مما لا ينكر. لأننا نقول إذا سلم انحطاط علم الدين في ذويه بعصرنا فيلزم أن يكون ذلك الانحطاط أشد في غيرهم مثل مصطفى كمال، ومن أين له ولأشباهه حق التكلم ودعوى التقدم في علم الدين الذي لم يبدن به ولم يقرأ شيئاً من كتبه، ولكن السيف أصدق أنباء من الكتب. (م.ص)

(*) فهم الشيخ مصطفى صبري من واقع هذه التصرفات والأفعال، ويدعوننا أيضاً لكي نفهم، أن مصطفى كمال لم يكن غازياً في سبيل الله تعالى، بل في سبيل الشيطان، وتنقيساً عن أحفاده وعدواته متضافراً مع بين جلده من يهود (الدوغة) المقيمين في بلدة (سلاويك).

السرار الخفية ورام الفام الخلفة العلمانية

لسلامة المسلمين أم لقهرهم وشقوقهم وهل يكون فوق معاداة المسلمين الناشئة من ديانتهم عداوة يحذرون بها، وهل يبلغ الإنجليز أو اليونان أو غيرهما من الذين يهدد بهم الإسلام وقتاً دون وقت مبلغ أن يكلفوهم بإلغاء ما لديهم عليهم من الحكم والنقود، أو هل بلغ ذلك في أقوام وقعوا في أسرهم ونيرهم. وإن مع تضرعي إلى الله تعالى لأن يفتك رقاب إخواننا المسلمين بآثم صورة هو خير لهم مما هم فيه أبوح بأن الإنجليز مثلاً قد عمر لهم من دنياهم ولم يخرب من دينهم ما خرب الاتحاديون والكماليون من ديننا ودينانا، وهذا نراهم في معمورية البلاد وتزايد الأعداد وتوافي الغنى بحيث لا يجوز قياسهم علينا، والذين يقيمون في خارج تركيا ويحبذون متنايع التقلبات فيها غير واقفين على سوائقها وحبائباها وآثارها التي حاقت بنا فطحت من نفوسنا وأموالنا وجعلتنا كعصف مأكول، أراهم يهون عليهم تحييد ما نزل بالغير وساحتهم النازحة سالمة من ذلك. ولو تأمل المصريون في الحرب العظمى التي نفعتهم حتى أصدعهم إلى منازل الدول وأضررت الدولة العثمانية فقضتها ونقضت من مادياتها وأدياتها أضعاف ما بقي منها لعرفوا ما فعلت بنا تلك التقلبات، مع أن دخولنا في الحرب العمومية واحد منها. ولو اتسقت مصر معنا إلى تلك التقلبات كواحد من بلاد الأناضول لرأينا فيها بلاداً تركتها البلايا بلاقع وأناساً يبيتون القفر والفقر والروع والشوع بدل ما نرى فيها من جنات عشقها فاعتنقها أغمار وليال كالأنهر في نورها لا في حرورها وميان كالصرح الذي بناه هامان تبلغ أسباب السماء مدى ومئات ألف عدداً، ولما رأينا المصريين يتكلمون عن بضعة عشر مليوناً في بلادهم من التسمات وأضعافها في ميزاتيتهم من الجنيهات ودولتهم أترى يوم انفصالها بدرجات من الدولة التي انفصلت عنها. والثروة في عصرنا أساس كل قوة، فهم رابحون في متحرة المعيشة وسابحون لجح الراحة والأمنة على أموالهم وأنفسهم.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

هذه دنياهم، ومن جهة الدين تراهم أقوى ارتباطاً به وأحفظ عملاً واعتقاداً وأسلم من التلاعب به والسعي لهتك حرمة وإزالة كرامته وكرامة أصحابه وأنصاره. وبقي فرق ما بيننا وبينهم من حيث الاستقلال، وهو مع كونه عظيم الأهمية جداً وقطع النظر عن كونه عبارة عن استقلال شريعة واستبعادهم الأمة، فإذا كان ذلك الاستقلال، وعدمه مع عدم هذا الخسران أهون، بل عدمه معه أهون أيضاً، إذ يرجع وزر الحكومة اللادينية حينئذ إلى غيرنا ونكون نحن معذورين غير مختارين، وعند الاستقلال يضاف شكل الحكومة وجميع تطوراتها وتصرفاتها إلينا، وإن كنا أكثرنا غير راضين بها لأن المفروض والمدعى أن سياسة الحكومة منا لاسيما وأن السلطة الشخصية زالت وصارت السلطة إلى الأمة.

وإذا انتهى الكلام إلى هذا الموضوع فيأتي بنا الحق والإنصاف، إلا أن^(١) نعرف بأن الحكومة التركية كانت قبل الكماليين والاتحاديين أيضاً لا تمشي تماماً على الصراط السوي والمنهج الشرعي، بل كانت لا تحكم بما أنزل الله به في كل الأمور وتقلد الحكومات الزمنية الأوروبية. لكن الحق مع ذلك يأمرنا أن نشهد أولاً بعدم بلوغها في إهمال الشرع وأعمال التقليد مبلغ الحكومات الاتحادية والكمالية، ولاسيما أنها لم يقع منها تصريح ما يكونها حكومة لا دينية، بل التصريح كان يقع دائماً بضده، وبأن دين الدولة الإسلام، وأن من حق السلطان إجراء الأحكام الشرعية والمحافظة عليها. وثانياً أن تلك الحكومات لم تكن لتسلم في أدوارها

(١) نسوجه عناية القارئ إلى هذه الفقرة التي يلتزم فيها المؤلف بالأمانة حين المقارنة بين العهدين، أي تركيا قبل حكم الكماليين والاتحاديين، ثم في عهدهم. ولكن تبقى الكفة راححة لآل عثمان. ونرجو أن تأخذ هذه المقارنة مكانها في أبحاث المحللين والمؤرخين.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الأخيرة من تغلب الحكومات الأوربائية^(١) عليها، والأمة من قديم الزمان تحت

(١) وهذا حق، فقد تكاثرت على الدولة العثمانية دول أوروبا مراراً وتكراراً في حروب ومنازعات لم تنقطع، ولكي نعطي القارئ فكرة عن ضراوة هذه الحروب واستمرارها، يكفي أن نذكر أن الأمر شكيب أرسلان قد ترجم صفحات كاملة من كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا)، تأليف: دجوفارا الوزير الرومان، وكلها تنضج بالحقد الدفين على الإسلام والمسلمين.

(ينظر كتاب حاضرم العالم الإسلامي، جـ ٣، "التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي؟"، من ص ٢٠٨ إلى ص ٣٤٢، دار الفكر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

ويقول شكيب أرسلان: (وما أذكره أن أحد وزراء الدولة العثمانية - رحمه الله وجزاها عن الإسلام خيراً - كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال دول أوروبا فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال هم الوزير العثماني:

إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرنس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استتصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استتصالهم. ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا يبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين، وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام. فما هجس في ضمائرنا عاظم كهذا الخطأ أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع من السلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة وحاجة مثل زمينيلي على أفندي شيخ الإسلام ويقول له بلا عناية لس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعمهم عن أوطانهم. فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف. فبقى بين أظهرنا حين في أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة وبموس وكلهم كانوا وافرين، هم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن ينتصر.

ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين وكان في جنوى فرنسا وفي شمالي إيطاليا وفي جنوبها مئات ألوف منهم وليثوا في هاتيك الأوطان أعصرأ مديدة ومازلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام. ولقد طقت في بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم. فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحمروا جواباً).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

تغلب الحكومات السلطانية المطلقة، فكانت للحكومة معذرة وللأمة معذرتان. وأما إذا أحرزت الحكومة استقلالها التام بالنسبة إلى الأجانب والأمة استقلالها بالنسبة إلى حكومتها لاسيما بعد انتقال السلطة إليها فضلاً عن حريتها، فكل ما وقع من إجراءات الحكومة فهو في ذمة الأمة يعد مقترناً بمرضاتها وتكتب حسناته وسيئاته عليها، لأنها مختارة ومستقلة ولها الحكم والحكومة في مملكتها ويدها أزمة الأمر والنهي. فالاستقلال على قدر ما فيه من العزة يستتبع تبعه المسؤولية، وإنما الغرم بالغنم. وإن من استقلال مذهبي لا اللحج في القول بأن فقد الاستقلال على درجاته أهون من فقد الدين، ولا تقل أبين فقد الدين، بعدما اختارت الحكومة الخطأ اللادينية وصارت هي هذه الصيغة حكومة الخلق (الشعب) هذا ما وقعت فيه أمتنا جمعاء في خطوة واحدة بيد حكومتها الحاضرة وزد عليه المساعي المستمرة المصروفة في تربية أفرادها لاسيما شبانها على عقائد جديدة متجردة ومتشردة عن عقيدة الإسلام.^(١)

(١) وكلمة الحق التي يجب على المسلم الحر أن يجهر بها أن قوماً من الأقوام غير الإسلامية أو دولة كذلك لم تفعل ولن تفعل بنا معشر المسلمين ما فعل الاتحاديون الكماليون، وأن تغلبهم علينا أشد ضرراً من تغلبهم، كما أن كلمة الباطل التي طامنا أضللتنا أن الداهية الاتحادية أو الكمالية مهما عظمت فإمكان إزالتها فيما بيننا باق في كل زمان. وهذا ما سولته لنا أنفسنا منذ ستين، مع أن الداهية قد قطعت جماً من مسافة سيرها في نفوسنا وتمشت في مفاصلنا واقتربت ساعة نرى فيها استحالتنا إلى نسل جديد لا ديني قد ساومتنا هذه الاستحالة له وربنا بأيدي الكماليين، ثم لا يمكننا الخلاص من الصيغة الجديدة التي مكناها في نفوسنا وحببناها إليها، والإنسان يمكنه النجاة ممن بعده من أعدائه لا ممن بعده من أحيائه.

كيف احتراسى من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعي

فذلك العدو الذي لا نتر بنا لاستأثر بحسومتنا نرجو الخلاص من أسرة يوماً ما يسواقي أنفسنا المصونة من التغيير لاسيما في عصر استقلال الأمم. وهذا العدو الذي تكون عاقبة ظفره بنا =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وإني أرحو منك أيها القارئ المصرى والمندى أن تحمل كلمتى هذه على الإفراط فى الحكم الناشئ من نظرى إلى حكومة الكمالية بعين السخط، وها أنا

= تصرفه فى أرواحنا ولا يقر بعداوتنا من أول الأمر إلى آخره، بل يقتعنا بمودته وصداقته ومشاركته الجنسية فكيف يرحى لنا النجاء منه بل وإرادة النجاء و﴿عَمَّتْ يَهُودَى كُلُّ قُوَّةٍ حَكَمُوا بَعْدَ يَسِيرِهِمْ وَقَبُولُهُمْ أَنَّ أَرْضَهُمْ حَقٌّ وَنِعْمَ الْبَيْتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]. هذا، ومن الواجب أن أذيل هذا المقام بالإيضاح الآتى: وهو أن لا أقبل أن يتلقى كلامى ويفسر بمعنى أن أختار المسلمين على طيب نفس من أن يدخلوا تحت سلطة الأجانب أو يبقوا فيها، كلا، بل أغيرهم بفرق ما بين الشرين وأستعبد بالله منهما كليهما، وأزيد على ذلك بأن دولة أو أمة أثرت الحكومة اللادينية بعد الإسلام فالاندراست أحق بتلك الدولة ووقوع بلادها فى أيدي الأجانب الذين لا يتدخلون فى دين من يدخل تحت حكمهم أهون فى حق تلك الأمة، فلعل الأمة المسكينة يبقى دينهم مغفوطاً وسالماً من التعرض والتغير، ثم يستعيدون دولتهم ببركة فى أوطانها. إذا قدر ضياعها فلتكن الدولة أول ضايع ثم الدين. هذا ما أختاره فيما أخاف ولا أبالي لومة لائم، وما كنت بدعاً فى التشديد على الكماليين بتنزيلهم إلى ما دون الكافرين، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْقِينَ فِي النَّارِ الْأَشْقَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [فساد: ١٤٥].

ثم إن أعلم أن شياطين اللادينيين ينادون أن يستفيدوا من كلمتى هذه ويرددوها حجة على فى خيانة الوطن، بل إضاعة مجد الإسلام، وأن المسلمين الذين يعرفون ويعرفون مكان بلادنا فى المهادنة لدين الإسلام ضد أعدائه الخفية القوية المجهزة بجميع أنواع القوة ومكان ما قاسيته منهم من الشدائد والمهالك، يطمنون إن كنت لم أتكلم بهذه الكلمات الثقيلة التى هى مظنة لسوء تفسير الخصماء، لكنى قتلها وقللى محترق من ضياع الإسلام بأيدى الذين يُحسبون من بعيد أنهم حماة مجده، والباحث عن ضياع مجد الإسلام بعد ضياع نفس الكلام كمن يطلب أثراً بعد عين. ثم إن قلت ما قلت وقللى محترق أيضاً من إهمال أهل الديانة ما يجب عليهم فى حراسة دينهم من تسلط أولئك الأعداء وتوابعهم فى نصرة الحق إزاء تفاق اللادينيين فى نصر باطلهم. فكان هؤلاء المسلمين وجدوا هذا الدين ميراثاً من آباءهم فما عرفوا قدره ومن يريد شره أو خيره، فتركوه عرضة لكل مفسدة ومكيدة، فهل لا يتنافون يوم القيامة نسلهم الذين تسبوا وتسامحوا فى إضاعة دينهم أن يأخذوا بتلاييمهم ويجروهم معهم إلى النار؟ (م.ص)

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

أذكر لك ما كتبه جريدة "الأهرام" من لدنا كاشفة عن ماهية الكمالين من غير قصد الطعن فيهم، وهي من الصحف التي لا تعنيها معارضتها، وهذا نصها:

"حزبان في تركيا من الوجهة الإسلامية"

"في تركيا اليوم حزبان؛ الأول ينتحل حرية الرأي والعقيدة، ويريد أن يعرف بعنوان "ليبرال" أي "الأحرار"، وهو يرى أن لا حياة للترك إلا بأن يكونوا متفرجين ككل أمة من أمم أوروبا وأمريكا، فلا يمتازون عنها إلا باللغة والقومية والعصبية الجنسية، وفيما عدا ذلك فيجب أن يكون الرجل التركي أفرنجياً والمرأة التركية أفرنجية بعاداتها ومنهجها، وحياتهما البيئية، ومناحيهما الأخلاقية والاجتماعية، حتى يكون الفرق بين الترك والفرنسين - مثلاً - كالفرق بين الأسبانيين والإيطاليين، مقصوراً على اللغة والعصبية الجنسية. وهم يقولون ويعيدون أن لا رجاء لتركيا في أن تضارع أوروبا في قوتها وارتقائها إلا إذا احتذت على مثالها على كل أمر حتى تكون معها كالشيء وظله."

"وأما الفئة الثانية، فتري أن الشرق شرق والغرب غرب، وإن مصادر القوة والارتقاء في الغرب ليست شيئاً مقصوراً على الغرب، بل هو مبن على علم عام لا صبغة له، فيمكن للشرقي أن يقتنسه مع بقاءه شرقياً، وأن يقوى به دون أن يتنازل عن تقاليده القومية وصيغته الشرقية."

"مثل هذين الحزبين موجود في مصر والشام والهند، كما هو في تركيا، غير أن الفرق بين الحال في تركيا والحال في سائر أقطار الشرق أن المقتنعين - من رجال تركيا ونسائها - بفكرة التفرنج يوجد في يد كثير منهم جانب كبير من زمام الحكم، ولهم تأثير في تسيير دفة المملكة ويعملون على نشر طريقتهم بقوة الدولة

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

ويشوها في الأدمغة بكل الوسائل الرسمية. غير أن في مقابل هؤلاء فريقاً لا يستهان به من الأدباء والكتاب وأهل الفضل^(١) يجاهر بمقاومة فكرهم ويرفع صوته - بين حين وآخر - منبهاً الشعب التركي على أن الضلال من وراء هذه الخطة وأن العماية في الإصرار عليها".

"وقد عقد جريدة (توحيد أفكار) مقالاً افتتاحياً يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٢٣ عزت فيه إلى رجال هذا الحزب (حزب الأحرار) أنهم لا يفتنون يقولون: إنا نريد أن نؤسس في البلاد إدارة غير دينية (Laïque) ونريد أن نجعل الحكومة في معزل عن الدين ونريد أن نقرنح المملكة والأمة ونريد أن نجعل مستوانا الاجتماعي عصرياً، ولكن هؤلاء المحافظين واقفون عقبة في سبيل آمالنا الارتقائية، وكلما حاولنا أمراً وجدناهم حائلين بينه وبيننا معارضين مساعدنا بقوة الدين، ولو كنا مرتاحين من هؤلاء الجهلة المتعصبين أصحاب الأدمغة العتيقة والمتمسكين بالتقاليد لاستطعنا أن نهض بمعارف البلاد وأن نرفع مستوانا الاجتماعي، ولكن آه من هؤلاء المتعصبين، آه من هؤلاء الحجاج، آه من هؤلاء المشايخ".

"قالت (توحيد أفكار): والمحافظون يرون أن الحضارة الإسلامية أسمى من الحضارة الإفرنجية، وأن في الإمكان النهوض بالبلاد نمضة حقيقية باتباع قواعد الحضارة الإسلامية أو التمسك بالصالح النافع من تقاليدنا".

(١) ولكن كفة الفريق الأول هي التي رجحت بما لديها من سلطة، وبما تملكه من وسائل، وقد فرضت القوانين الغربية على الشعب بالقوة، وأرغمته على لبس القبعة، وألغت الكتابة باللغة العربية، إلى غير ذلك من إجراءات كانت تستند فيها إلى القوة، وتستخدم البطش إزاء كل من يقف في وجهها، ولو ترك للشعب الحرية في الاختيار لتغير الموقف كله، لما هو معروف عن الشعب التركي من الاستمسك بالإسلام.

ومن هنا كان شدة "تكبر" الشيخ مصطفى صبري على هؤلاء الحكام اللادينيين.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

"أما إذا اعتزلنا جميع تقاليدنا على الإطلاق فإننا نفقد بذلك مميزاتنا القومية وسحاياها وجميع مزاياها. ومادام فريق المحافظين عندنا مقتنعاً بصحة رأيه هذا فإن أفرادَه تقطر قلوبهم دماً تالماً لما يفقده فريق من رجالنا ونسائنا في كل يوم من سحاياهم وأخلاقهم ودينهم بما يتحلونه من البدع بدعوى أنهم يريدون أن يكونوا متفرجين وغير دينيين (Laique)". إلى هنا تنتهي عبارة الأهرام يوم ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

تعليق الشيخ مصطفى صبري:

أنا لا أزيد عليها شيئاً غير التصريح بما أشارت إليه (الأهرام) من أن الحكومة الحاضرة التركية في أيدي الحزب الأول الذي تشكو (توحيد أفكار) خططهم المتفرجة^(١)، وأن مصطفى كمال رئيسهم الآن، وقد نال في شأن توحيد أفكار أمما منفردة بين الصحف التركية في منهجها الناصر للمحافظين، كما حكمه تلك الجريدة بعددها المنتشر في ٢٧ سبتمبر ١٩٢٣م، وأن المحافظين المتدينين هم الأكثرون في الأتراك، وهذا مما لا ريب فيه، وإن استضعفهم مصطفى كمال،

(١) ولكن لم يسمح لفريق المحافظين - كما سميتهم الجريدة - بالتعبير عن آرائهم وهم الغالية وتسلط التفسيرمون برئاسة أتاتورك، ووضعت تحت أيديهم أدوات القوة من الحكم والحكومة والصحف والجيش، فتمكنوا بما لهم من نفوذ وسلطان، وما استخدموه من وسائل الإرهاب والبطش، فتمكنوا من إخماد أصوات المتدينين وهم الأكثرية.

وما زالت هذه الخطة متبعة لتوجيه المجتمعات الإسلامية نحو التفرج وإبعادها عن الإسلام، وقد أثبت العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في العالم الإسلامي) أن التحرية الكمالية الضالة صارت قدوة للبلاد الإسلامية كلها، صحيح لم تتم بحذافيرها، ولكنها كانت تتشكل وفق أحوال البلاد.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الثقة العلمانية

إلا أن الأقلين اللادنيين بأيديهم الحكم والحكومة والصحف وكل النفوذ من عهد الاتحاديين فصاعداً إلى عهد الكماليين، وعالم الإسلام يعينهم فوق إعانتة من يراحمهم من المحافظين.

فيا أسفا على الأتراك يسوس المتدينين الأكثرين منهم اللادنيون الأقلون بحيث يسوقونهم إلى مذاهبهم يوماً فيوماً وهم لا يشعرون، وربما يشعرون ولكن لا يهتمون بشأنه كما يليق، ويا أسفا على عالم الإسلام طالما كان ويكون قوة ظهر اللادنيين وعوناً لهم على المؤمنين ولسانه متهيئ لتحريض كل ما صدر عنهم من الفعّال وتأويله وإن كان مرماه إلى نقض قواعد الإسلام وإقامة الأسس اللادينية مقامها، وهم يضحكون فيما بينهم من أولئك المسلمين الذين يخربون بيوتهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، كما أن العارفين بحقائق الأحوال - قليل ما هم - يكون من ذلك، والله تعالى يتولى جزاء هذه الغفلة والحماسة بما تستحقانه في الدنيا والآخرة. والذي حبذا هذه المساعي أو دافع عنها في ديارنا رجلان: أحدهما من وافقها مذهبه، والآخر من فعل ذلك لمعاملة اللادنيين المستولين على الحكم والحكومة وباع دينه بدنياء. والخبثون أو المدافعون من المصريين وأشباههم غير مشتركين في مذاهبهم ولا منطقتين في مغائرتهم أخسر صفقة من الكل حيث باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.

عداء الاتحاديين والكماليين للدين:

ثم إن أنشدكم الله يا أهل الإسلام النائيين عن بلادنا إن كنتم صحيحى المودة والعلاقة بدينكم ودين إخوانكم المسلمين، فجدوا في تمييز أعدائه من أوليائه وهادمية

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

من خادمية ولا تغتروا بالظواهر، وابعثوا إلى بلادنا التي تعتنون بشأها أمناء عدلاً وعقلاً ولا تبعثوهم كالوفد الرسمي تضيفهم الحكومة ولا يقابلون أو يحاسون إلا رجالها أو تحت رقابة موظفيها، بل لابد لهم أن يتعمقوا في ما وراء ستائر الحكومة ويتفحصوا عن أحوال أهلها المسلمين الخالص ويستيطنواهم حتى يتبين لهم ما كابدوا من الحكومة اللادينية في دينهم وديانهم مغبونين بشيء منهما كل يوم، وحتى يتبين لكم أن صادق أو كاذب فيما ذكرته بين دفتي هذا الكتاب. ولعمري إن من رزق فراسة^(١) المؤمن الذي ينظر بنور الله لا يخفى عليه ما بدأ بمبدأ الاتحاديين ثم امتد حتى اشتد وتفاقم بعد ظهور الكماليين من المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين المخلصين. ومن شذائد المكائد التي جعلت هذه العداوة المضمرة داءً عضالاً وأغفلت المسلمين إغفالاً أن أعداء الإسلام هؤلاء لا يزالون يتراءون في صورة أعداء النصاري ويتظاهرون بما وهم في الحقيقة أعداء الإسلام والنصرانية معاً، وبالتعبير الوجيز أنهم ملاحدة أعداء الدين على إطلاقه، أي دين كان، لكنهم لدين الإسلام أشد منهم خصومة لغیره، لما أنهم يرون كثيراً من أبناء جنسهم في أسر هذا الدين ومبدأهم هدم عقيدة الدين وتخليص بني جنسهم من ريقته. وما يرى منهم من ترغيبهم الأتراك إلى دين جددهم (زردشت) الخوسي وتحويل صلاتهم الإسلامية إلى صلاة (الذنب الأبيض) معبود الطورانيين القدم، وقد اشتهر أمر إدخالهم إياها في الجيش، حيث حتموا عليه الاصطفاف والجهر بهذه الصلاة عند غروب كل يوم، على ما ذكرته جريدة (الرأي العام) الغراء في العدد ٣٤٤٢، فإنما ذلك لتبديد الأتراك عن دين الإسلام وانسائهم إياه وإقامة الشعور الجنسي مقام الشعور الديني لا لإقامة دين

(١) ظهر صدق فراسته، وكتب في نهاية الكتاب فصلاً بعنوان (قطعت جبهة قول كل خطيب)، ضم فيه قرارات أتاتورك المهدمة للإسلام وشريعته، وأصبحت الحكومة لا دينية.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

المجوس مقام دين الإسلام، لألهم لا دينيون يغضون الأديان كلها كما قلنا ويرون كلها مصنوع البشر، نعم إن المجوسية عندهم أهون شراً من دين الإسلام، حيث لم تكن ربيقتها أقوى بقدر ربقته. ومن وراء كل مبدأ الاستنفاع بالمنافع الحيوية المادية كيف ما تحصل لهم تلك المنافع ولو في مضمار البشر الذين يدعون إنقاذه من أسر الدين، حتى أن منابت منافعهم لما رأوها تنحصب عندما تنحصب بأمطار الدماء وأغارها، فلم يألوا جهداً ولم يهملوا وسيلة في تهيج البغضاء وإثارة الفتنة بين الفريقين، أعني المسلمين والنصارى، وكل خسار يحل بهما من ذلك فليس بخارج عن مقاصدهم ومطالبهم، لاسيما إذا تضمن ما يزيد في مكاسبهم، وقد رحمت بحارهم في ديارنا منذ بضع سنين ونجحت مكائدهم في أشكال وصور مختلفة تحير العقول وتدهشها. حتى أخبرني ممن أتق بهم من أهل الأناضول المسلمين أن الحركة الكمالية من كون سياقتها لإخراج اليونان من الأناضول كانت في بادئ أمرها لا تؤيدها الأمة ولا تمدها بغاية وسمها لعدم رجاء الخير والصلاح منهم ومن حركاتهم، وقد حصل للأمة عظيم النفور والانزعاج من حكومة الاتحاديين وما فعلوه أثناء الحرب الكبرى مما يقلق العباد ويخرب البلاد، ولم يسلم منه دينهم ودنياهم وأسماهم فمادى الخروب إلى ما لا نهاية له، مع أن اليونان كانت يومئذ ترفق بأهل البلاد التي احتلها وتعاملها وتحم بتأسيس الأمن والانتظام بينهم، فدام الحال على ذلك المتوال تمتد وترتقى حركات اليونان في داخل الأناضول ويتوالى تقهقر الكماليين على مر الشهور والأعوام، والأمة في كسل الملل والسأم حتى بدا للكماليين أن يعتدوا بالقتل والنهب على الأروام من سكان المدن والقرى اللاتي ينسحبون منهم ويتركهن إلى جنود اليونان ليظلموا على ذلك وينقموا من المسلمين بأمثال ذلك الاعتداء، فكان كما عمدوا وعمت البلايا على المسلمين والنصارى من جنود الطرفين واشتد الخصام بين الفريقين وانتشرت الأخبار المفجعة بما يملأ المسامع من قريب أو بعيد،

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلاعة العلمانية

فأيقن المسلمون المهلكة ووخامة الحالة وشعروا عن ساق الجسد ونمام الاهتمام حتى انهم جيش اليونان. والحرب الخادعة والناجح فيها صاحب بدعة، ولكن هذه البدعة والخدعة فحيجة جداً بحيث لا تميل القلوب إلى تصديق وقوعها. ولا يبالي الاتحاديون والكماليون أن بالغوا في فتنه الناس ومكيدتهم حتى أتوا فيها بالعجب العجائب اتكالا على أنهما مهما ازدادت غرابة زادهم نجاحاً ويستعبدانها من سمعها من بعيد، وربما يكذبها فتسهل البراءة من مسئوليتها، بل تنقلب التهمة على القائل الناقد بدلاً من الفاعل الموحد، ولا سيما وعلى منتقديهم التهمة المجهزة دائماً من موالاة النصارى لكون أنفسهم أعدائها فيما يترأى وكثير من الناس مولعون ببناء الفاسد على الفاسد وما سوق الرثاء كسوق الحقيقة كاسد. وما يروق ظاهره كثيراً من الناس أنه بعد غلبة الحركة الكمالية اضطر غير المسلمين على الخروج من تركيا وتركوا أوطانهم^(١)، وتقرر في مؤتمر (لوزان) مبادلة من بقى في الأناضول من الأروام بالمسلمين الساكنين في بلاد اليونان، فهذه الوقائع التي أدى إليها نجاح الكماليين في الحرب والمؤتمر تنبئ بظواهرها عن خدمة العصبية الإسلامية والحصول

(١) يعلق شكيب أرسلان على ذلك بقوله:

(ولقد كانت في السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون واقرين مترفحين كاسيين متمسعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامي، فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الترك بأوضاع الإفرنج وقتلهم في كل شيء وتحولوا إلى سياسة (التمغرب) لم يبق في جميع الأناضول إلا فئة قليلة جداً من المسيحيين.

... وهذا برهان ساطع على سماح الشرع الإسلامي وإمكان تسامح المسلم والمسيحي واليهوي في ظله بالأمان والأطمئنان وعدم سماحة الطريقة الأوروبية التي أخذ بها الترك!! بقصد الكماليين.

(حاضر العالم الإسلامي، ج٣، ص٣٢٨).

وكان الأمير شكيب - رحمه الله تعالى - يقدم هذه الحجة المستندة إلى التاريخ بوقائعها الخيرية إلى أولئك الذين يعترضون الآن على تطبيق الشريعة الإسلامية بحجة الأقليات!

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

على وحدتها، لكن لم في ذلك مقاصد أخرى كتسلط (روم ايلي) المنتمين إليهم بعودتيهم وسلانيكيهم وبينهم أقارب مصطفى كمال وخواص أعوانه على أترك الأناضول ليكونوا عوناً لهم متمكنين ومتوطنين في جميع أنحاء الأناضول فيدوم نفوذهم وتغلبهم عليهم إلى ما شاء الله.^(١)

ومن أعظم المقاصد أن سوق مكاسبهم طالما تنفق وتفيض من هذه المبادلات التي تشتمل على مبادلة الإنسان والأوطان بلا اختيار المبدلين أنفسهم. ولا بأس عليهم إن ماتت مئات وآلاف من الطرفين المبدلين بنسوتهم وأطفالهم وشيوخهم وضعفائهم من برد الشتاء وتأثير الجاعة والأمراض المتولدة من سوء القيام بأمرهم وعدم الانتظام وطول المكث في الطرقات لنقصان المراكب ورداءتها وققدان الآلات والوسائل. وفي جريدة (الوطن) التركية بعددها ٣٠٢ نشرت شكوى من (بروسة) لأحد من المهاجرين المستبدلين بأوطانهم، يقول فيها: "إن في بروسه (٢٠٠٠) منزل منتظمة للأروام المهاجرين، لكن موظفي الحكومة شغلواهم لأنفسهم وأحل المهاجرون بالمنازل الخربة لا أبواب لبيوتها ولا زجاج في نوافذها، وفي كل يوم يموت من المهاجرين ثلاثون نسمة فصاعداً". وقس على (بروسة) عدد من يموت من غيرها من البلاد. فهذه الوفيات التي تطلع بنا على كثرتها المائلة صحف الأستانة إنما يكون تأثيرها في قلب الحكومة الكمالية كما وقع من التأثير في قلب المرحوم

(١) وهذه إحدى خطط مصطفى كمال كشف عنها المؤلف، ولا نظن أن معاصريه تنهوا إليها. الجسم كانوا بمثابة (الطابور الخامس) في أنحاء الدولة العثمانية، ويزداد الأمر وضوحاً إذا عرفنا أن كثيراً من الأجانب - نساءً ورجالاً - دخلوا الإسلام وغيروا أسماءهم بأسماء إسلامية، ووصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة، وأطلعوا أعدائهم على أسرارهم، وعملوا على تدميرها!! (مصطفى كمال، المسألة الشرقية، ص ١١، مطبعة الآداب بمصر، سنة ١٨٩٨ م).

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العثمانية

(عجاجة نصر الدين) لما تعهد أن يجاوز بنقر من العميان محرراً على أن يأخذ لكل نفس منهم فلساً، فسقط أحدهم عند العبور بهم في الشهر، فصاح رفاقه، فقال (عجاجة): لا تجزعوا وانتقصوا من الأجرة فلساً! ^(١)

(١) وإحداث المشاغل والغوائل والفتن والفرقة بين الأمم وإثارة العداوة وإيقاد نيرانها بين المسلمين وغير المسلمين حرفة وبجارة لهم، أي الفريقين يظهر أو يخسر فإن لهم مغام ومكاسب في تلك الحركات والتحريكات. وهم يدعون عصبية الإسلام ثم يريدون أن تكون الحكومة والحاكمية لهم لا للدين، فلهذا فرقوا بين الخلافة والحكومة وصرحوا بقطع تدخل الدين في الشؤون الدينية والسياسية، فهم مع دعوى الغيرة الإسلامية يزاحمون دين الإسلام في الحكم والنفوذ ومقاسمة الحقوق السياسية ويعدونه لذلك، وكيف يجتمع المحبة والعصبية للمسلمين مع المنافسة والخصومة لدين الإسلام واغتصاب الحكم والنفوذ من يده، مع أن محبة المسلمين يجب أن تكون لدينهم لا لأنفسهم. ولا بد للمسلمين أن ينعموا النظر في هذه النظرة الدقيقة ^(*) حين يتبين عندهم الصادق والكاذب في دعوى المحبة. فالانتماديون الكماليون مهما طلبوا الجهد والاستقلال فإنما طلبوها لإعزاز أنفسهم بحلب المنافع الدينية المحضة، لا لإعزاز الدين وإعلاء كلمة الله، بل قصدوا بعد ذلك إهانتها. فغاب عنهم أن تكون لهم العزة والقوة ولدين الله الفضل والمهوان، فإذا ما وصل إلى وماذا يصل إلى أي الله من نجاحهم؟ والله تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُهَيِّدِ الْعِزَّةَ عَلَى الْعِبَادَةِ حَيْثُ مَا إِلَهُ يَمْشُقْهُ أَلَكِبْرُ الْعَلِيَّةِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وَالَّذِينَ يَمْشُقُونَ أَلْسِنَتِي لَأَكِيدَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿وَتَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُنَوِّرُ﴾ [فاطر: ١٠]. (م.ص)

(*) وهى النقطة التي تعد الشغل الشاغل لشيخنا، فقد بُعِ صوته من كثرة ما ردد لتبنيه المسلمين إلى بدعة ما استحدثه الكماليون حينما فصلوا بين الخلافة والسلطنة، وحردوا الخليفة من سلطاته، ونزعوا من الإسلام الحاكمية والمهيمنة على شؤون الحياة المدنية والسياسية. وإذا نظرنا إلى أحوال المسلمين اليوم لوجدنا أن نجاح الغرب في تحويل الأمة الإسلامية عن عقيدتها يقوم على هذه النقطة الدقيقة، بما يقيس مدى نجاحه أو فشله في حركة التغريب. وها نحن نرى الشيخ مصطفى صبري يؤكد حاكمية الدين عن سواء.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وناهيك دليلاً على أن عمدتهم في مثل تلك الأفعال والحركات غير الفكرة الإسلامية وخدمتها أنه لو كان كذلك لما تمكّموا في تبعيد العناصر غير المسلمة عن ساحة الأمة، وهم كانوا يعتذرون من قبل عن إهمالهم بكثير من الأحكام الشرعية في إجراءات الحكومة ومفاوضات البرلمان، قائلين بأن الحكومة تحت يدها عناصر مختلفة وإن مجلس الأمة الذي ينظم فيه قوانينها مؤلف من النواب المسلمين وغيرهم. فهذا هو ذا الآن مجلس المسلمين والديار ديارهم بعد إخراج غيرهما منها، فكان فرصة لأن تنصّب الحكومة بالصبغة الإسلامية لا فرصة لأن تتسلخ منها، فهل كان وجود حكومة الخلافة في أرضنا للبيعة غير المسلمة حتى ذهبت بذهايم، أو كانت المحاكم الشرعية موضوعة لهم حتى استغنى عنها بعدها فحوّل إلغاؤها؟ وهل واجب المسلمين أن لا يأذنوا لإقامة النصارى في أرضهم أو إقامة أحكام الإسلام فيها؟ وماذا يضرهم الكفار عندما اختاروا لأنفسهم الكفر بعد الإسلام؟ نعم إن الكفر المختار عندهم الإلحاد لا النصرانية، وأن المقصود من هذه المبادلات مع ما ذكرناه من المقاصد المضمرة عبارة عن التصفية الجنسية (الترك) لا التصفية الإسلامية، ولم في التصفية الجنسية غايتان: الافتراق عن الإسلام وعن الأقوام المسلمين، وربما يحصل لهم بما اقتراب إلى الأمم الأوربائية.

العداء اليهودي هو السبب:

ومما ينبغي أن تنبه عليه أنه ليس من المستبعد أن تكون هذه العداوة المضمرة التي ذكرنا نبتة من مكائدها وهي متوجهة نحونا تارة بالذات وتارة بصورة تمبيج العداوة بين المسلمين والنصارى عبارة عن عداوة اليهود، ولقد صدق الله تعالى حيث قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ﴾

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العلمانية

فاليهود معلومون ومعلوم تقادم عداوتهم للمسلمين وفتنتهم المتصاعدة إلى عهد الخلفاء الراشدين^(١) وإلى لئو شبهة من أمثلة اليهود في اغتيال أكثر الخلفاء الراشدين وفيهم الخليفة الأعظم والأعدل عمر بن الخطاب رجل الإسلام والمسلمين، لاسيما في دم عثمان بن عفان التي كانت مبدأ كل فتنة حدثت في الإسلام. وأنا معاصر المسلمين الحاضرين لمقصرون في التنقيب عن تلك الوقائع الهامة وتدریس مسائلها في مدارسنا ليتعلم الطلاب والشباب قبل تعلمهم بتاريخ الأحناف، تاريخ الإسلام وما يحوط بحياة النبي ﷺ وخلفائه من الشئون بتفاصيلها، فنعتبر بها ويعتبر الطلاب والشباب ويتأدبوا بأداب الإسلام في عصره الذهبي، ولنتعرف ونكتنه عيد الله بن سبأ وما لعب من الدور، بل وكعب الأحبار^(٢) ثم إلى أحسن في هدم سلطنة

(١) يظهر هذا الرأي سعة اطلاع الشيخ مصطفى صبري وإلمامه الدقيق بأحداث التاريخ وترايط حلقاته، أضف إلى ذلك مراقبته لأفعال اليهود من معاصريه، حيث اتضح له تسلسل المؤامرات التي لم تنقطع منذ عهد الله بن سبا حتى قره صور.

وفي دراسة أخرى للدكتور محمد بدیع الشریف، يرى سلسلة العداء اليهودي مر مترابطاً منذ عصور المسلمين الأوائل، فإن التآمر على قتل الخليفة الثاني رضي الله عنه وتآمر على قتل الخليفة الثالث، ولا يختلف عن يعقوب بن كلس وزير الأخشيدي الذي دل المعز لدين الله - وهو من الباطنية - على عورات البلاد في حكم سيده وهذا لا يختلف على دزرتيلي الذي اشترى لقومه أسهم قناة السويس واحتجز للإنجليز جزيرة قبرص.

(كتاب الصراع بين الموالى والعرب، ص ١٧٩).

(٢) إنقاذ الشيخ مصطفى في الغمامه لكعب الأحبار، بما رواه الطبري في الرواية التي تشير بأصابع الاتهام لكعب ﷺ بأن له يداً في استشهاد عمر بن الخطاب ﷺ. وقد ناقش الدكتور الذهبي - رحمه الله تعالى - مدى صحة هذا الخبر.

وخلاصته أنه جاء إلى عمر قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل وفي التوراة، قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا ولكن أجده صفتك وحاليتك وأنه قد قتل أجلك.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

ويرى الشيخ الذهبي أن ابن جرير لم يلتزم الصحة في كل ما يرويّه، كما أن ما يرويّه في تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التي تحتمل الصدق والكذب.

كذلك يدافع الذهبي عن كعب الأخبار رداً على المفترقات التي وجهها البعض إليه، محتجاً بمقالات بعض أعلام الصحابة فيه، ومحصياً من أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم، مستخلصاً من ذلك كله ما يشهد لهذا الصحابي الجليل بقوة دينه وصدق نيته، وأنه طوى قلبه على الإسلام الخفي والدين الخالص. ويبرهن على ذلك بالعوامل الآتية بياناً:

أولاً: أنه أسلم على المشهور في خلافة عمر رضي الله عنه وسكن المدينة وصحب عمر، وروى عنه وشارك في غزو الروم في خلافة عمر - هو العنبري الملقب - فلا يعقل أن يساكن كعباً في المدينة ويصاحبه ويكتبه في جيش المسلمين لغزو الروم وهو مخدوع فيه وفي إسلامه.

ثانياً: كان له بالتقافة اليهودية والثقافة الإسلامية معرفة واسعة.

ثالثاً: أجمع العلماء على توثيق كعب.

وقد أسهب الشيخ الذهبي - رحمه الله تعالى - في تفنيد الاتهامات الموجهة إلى كعب، حيث حلل الأقوال كلها مما لا يدع مجالاً للشك في عدله وتوثيقه. ونحيل القارئ الكريم إلى هذا البحث القيم، مكتفين هنا فقط بمناقشة الصق هذه العبارات بموضوعنا الواردة على لسان معاوية "إنا كنا لنبلو عليه الكذب".

وبالرجوع إلى شرح الحديث بخدمهم - كما يقول الدكتور الذهبي - بشرحونه بما يعيد هذه الوصفة الشنيعة عن كعب الأخبار. وفي شرح ابن حجر في الفتح يقول: "وإننا كنا لنبلو عليه الكذب"، أي يقع بعض ما خبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به. وقال ابن حبان في كتاب الثقات: أراد معاوية أن يختلج أحياناً فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذاباً، وقال غيره الضمير في قوله "لنبلو عليه" للكتاب لا لكعب، وإنما يقع في كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه. وقال عياض: يصح عوده على الكتاب، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وأن لم يقصد الكذب ويتعمده إذا لا يشترط في مسي الكذب التعمد، بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تحريج لكعب بالكذب. وقال ابن الجوزي: إن بعض الذي يخبر به كعب من أهل الكتاب يكون كذباً، وإلا فقد كان كعب من أخبار الأخبار.

ويضيف الشيخ الذهبي إلى ذلك وصف معاوية لكعب بقوله: إلا أن كعب الأخبار أحد العلماء، إن كان عنده علم كالنمار (وفي رواية: كالبحار). وإن كنا لمفرطين فمعاوية - رحمه الله - قد -

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلافة العلمانية

عيد الحميد - وقد أبلغه قرار جلعه^(١) (قره صوه) الاتحادى الشهير الإسرائيلى - تمام ظفر اليهود الذين ابتدأت فتنهم فى صدر الإسلام على الحكومة الإسلامية ضد من عد جمهورية أنقرة إنشاء وإحياء ما هدمته وأعدمته واقعة (صفين) من الحكومة الإسلامية الراشدة.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]، فاليهود ذكرنا شدة فتنهم وعماقة عدائهم، والاتحاديون والكماليون اللادينيون من الذين أشركوا. فاتفق هذان الخصمان الألدان وعمدا إلى قطع دابرنا ودابر دولة الخلافة. ولن نجد ملة أو قوماً فى خارج بلادنا وداخله دامت موة الاتحاديين والكماليين معهم إلا اليهود بأصليهم وعودتيهم، ولا يقاس عليهم فى الوثوق بصداقتهم فى داخل المملكة وغيرهم، ولو كان من الأقوام الإسلامية، حتى إن الأتراك لا تعد لهم فى ذلك، فلماذا لم يسلم من اعتدائهم فى تركيا ما بين ألبانها

- شهد لكعب بالعلم وغازاته، وحكم على نفسه بأنه فرط فى علم كعب، فهل يعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب؟ وهل يعقل أن يتحسر ويتدم على ما فاته من علم رجل يدلس فى كتب الله ويحرف فى وحى السماء؟

اللسهم إن كعباً مظلوم من منتهيه، ولا أقول عنه إلا أنه ثقة مأمون، وعالم استغل اسمه فنسب إليه روايات معظمها خرافات وأباطيل، لتروج بذلك على العامة، ويتقبلها الأعمار من البهلة. (ص ١٣٩-١٤٠، الإسرائيليات للذهبي).

وينظر كتاب الشيخ الدكتور محمد السيد حسين الذهبي: (الإسرائيليات فى التفسير والحديث، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، الكتاب السابع والثلاثون، شعبان ١٣٩١هـ/ أكتوبر ١٩٧١م، من ص ١٢٥ إلى ص ١٤٠).

(١) بعدما يئس اليهود من السلطان عبد الحميد لرفضه رشوتهم مقابل شراء أراضي بالقدس استطاعوا بواسطة يهود الدونغا كما أوضحنا القيام بانقلاب ضده، وزيادة فى التشفى من السلطان، حمل له كتاب التنازل هذا اليهودى (قره صوه).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وعربها وأكرادها وأرمنها وأروامها وشراكسها وأتراكها إلا اليهود^(١)، وحتى أنه لم يطرد اتخاذهم وليحة ولا ولياً من مشايخ الإسلام اطراد اتخاذهم من رؤساء الحاخام.

إذا نظرت بعين الحقيقة والبصيرة رأيت للإسلام أعداء مظهرى العداوة وأعداء مسريها، والاتحاديون والكماليون من القسم الثانى، وأكبر الأعداء أخفاهم مكيدة، يعرف ذلك من بلاهم وذاق بلاياهم واستقصى أحوالهم وأفعالهم، وإن افتن بهم من سمعهم من بعيد بدلالة الألسنة والأقلام المستأجرة بأموالهم وبأموال من تعهد مظاهرتهم من الجمعيات السرية النافذة في سياسة العالم.^(٢) ولقد عُمر الاتحاديون

(١) وهكذا أثبتت الأحداث أن اليهود يحتفون ورائها. يقول هيربرت أبرى: «... ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه الفئة المغمورة المعروفة بـ"الدوغة" ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج عظيمة في سير التاريخ!!» (نقل عن د. يوسف القرضاوى: الخلل المستوردة، ص ١٥٣).

(٢) وهنا أذكر ما جرى في البرلمان العثماني عند بدء الحرب بينا وبين الإيطاليين في (طرابلس الغرب)، وقد عقدت جلسة سرية بطلب سعيد باشا رئيس الوزارة الاتحادية يومئذ، وكان الغرض من عقده المجلس استجلاء أصوات الثقة بتلك الوزارة من النواب، فاتفق أن قرأ "محمود ناجى بك" نائب طرابلس الغرب وعينه تدمعان رسالة أرسلها إليه أخوه، وقد كتبت قبل بدء الحرب بعشرة أيام، يقول فيها: يا أخى ماذا تصنعون وماذا تصنع الحكومة وقد جردت بلادنا من أدوات الدفاع، فسحبت المدافع الكبرى عنها، ودعت الولى وقائد الجيش إلى الآستانة ولم تقم مقامهما غيرها، وأنا طالع وأتبع صحف الإيطاليين من زمان فأراها اليوم تحت الحكومة على الاحتلال بطرابلس، قائلة إن هذا وقته فيجب انتهاز الفرصة، وهذا مشروع جميع الأحزاب في إيطاليا لا يخالفهم إلا الفريقان وهم البنايون الأحرار، ويتبعهم الاشتراكيون، وهم يقولون لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتها في أيدي البنايين الأحرار، لأن ذلك يفضي إلى تزعزع مراكزهم هناك. هذا ما سمعته بأذن وأنا نائب (توقاد) وسمعه معى من النواب أكثر من مائتين، فإن لم يشهدوا به فسيشهدون يوم يشهد عليهم جميعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقارئ الرسالة - أعني محمود ناجى بك - كان من حزب الاتحاد، ولكنه أثر في الحال والزمان فلم يملك نفسه، وأنطقه الله الذى أنطق كل شيء، وفيه عبرة لمن يعتبر ويختار من ماضى الاتحاديين =

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

والكعماليون ما يتذكر فيه من تذكر وحدث كثير من الحوادث والعمر، وهذه الدولة أى العثمانية التى صارت الدولة العظيمة فى الأعصار وفى قريب عهدها ضيقت المعركة على جيوش اليونان بقرب عاصمته انحطت بأيديهم وأيدى إخوانهم فى أقل زمان، وهبطت إلى حال يعدلها فخراً إنقاذ الأزميز من اليونان، ثم يطفى بهم هذا الفخر حتى يغولهم حق البغى والخروج على تلك الدولة والاستهانة بمحدها وشخصيتها المادية والمنعوية وتغيير كل ما كان موضوعاً فيها، فجعلوا الدولة ملغاة والخلافة خرافة والسياسة تلصصاً وأهل الديانة عالميها وعامليها ودور كتبها التى تباع فيها أو تخزن للمطالعة كلها فضالة واجبة الإزالة، وقطعوا نسب الأمة من آباؤهم القريبة العثمانية والإسلامية، وذهبوا إلى الآباء البعيدة المنسية المشتركة، مريدين من هذا القطع والانتساب قطع علاقاتهم بسائر الأمم الإسلامية أيضاً، فتركوا أمة الترك المسلمة المسكينة بلا آباء ولا أخوة إسلاميين، ومع ذلك يزداد أولئك الأمم الإسلامية حباً فلولاء قطاع الطرق والرحم كل يوم جديد بمكر جديد. والله در أبى الفراس حيث قال:

وبعض الظالمين وإن تناهسى شئى الظلم مغتفر الذنوب

فيا أهل الإسلام ما هذه الألاعيب التى بكم يلعبون، أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون، يوماً يقولون إن (كريد) روحنا، يوماً أن (أدرنة) قرّة أعيننا و(سلانيك) كعبتنا و(أزمير) عوض لنا عن جميع بلداتنا المضیعة فى الحرب الكبرى والباقية فى أيدينا وعن دولتنا العثمانية وخلافتنا الإسلامية وشريعتنا السمحاء، يوماً يعدون

« وحالمهم. ولم يعسر على أصحاب النظر فهم الرابطة بين الماضى والحال، كما لم يعسر فهمها من الرجال بعد تقلب عناوينها إلى الكعماليين الذين كان أول وفد منهم دخلوا الأستانة فى رئاسة رافت باشا نزلوا (عقل الشرق). (م.ص) »

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

الأستانة عيناً ثقيلاً علينا و(الطوران) وطننا ويأجوج أصلنا وجنكيز جدنا المعادل لجد (الحسين). تراهم يشنقون اقتصاصاً لبعض الأرمنيين الذين قتلوا في ثورة (أطنة) عام ١٩٠٩م جمّاً غفيراً من المسلمين ثم يستكثرون شنق مسلم واحد - كمال بك قائم مقام قضاء "يوغازليان" - لقتلى الأرمن في خلال الحرب الكبرى. تارة يرون شهداء من الأرمن وتارة يعدون الأليان والأكراد والشراكسة والعرب والعلماء الإسلامية والسلطين العثمانية خونة الوطن، فإذا أقبلوا على من شاعوا من أنذل الناس وأضلهم جعلوه أميراً أعظم يصلى عليه ويسلم، وإذا غضبوا وسخطوا خليفة المسلمين أمطروا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، يضعون الشريف ويرفعون الوضيع وينذون كتاب الله وراء ظهورهم ويسمونهم كتاباً أسوداً وعصبة الدين قوة سوداء، ومن يكابدهم يلقى عجباً، وقد اتخذوا الإسلام والمسلمين هزواً ولعباً، فلو قام رسول الله ﷺ من روضته ولماهم لقالوا هذا خائن الدين والوطن^(١)، والحاصل أن ما أعظموا من المكان والإنسان يصير عظيماً وما هانوه يصير مهيناً، والمسلمون - إلا من هدى الله منهم - يصدقونهم في كل ذلك.

هو الجدد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدي

(١) إلى هذا الحد كمنسوا الأفواه، وفرضوا أنفسهم بقوة البطش والظفر لكل من يعترض على أتاتورك، لاسيما إذا ارتفع صوت ينادى بالإسلام، فقد ثارت قبائل الأكراد التي تستوطن الجبال المحاذية للحدود الإيرانية، وارتفعت صيحتها المدوية (تسقط جمهورية أنقرة وبما السلطان والخليفة)، ثم زحفت جماعاتها الضاربة نحو أنقرة تبغى "إنقاذ الإسلام"، فانقض عليها مصطفى كمال بعد أن خدع الشعب كطريقته المعتادة بحجة أن الإنجليز وراء الأكراد... وباتت كردستان كلها طعماً للنار والسيوف؛ أحرقت قراها، وعذب رجالها وقتلوا، وأتلفت محاصيلها، وانقضت نساؤها، وقتل أطفالها. (أرمسترونج: مصطفى كمال... الذئب الأخير، ص ٢١٥-٢١٦).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

فكان المسلمون ليس لديهم أساس ولا قسطاس يوزن به كل من يريد أن يتقدم عليهم ويسلمون قيادهم إلى هديه، فلذلك تراهم يوماً يلبسون الأتور بشرع (الأتور)، ويوماً يخضعون لحكم مصطفى كمال أكثر من خضوعهم لأحكام الرب المتعال.

وإعظام أمر أزمير من هذا القبيل، مع أن من منحهم اليونان هم الذين دخلوا الحرب الكبرى ضد حلفاء اليونان وغلبوا فيها كما ذكرنا من قبل. فلو لم يكن منا الولوج في تلك الحرب لما وقعت واقعة أزمير ضياعاً واسترداداً كما لم تقع واقعات البلاد العظيمة التي ماثل كل منها أزمير ضياعاً ولم يمثّلها استرداداً، ثم لو لم يكن ذلك الولوج لما انحصر ربنا بعدم ضياع تلك البلاد واسترداد أزمير، بل ضاعت منا بترك المخايذة في تلك الحرب فرصة عظيمة لا تسمح الدهور بمثلها، ولو انتهزت لكان يمكن أن يستدرك بما ما فقدته الدولة العثمانية في الأعصار الأخيرة من سياسياتها واقتصادياتها بلا سفك قطرة من دماء أمتها ووجد في راحتها اليوم مع تلك الساحة الوسيعة شعب مرفه وجيش يبلغ مليونين ما قل منه نفس أو عضو أو كل.^(١)

(١) وكان أعداء الدولة العثمانية استدرجوها للحرب ضد مصلحتها، ونتائج هذه الحرب تؤيد هذا الاحتمال. وأن مثل هذا الرأي الذي يذهب إليه المؤلف، يدعونا إلى إعادة النظر في تاريخنا الحديث، إذ يبدو أن خطط أعدائنا تسير على وتيرة واحدة، وحروب فلسطين المتكررة بلا استعداد حقيقي، أو إيقافها للهدنة، أو إحباط نتائجها، كل ذلك ماثل أمامنا!

أزمير تسترد من الأعداء فتخرب

وأقول ثالثاً إن أزمير أضيعت عامرة واستردت خربة، وكذا بلاد كثيرة وقرى يبلغ عددها ألوفاً في الأناضول، تركها الكماليون أنفسهم بتوسيع نار الحرب الموقدة على أزمير ثم استردوها خربة لم يبق في أكثرها أثر ولا طلل، وفي أزمير وقع الخراب بعد الاسترداد، وهذا أمر عجيب، حتى إن كثيراً من البلاد المعمورة المدنية سلمها أهلها فيما مضى من تاريخ الحروب وهم ذوو روية وحمية إلى الأعداء عند الأضرار واجتنبوا اتخاذها معركة صوتاً لها عن التخريب، وقد شاهدت مثلاً وقت احتلال الألمانين (بينهارست) أثناء الحرب العظمى وأنا في تلك البلدة مع كونها محصنة إلى الغاية.. قرب بلدة راقية تسلم إلى الأعداء لئلا تخرب ثم تسعى لاستردادها بوسائل سياسية.. وأزمير تسترد من الأعداء فتخرب.

ففكر في الفرق بين الحالتين أيها القارئ وتأمل في ماهية المستردين ووطنيتهم وأنعم النظر في ما كتبت لك واقفاً بين أسطرها متحرراً عن عواطف تنبو عن الإنصاف والاعتدال، ثم انظر هل يقاس ذلك بشتوم المصريين التي ناظروني بها.

هذا، وما ذكرنا طيلة الصفحات بعض مما اكتسبته أيدي الاتحاديين والكماليين الذين قبضوا على زمام الدولة منذ ست عشرة سنة، فارجع البصر إلى ما قبلها كيف تجدها عند القياس بحالتها التي هي عليها اليوم من حيث فسحة المملكة وضيقها وعمارتها وعراجلها، ومن حيث كثرة نفوس الأمة وقتلتها، ومن حيث

الأسرار الخفية وراء إلفام الخليفة العثمانية

معيشتهم وثروتهم وأمنهم وراحتهم.^(١)

ثم ارجع البصر كرتين حتى تمتدى إلى إدراك الفرق بين ما كانت عليه الدولة - أعني الدولة المعظمة الجامعة للسلطنة العثمانية والخلافة الكبرى الإسلامية مقترنة أحديهما بالأخرى مع ما استتبعته تلك المقارنة التي هي أزهى وأجلى من قران السعدين عند الثقلين من حالات وعادات وملكات دينية وأدبية واجتماعية توارثها من آباءنا وكن كالمشخصات لأمتنا تمتاز بهم، ولكل منهن قيمة عظيمة لا تعدلها فوائد العالم عند أقوام ذوى السجاياء الرزينة التي تقوم بها حياة الأمم وتدوم على قدر ما يحظون منها) - وبين ما آلت إليه اليوم، وأعني به الدولة الصغيرة اللادينية القومية، كإحدى الدول البلقانية في قطع علاقتها عن ماضيها العثماني والإسلامي والتشبه بالأمم الغربية في التبعاد عن الإسلام، لا في حضارتها وانقيادها بإرادة الشعب، بل وإنما تسحق إرادتهم تحت إرادتها، وتجتهد أيضاً في إنشاء العصبية الجنسية المبينة على الموهومات والخرافات القديمة المنسية، والأمة لا يفهمون من تلك العصبية شيئاً ولا ينساقون إليها بقلوبهم وغرائزهم، وإنما العصبية الجنسية والغيرة التركية سلاح الاتحاديين والكماليين يقاتلون به أمة الترك قبل الأمم ويعتزون عليهم، فاحكم أيها القارئ المتبصر بعدما أحطت علماً وتفكيراً بهذه التطورات والتقلبات الهائلة أنه أهل أحسن الاتحاديين والكماليين في تركيا وبدولة الترك وأمتها أو أساءوا بهم جميعاً.^(٢)

(١) مقارنة ذات نتائج مقحمة لكل مكابر، وما زالت قائمة الحجة لمواجهة القوميين ودعاة التغريب والتحمسين للأنظمة المستوردة. ولننظر بعين الإنصاف؛ فقد تراكت مشاكلنا، ومسخت شخصيتنا، ونقطعت أوصال أمتنا، وساقنا أعداؤنا كيغما شايوا.

(٢) ولعلك بعد التحديق إلى هذه الحقائق والإحداق بما تنكشف لك ماهية نجاح عصمت باشا في مؤتمس "لوزان" وارتقاء ذلك النجاح إلى كونه نجاحاً تجاه دولات لم تغرب الدول الكبرى عن -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

= حوزة شمولها ولم تقتصر على اليونان فقط، حتى عا الحسابات العتيقة الامتيازية معهم، وكان عاتيق الدولة العثمانية تحمل اتفاقاً منذ عهد بعيد، مع أن عصمت باشا لم يظهر بسلاحه على الإنجليس في ميدان الحرب وميدانها ولم يضيق الأرض بما رحبت عليهم كما ضيقها على اليونان فكيف عنهم ظفروه في مؤتمر لوزان.

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقها

وقد لمح مستشار الوزارة الخارجية البريطانية إلى هذا السر العميق في برلمانهم (١٩٠٥) بعدما أتم (لوزان) عمله وعاد مندوب كل دولة إلى بلادهم، وقد جرى بحث عن تلك المعاهدة فأعترض بعض النواب عليها قائلاً إنها لم تفرم سياسي لم يسبق مثله في تاريخ الإنجليز تجاه الترك، ولو غلبونا على الحرب العظمى ما استفادوا بأكثر مما منحوا بهذه المعاهدة، فقال المستشار: "عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة فهي اليوم مليّة متحدة" (١٩٠٥)، يعني مقصورة في هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تعلقها النسيجية العميقة لأقطار العالم باشتغالها على الخلافة الكبرى الإسلامية وإن كان الغافل لا مانع له من أن يستدل بظاهر هذا الكلام على قوة دولة الترك الحاضرة، وإحال أنه كم من دولة صغيرة مليّة متحدة لا يعياً لها ولا تسلم لها منافع ومكاسب إلا عند من غلبته بهيبتها، وكم ظهرت الدولة العثمانية من قبل اليونان حتى انتهت بجيشاً من (تساليا) إلى أبواب (أثينا) ولكن ما نفع ذلك في إلغاء الامتيازات الأجنبية عند الدول العظيمة مع أن تلك الغلطات على اليونان لم تكن مشوبة بمغلوبة قريبة العهد تجاه أولئك الدول مثل ما كانت في زمن معاهدة (لوزان).

وقد باحت حريصة (وقت) التركية عن السر العميق الذي ذكرناه آنفاً في الأيام الأخيرة التي حدث فيها الخلاف بين صحف الأستانة وصحف أنقرة، حيث قال كاتبها (محمد عاصم) في مقالة رئيسية نشرها في ١ نوفمبر ١٩٣٢م: "لم ننس أن الجرائد الإنجليزية لا زالت تكتب في أيام وحيد الدين الذي جمع الخلافة والسلطة في نفسه بأنه ما دام شكل الحكومة في تركيا فلا يمكن تطبيق قاعدة المساواة على الأقليات غير المسلمة فيها ولا جعل تلك الحكومات حكومة عصرية وأن القيود المدهشة التي كانت تحتوبها معاهدة (سيفر) باسم حقوق الأقليات، إنما نتيجة طبيعية لذلك الشكل من الحكومة أي الحكومة الحائرة على الخلافة".

ولعلك أيها القارئ بعدما كشفنا عنك غطائك يظهر لك أنه كان للإنجليز (١٩٠٥) كيد دولة الخلافة، لم يقع ذلك الكيد باتفاق الإنجليز مع السلطان وحيد الدين، بل وقع باتفاقهم مع رجال الحكومة التركية الكمالية متوجهاً على الدولة والخلافة ومقام السلطان المشار إليه، بل ومقام عبد الحميد... ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَكُنَّا قَتْلُوهُ قَدْ نَزَعْنَا وَمَا نَعْمُوتُ﴾ (م.ص)

(*) هذا السر العميق كشفت عنه الوثائق فيما بعد، ومنها معاهدة "كرزن" نسبة إلى وزير خارجية بريطانيا آنذاك، فقد أوفد مصطفى كمال زميله عصمت إينونو إلى لندن برسالة يحملها إلى الإنجليز ويقول لهم فيها: لماذا تقاتلوننا مرة أخرى؟ لقد كنا إمبراطورية كبيرة وكنتم تغشون جانبنا فانسلخت عنا أكثر البلاد ولم يبق إلا العنصر التركي في الأناضول.

وبعد محادثات ومفاوضات استمرت مدة طويلة ودخل خلالها وسيطاً (حايم ناحوم) حاحام اليهود الأكبر في تركيا.. ومع هذا فقد كان رد الإنجليز (إننا نخشى أن تعودوا فنصبحوا مركز تجمع المسلمين ونواة لوحدهم)، وهنا عرض مصطفى كمال هذه الشروط الأربعة عليهم:

- ١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً في تركيا.
- ٢- أن تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام.
- ٣- أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جمع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا.
- ٤- أن يستبدلوا الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت.

(ينظر كتاب الشيخ محمد الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ص ١٧٤).

(**) وحقت إنجلترا غرضها بواسطة مصطفى كمال. ومن المذهل أن نكتشف أنه كان أداة طيعة في أيدي الإنجليز أيضاً فضلاً عن خضوعه لليهود بلا حدود، وللقارئ الكريم المعلومات الجديدة التي فاجأنا بها الأستاذ مصطفى السعدني، إذ يقول: (وعندما أصبح أتاتورك الرجل الأول في تركيا تلقفته أيدي المخابرات البريطانية حين أصبح العوبة في يدها.. وعندما عين سير برسي لورين سفيراً لإنجلترا في تركيا الصغرى، وضعت وزارة الخارجية البريطانية تحت يده - كما هي العادة - الملفات الخاصة بسياسة إنجلترا في المنطقة، كما قدمت إليه جميع الدراسات والتحليلات النفسية التي أحررت على شخصية الرجل الأول في تركيا.. ويبدو أن سير برسي قد عكف على دراسة طبيعة مصطفى كمال كما صورها أساتذة علم النفس التحريبي من الإنجليز وأطلع على نواحي الضعف والقوة في شخصه.. ثم بدأ يمارس معه الأسلوب الذي جعل منه أداة طيعة، حين وثق في سير برسي لورين الثقة العظمى إلى الحد الذي جعل أتاتورك يعرض على السفير البريطاني أن يخلفه في رئاسة الجمهورية التركية، الأمر الذي لم يحدث مثله في التاريخ!!

(ص ٢١٨ من كتاب: الفكر الصهيوني والسياسة اليهودية).

(***) وإبحث أن الإنجليز ساهموا بقدر وفير في الكيد للإسلام وأهله ودولته وكانوا استمراراً لحملات الخروب الصليبية في العصر الحديث، فقد حصلوا على أكبر نصيب من ميراث الخلافة العثمانية.

الأسرار الخفية وراء إلقاء البلقلة العلمانية

ومعارضوهم ما فعلوا في هذه المدة فعلاً غير الإنكار على أفعالهم التي أضرت الأمة والبلاد، ليس في كتاب أعمالهم شيء يؤخذون به غير "أزمير" وحقيقتها أنها أضاعها الاتحاديون بالنتيجة الطبيعية التي أفضى بنا إليها دخولهم ومغلوبيتهم في الحرب العظمى لا معارضوهم الذين كانت الوزارة بأيديهم عند إحلال الدول اليونان بها، وإن اتفقت كلمات الاتحاديين الذين أضاعوها مع كلمات الكماليين الذين شاركوا الاتحاديين في إضاعتها أولاً على قذف تهمتها إلى المعارضين كاتفاق شريكى الجناية في قذفها إلى الغير وشهادة كل منهما براءة صاحبه. أجل أضاعها الاتحاديون ولم يُقدم المعارضون على استردادها تحملاً عن إحداث خلاف بيننا وبين الدول الكبرى التي أحللتها، وأبلغنا أن مقاومتهم في الاحتلال بمثابة مقاومتهم في الخطر. وهذا على حين انقضاء الحرب التي تمت بغليتهن إيانا ولم ينطفيء بعد شيء من نيران حنقهن علينا. فأى دولة مغلوبة، أو أى رجل من رجالها يتحاصر على حركة تُسبب استئناف تلك الحرب بعد معاناة عواقبها المائلة بعين رب المال الذي يحتاط عليه ويحترز عليه عن وضعه في طريق تجارة قد حرب خسارها بقاء ربحها وأثار الخسار أمامه، ولا يحيط بما أن يقال أمامه. فلو عد الكف من تحديد خطر الحرب عقب انتهائها بالمغلوبة القطيعة بخيانة الوطن وتضحيتها لكان جميع الألمان والنمساويين والبلغاريين الذين خضعوا لأحكام المغلوبة وجانبوا استئناف الحرب عزة أوطانهم مضحيتها حتى أن المصريين الذين جادلوا الإنجليز منذ سنين بالسنتهم

- ولا يفوتنا أن نستشهد بما وقع في مصر أيضاً، فإن (الكاهن) (دانلوب) علق عنه ثوب الكهنوت ودخل في خدمة الحكومة يدير مدارسها في خلال ربع قرن، فكان يناهض القرآن الكريم مناقضة سرية متواصلة.. وكان (جلادستون) يقول - أعزاء الله - في برلمانهم: إن القرآن أصل الشر في هذا العالم!!

(أوجين بونيف: الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية، ص ١٥٧).

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلفاء العلمانية

وأقلامهم ولكن لم يرتقوا من المحاء إلى الميجاء لما أحسوا في ذلك الارتقاء من المضار والأخطار التي تعصف بأمتهم خوثة أيضاً، بناءً على منطقهم وقانونهم الذي طبقوه على معارضي الكماليين من الأتراك وعدوهم به خوثة باعة أوطانهم من الإنجليز كما أثنوا على الكماليين الحمية والوطنية.^(١)

(١) مع أن بيننا وبين المصريين فرقاً يعذرنا بالنسبة إليهم في اختيار السلم على الحرب وهو مصادفة وزارتنا بصبيحة الحرب الكبرى التي حاربنا الدول بها وفقاً لمرارة المغلوبة في آخرها. ثم إننا لا نعرف الإنجليز ولا هم يعرفوننا وإنما جاءهم إلى بلادنا ودعاهم إليها برسول الدخول في الحرب العامة الاتحاديون إخوان الكماليين وعلطائهم قديماً وحديثاً. فكان مسمى الإنجليز في أرضنا إعادة أرواح الاتحاديين في أحساد الكماليين لينوموا في إفساد دولتنا وأمتنا^(*)، ولم يدع الإنجليز هذا البعث بعد الموت وقبل الحساب أسباباً تضعف وتوهن مواقع الصلحاء أهل الاعتدال في بلادنا إلا توصل إليها بأنواع مكاييد تخصه وتغيب عن الأفهام، فصعب في كل الأمور على حكومات السلطان وقيد حركاتها بصفة الغالب المحتل أرض المغلوب حتى أعجزها. فلما قامت مقامها الحكومة الكمالية يسر لها كل أمر عسر على الحكومة الأولى، وليس للعاقل أن يحمل هذا التحول إلى قوة مصطفى كمال الطاردة لليونان، لأن هذه القوة لا تفن عن صاحبها من الإنجليز شيئاً يضطرها إلى مساعدته وملايئته. بل طرد اليونان من الأزمير وقد ساقه إليها الإنجليز بين تبعات الحرب العامة وتتماقما التي حالف عليها اليونان وحاربنا معه يلزم أن يؤثر في غيرة المخالفة ويسخط الإنجليز فضلاً عن أن يجيب الطارد إليهما، إذ الإنسان لا يرتاح بظفر عدوه على حليفه، بل يعد ظفروه عليه ظفروه على نفسه كما عده الناس كذلك. ولن يقنع العاقل بمغلوبة الإنجليز أمام مصطفى كمال^(**) (وكان في وسعها على الأقل أن لا توقع الصلح معه وأن لا تحط عن عائقه أفعال المعهود العتيقة)، وإنما يقنع بحكمتها الإسلام في أن تتراى كذلك أعين مغلوبة أمامه حتى تعظم فتته في أبحار المسلمين وبصائرهم والرجل من لا يجد الإنجليز مثل لوجدت في طلبه من حيث أنه يهدم من ماديات الإسلام ومن أديباته لاسيما أديباته في يوم ما لا لهدم الإنجليز نفسها في عام. فلما أثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته في طرد اليونان من الأناضول استخلفت لنفسها وانسحبت من بلادنا^(***) فما غادرها حتى هباً مغادرتها إياها قبلها وما غادرها حتى استخلفت من بعادينا والإسلام أكثر منه. فمن المثقف مع الإنجليز؟ غن الذين صارت -

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخلفة العلمانية

= سياستها وبلاداً وحرباً لم أو من تساعده سياستها كل المساعدة. وهل نحن بعنا منها الوطن على ما رمانا به المصريون والخال أن الإنجليز حلت بأرضنا فخرجنا منها صفر الأيدي وحلت بأرضهم فظلوا يخدمون في غمرات الغين. ونحن مع بلوغنا أقصى مراتب الدق لم نتلطف من حطامها بشيء، ومازال رأس مالنا فيها فقرنا وعفانها، فلا نعرف التجارة ولا تكون لفقرنا كفو الإنجليز في البيع والشراء، لا في بيع الوطن ولا في بيع الناس - فلا يرى من رأى غيرها، حتى ألما التي عملاً ما انتقص من نفوسنا ونفسنا - تقابل أدق تعريض وقع عليها بأنكى شدة، وهي بوضوحها ووجودها الممتاز بين إعدامنا تكل الأيضار وتقطع الألسنة التي تستطيل إليها كالحسام المجرد. ونحن أناس صدقنا كلمة حق عند سلطان الباطل، ولا يتقرب بمكاننا في قلوب أمنا الطاهرة ادناس (مادام غوليس) التي كانت رمانا بها وهي يومئذ بين سحر مصطفى كمال ونغره. وما نال من الإنجليز نائل غير حمايته يوم مغادرتي الأستانة من تسلط الأشقياء الكمالية الذين ألغوا القبض في ذلك اليوم نفسه على الشهيد المغفور له علي كمال بك، إلى أن ركبت الباخرة وغير بضع اعطية قديمة خاصة بالأفراد العسكرية أعطونا لما ضبط البوليس الجرم الذي يحمل رجالنا بين الرفأ والباخرة وفيها كل ما نحتاج إليه من الثياب والأثاث فبقينا في الدرجة الثالثة من الباخرة بلا أدوات تقينا من برد الشتاء وبين العائلة نسوان وأطفال ومرضى.

فسإن كان ساقهم الحكم بكوننا خونة الوطن باعتنا أننا لم نخرج الإنجليز من بلادنا ولم نضطرها إلى الخسروح بالشدة والعنوة حتى فعل ذلك مصطفى كمال وطهر البلاد منها، فإذا أسألم لماذا لم يظهروا بلادهم من الإنجليز، أي شيء يحتاجون إليه في نيل هذه السعادة العظمى ولكن يتقاصر بسوعهم عنه، فهل حماسة شعبهم وحميته في درجة غير كافية لذلك أو كفاية زعيمهم وجرأته ومهارته وكل شيء يلزم له في هذا الأمر فوجوده فيه دون وجوده في زعيمنا مصطفى كمال، أم أقسم باعوا أوطانهم من إنجليز، وفي وفرة وفهم رغبة للمرتاب كما أن في فقرنا حجة الأمانة، لاسيما أنه بعضد الرية حصول تلك السعة والدعة بعد حلول الإنجليز بأرضه. ولا يلومه من هذا التفرغ المر الأجاج، ففي أمثال الإفرنج لا يرامى من سكن في قصر من الزجاج، مع أنا جاريناهم على منطلقهم وقانونهم الذي طبقوه بنا معاشر الأتراك غير الكماليين، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. (م.ص)

(*) نصح الإنجليز في إفساد العلاقة بين المصريين وبين الأتراك لغرض في أنفسهم، وقد اعتمدوا في ذلك ضمن ما اعتمدوا عليه إشاعة فكرة الوطنية المصرية وفصلها عن الرابطة الإسلامية. وللإنصاف، ينبغي أن نذكر هنا رأى مصطفى كامل - زعيم مصر الشاب، رحمه الله - الذي -

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

وعندما بنيت الكلام على قانون المصريين مع قطع النظر عن صحة ذلك القانون وفساده أذكرهم ما سبق منهم في الحرب العظمى، حيث حاربوا الترك تحت قيادة الإنجليز، لا أقل من أنهم عزروه ونصروه من وراء جبهة الحرب وهو الذي استخدمهم بتلك الصورة، فلو ساقهم إلى المعترك لانساقوا، وناهيك بأن المرشال (النبى) أعلن شكره لهم عقب انقضاء الحرب واعترف بأن ظفر الإنجليز على جيش الأتراك في جهة البر حصل بخدمتهم ومعونتهم وأن المصريين ذكروا تلك الخدمة والمعونة بلسان رسمي وعدوها من أقوى حججهم التي بنوا عليها دعوى استحقاقهم الاستقلال تجاه الإنجليز، وقد قرأت بحثاً بذلك الصدد في صحفهم حين كنت نزير

- تنبه إلى حقيقة الصلة بين المسألة المصرية والمسألة الإسلامية على حد قوله، وكتب في مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) عذراً من عطلت إنجلترا التي عملت منذ يوم احتلالها لمصر على تقسيم الدولة العثمانية، إذ لم تر لوجودها في مصر سلامة إلا هدمها ووضع يدها على مصر بصفة نهائية، وضم بلاد العرب إليها، وجعل الخلافة عربية في قبضة رجل يكون آلة لها!!
(المسألة الشرقية، ينظر المقدمة، ص ٢٧٨، مطبعة الآداب بمصر، ١٨٩٨ م).

(**) حقاً لا يقتنع عاقل بهزيمة إنجلترا أمام مصطفى كمال، وهي إحدى الدول الكبرى حينذاك وخرجت من الحرب العالمية الأولى ظافرة، ووصفت بأنها صاحبة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

إذن، هل كانت هناك تمثيلية تحركها أصابع وراء الستار غرضها (تصوير) مصطفى كمال في دور (البطل الوطني) لخداع شعبه والتفجير به بعد ذلك لكي يقبل الشروط التي عليها عليه إنجلترا؟
(*** أجل، هذه هي الحقيقة. والشواهد كثيرة للذين درسوا هذه الفترة الغامضة من تاريخ المسلمين بما لا يحصى أن كمال أتاتورك وعصابته كانوا متواطئين مع الإنجليز. ومن أدلة ذلك رد مستشار وزارة الخارجية البريطانية على بعض النواب المعارضين فرد عليهم بقوله: (عليكم بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة).
د. يوسف القرضاوى: الحلول المستوردة، ص ١٢٣ "التعليق"، مشيراً إلى ما قاله الشيخ مصطفى صبري (ينظر ص ١٧٥).

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العثمانية

قطرهم. فهل يجعل المصريون في كفارة ما وقع من خيانتهم الأتراك أن اقمونا بالخيانة. ولا أدري أن استعانتهم الكمالين في مؤتمر (لوزان) وقد استجيب لهم الحرمان هل كانت من جهلهم بحال الكمالين أم من جهلهم بحال أنفسهم.

وما كنت أردت أن أتكلم في ما يتعلق بالمصريين أنفسهم وأن أتدخل في مسائلهم الوطنية كيلا أقع فيما وقعوا فيه عندما بحثوا عنا وعن مسائل تتعلق بنا وبوطنيتنا غير واقفين عند حدود صلاحيتهم وغير واقفين على حقائق الأحوال، ولست مع المصريين ممن يقول:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهليتنا

ولا ممن يقضى غريم الدين من جنسه، لكني أردت أن أعلمهم تبعة الجهل والتساقط على أعراض أهل العفة والأئمة وأن أقذف بالحق على الباطل قديمه فإذا هو زاهق. إني ما رأيت قوماً أخطأوا وأخطلوا في درجة المصريين، وما رأيت وما سمعت فضولية كفضوليتهم في دخولهم بين فريقي الأتراك بحيث لا يسوغه أدنى أدب سياسي أو اجتماعي في أمة مدنية، ولقد لقينا في مصر من المقابلة الناشئة من سوء تأديهم ما لم نلق جزءاً من آلاف الأجزاء في الأستانة إلى أن خرجنا منها مهاجرين، مع أن مغادرتنا إياها كانت لاستيلاء السفهاء الذين يعادوننا لديتنا على حكومتها ولم يصح أحد على وجهي حتى يوم دخلت مصر بأن خائن ولم يُرم علينا الكساحة والطماطم أحد في غير مصر^(١)، فما للمصريين ولنا وليس بيننا وبينهم علاقة وطنية، وما بقي من سرف الاتحاديين في الشرق الأدنى فهو وطننا لا وطنهم، وما لم يزل الاتحاديون والكمالون مؤامرين ضده منذ سنين فهو ديننا لا دينهم، وما طحنوه في رحى الحرب والنهب نفوسنا وأموالنا لا نفوسهم ولا أموالهم بل ولا

(١) لا نستبعد أن يتم ذلك بفعل بعض العناصر المتعاونة مع الإنجليز، لاسيما وأنهم سعوا لإفساد العلاقة بين المصريين والأتراك.

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العلمانية

نفوس ساداتهم الكمالين أبناء سلانيك، فالיום أفلسنا نحن الأراك مالأ ونسمة وصحة بل وأخلاقاً نال الاتحاديون وإخوانهم الكماليون والعوديون آمالهم في إفسادها بوساوس الدعاية ووسائل الاختلاط في الحرب الكبرى مع الألمانين ذكراناً وإنائاً وسائر الأمم الأجنبية الذين خالفوهم تارة وحالفوهم أخرى، واضمم إليه اختلاط الخائر بالزباد من إدانة الحروب في البلاد بمدى والعاصفات لا يرى أثر الحرب الكبرى على امتدادها شيء ما خلا الاتحاديين والكمالين فقراء مغاليس، حتى أنه قد استهزأ بي بعض الصحف المصرية إبان نزولنا بديارهم حيث كتب أني فقدت في طريق السفر ألفي جنيه مصري، مع أني سافرت وعندى أسرتي المكونة من بضع عشرة نسمة وبينها نسوة وصبوة في الدرجة الثالثة من درجات الباخرة التي حملتنا من الأستانة إلى الإسكندرية، وقد حصلت على الثمن الذي وفي بنول تلك الدرجة ببيع كتبي مع أني وليت منصة المشيخة الإسلامية أربع مرات، ولو كنت شيخ الإسلام في حكومة الاتحاديين لوجد عندى ما يعادل آلاف بل عشرات آلاف جنيه مصري وأمكن ضياع ألفين منها في الطريق. وما كنت أحببت أن أبحث عن فقرى^(١) الذي به فخرى لولا اضطررتي تلك الجريدة، وأنا بحمد الله غني عن

(١) لا نجد برهاناً أسطع من هذا الرهان الذي أقدم به الشيخ خصومه، ثم تفحرت عواطفه عندما نشرت الصحف العالمية خبر صيام (غاندي) الهندوسي، احتجاجاً على سياسة الإنجليز في بلاده، فارتفعت بهذا التبا أرجاء العالم، عندئذ تفحرت عواطف الشيخ فصر عن ذلك بأبيات من الشعر، قال فيها:

صام شيخ الهند الحديثة غندي	صومة السستيت والمتحدي
وأران على شفا الموت أدعى	شيخ الإسلام بله هند وسند
غير أن الصومين بينهما فر	في عجب أهدية من غير رد
صام مع جده وصمت لعدم	دام مذ ضفت مصر كالضيف غندي
وغدا صومه حديث جميع النا	س، أما صومي فأدرسه وحدي

وقد لا يدخل في موضوعنا الحديث عن غاندي إلا أنني أرجو توجيه القارئ إلى سر الحركة =

الأسرار الخفية وراء إلقاء الثلاثة العثمانية

استعانة مصرى فى حالى هذه وفى حال مرورى بقطر مصر، وقس على سائر المهاجرين المسلمين. وعند تحرير هذه الكلمات اطلعت على ورود قافلة منهم إلى الإسكندرية. ولا أسأل المصريين أن يسدوا خلتهم أو أن يرحموا فافتهم وإنما أسألم أن ينظروا إلى شعبهم ونكد عيشتهم وأكثرهم كرام قومهم فى بلادهم ويستحيوا من أن ينعتوهم بالخونة البائعين لأوطانهم والآخذين من الأحناب دنائير وحنهيات حمة.

والخاصل أنكم أيها المصريون لا تقدروا ما جرى علينا وعلى بلادنا من بعيد حق قدره ولا يؤثر فى قلوبكم ما حل بنا تأثيره فى قلوبنا. ثم إن معاملتكم الأحزاب التركية بمعزل عن مقتضى العقل والتمييز لا تشبه قطعاً معاملة من يجب الترك ويريد الخير لها، إذ من المعلوم المجزوم منذ سنين أن فى تركيا فريقاً يث الدعوة اللادينية ويضاد دين الإسلام والأقوام الإسلامية، لاسيما العرب، بسبب أن الإسلام وصل إلى الترك منهم وتأسس بنقوذ لسانهم فى الترك، فمن جراء ذلك ترى هذا الفريق يسعون بكل جهدهم فى إبعاد اللغة العربية عن تركيا ويعادونها بأشد من

« الإعلامية التى أحاطته بهالة كبرى، بينما حقيقة أمره - كما أثبت ذلك الأستاذ أنور الجندى - أنه أسهم بنصيب وافر فى إجهاض الحركة الإسلامية فى الهند التى كان غرضها رفع راية الجهاد حتى إجلاله الإنجليز عن البلاد. ولكن غاندى عرقل بمركته إخمراج الإنجليز من الهند. ثم يستطرد بعد ذلك مستهياً بما لاقاه فى سبيل الإسلام ناعياً على مسلمى العصر تركهم لدينهم، فيقول:

فى سبيل الله ما أنا لاقى	ولئن مت فليعيش من هو بعدى
فليعيش رغم مسلمى العصر دين	ضيعوه ولم يفسوه بعهد
كان مثلى يموت ولا يُعرف	لو كان شيوخهم شيخ هذا

(عبد الفتاح أبو غدة: صفحات من صير العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص ٦١، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، لبنان، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية

معادتهم^(١) سائر الألسنة الأجنبية مع كون لغة الترك في حاجة عظيمة إلى الاستعانة بلغة العرب لا تقاس على حاجتها إلى الاستعانة بغيرها ومع عدم كون اللغة العربية من موخر اللغات فصاحة ورفقاً حاشا لسان الله من ذلك، لكن السبب الأصلي كما قلنا خصوصية الديانة الإسلامية والمهناك أمة الترك من مديد الزمان في حب لسان العرب وعدهم حبه من لوازم محبتهم وارتباطهم بدين الإسلام. فذاك الفريق اللاديني مع كونهم في غاية القلة بالنسبة إلى الأتراك المتدينين جادلوهم وقتلوههم منذ عشر ونيف سنين واستفزوا من استطاعوا بصوتهم وحيلهم ورجلهم وشاركوا في أموالهم ووعدوهم بما لا يخطر على بال الشيطان وتغلبوا على سلطتهم وسلطانهم. فليس في تركيا منذ ذلك المدة والحقة شيء أعظم خطورة وأهمية من هذه المجادلة والمخاربة الأهلية، لا الحرب العامة ولا الحرب الخاصة ولا ضياع البلاد ولا استرداد بعض منها، لأن البلاد والأيام مما يداولها الله بين الناس ليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وإنما الشأن الخطير لهذا التمهيص وذاك الحق لا لنفس البلاد والأيام.. "لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء"^(٢). وإلى بحمد الله تعالى وتوفيقه شمرت عن ساق المجاهدة في هذا السبيل منذ أحسست الخطر على دين الإسلام في تركيا، وما أرسلت من ثوب المشمر إلى هذا اليوم مع أنه كثيراً

(١) وكان قرار إلغاء الكتابة بالحروف العربية بمثابة انعكاس للعداء نحو الإسلام للحيلولة بين الأتراك والقرآن الكريم. هذا فضلاً عن الآثار المدمرة لهذا القرار (وهكذا يجرسوم واحد ألغى كل التراث الثقافي التركية فتحوّلت إلى أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب وبدأت تتعلم القراءة والكتابة من جديد، وهو أعجب وأغرب قرار صدر في التاريخ، وأصبح أتاتورك أول حاكم فرض الكتابة من جديد، وأصبح أتاتورك أول حاكم فرض الأمية على أمة بأكملها، ولهذا السبب لم تنحب تركيا الحديثة أديباً عالمياً ولا عالماً ولا مؤرخاً، وكيف تفعل وهي قد اكتشفت الكتابة منذ جيلين؟).

(الأستاذ محمد جلال كشك، حوار في أنقرة، ص ٤٩-٥٠).

(٢) عمن سهيل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء" [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].

الأسرار الخفية وراء إلقاء الخليفة العلمانية

ما أعدى من ذلك الخطر المتوجه إلى الدين نفسى وأهلى، ومازلت ناصب في مقدمة الصف الذى يصادم الذين يصادمون دين الإسلام^(١) وجاعل قلمى العاجز وقفاً على هذا الشأن جارياً، ولا فخر ولا كذب إن قلت أنا ابن جلا أو يضرب هذه الخطلة في حطبتنا مثلاً. ثم إنى رأيت المصريين في هذا العراك الذى نجم في بلادنا وتفاقم عوناً لأعداء الدين ولسان العرب وحرباً لأحبيتهما المتفانين فيهما بأموالهم وأنفسهم، وحتى إنى لما نزلت بساحتهم وعانيت هذه الحالة النفسية المعكوسة مع ما عانيت من سوء لقائهم كدت أموت حيرة وعجباً بعدما كنت لم أمت في تركيا بالرغم من شذائد الأخطار والمهالك التى حافت بي طيلة بضع عشرة سنة.

وقد بلغ القارئ من لدن عذراً في الإطناب فلنختم الكلام بالتنبيه على جهالة أخرى مصرية؛ وهو أن الرجل الذى كتب في المقطم بعدما أقمنا بقلة محبتنا الوطنية زاد على جهله بحالنا بأحاديث نبينا محمد ﷺ مع كونه أزهرياً وظن الكلمة التى ذاعت في الألسنة حديثاً نبوياً فقال: ألا حيداً لو كنت كتبت هذه الكلمة وأنت في البر لما قلت لك أكثر من تذكيرى إياك بقوله ﷺ: (حب الوطن من الإيمان).^(٢)

(١) سبق الإشارة إلى ذلك في آيات الشعر التى أوردناها وذلك بقوله:

في سبيل الله ما أنا لاقٍ ولئن مت فليعش من هو بعدى
فليعش رغم مسلحى العصر دين ضيعوه ولسم يغسوه بهمى

(٢) وقد نهيت على كونه حديثاً غير نبوى في مجلد سميت به (مجددو الدين) - دين مجددر - وكنت حين ما تم طبع هذا الكتاب غادرت الأستانة بغثة ولم يساعدنى الزمان لأن أستصحب النسخ المطبوعة في سفرى فبقى ألف نسخة منه إلا لحسين في مطبعة الأوقاف - موضوعة في الصندوق فقصبتها الحكومة الكمالية على ما فهمت من نشرات الصحف. وموضوع الكتاب بأسره الدفاع عن كثير من الأحكام والشعائر الإسلامية التى لا يزال يظعن فيها كفار المسلمين في حادث الأزمنة وينتقدونها بفوقهم الضعيلة على تقاليد الإسلام القديمة. ولو طالعه ذوو الغيرة الدينية من علماء الإسلام واطلعوا على مفاده ثم اطلعوا على أن الحكومة الكمالية قد صادرت نسخه المطبوعة =

فہرست

الموضوع	رقم الصفحة
• تقدیم	۵
• منہج البحث	۳۲
• الشيخ مصطفى صبري: حياته وعصره	۳۸
• نظرات الشيخ وتحليلاته لأحداث العصر	۴۳
• لمحات من مواقفہ العلمية وأقواله المأثورة	۵۲
• بعض الأسرار التي كشف عنها الكتاب	۶۲
• دور مصطفى كمال أتاتورك في القضاء على الخلافة	۶۵
• كلمة عن الخلافة العثمانية	۶۷
• آراء الشيخ مصطفى صبري السياسية	۸۶
• عدم الفصل بين الدين والسياسة	۸۶
• الأقليات غير المسلمة	۱۰۲
• معالم نظريته السياسية	۱۰۷
• السلطان عبد الحميد "الخليقة المقترى عليه"	۱۰۹

النص المحقق من كتاب
النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة
لشيخ الإسلام مصطفى صبري

١٢٧	• مقدمة
١٣٤	• حكومة لا دينية
١٣٨	• فتح أزمير ذريعة لهدم الإسلام والشرع
١٤١	• فصل الخلافة عن السلطة
١٥٢	• تقليد الثورة الفرنسية
١٥٧	• مذهبه في الخلافة
١٨٠	• اختلاط الرجال بالنساء
١٨١	• فكرة القومية
١٨٦	• إلغاء المحاكم الشرعية
١٩٤	• الارتداد عن الدين
٢٠١	• تصريح صحفي لأتاتورك وتقنيده
٢٠٥	• شعار الذئب الأغبر
٢١٩	• تقويم سياسة الاتحاديين والكماليين الداخلية والخارجية
٢٣٢	• فتح أزمير ذريعة لهدم الدين
٢٣٢	• المقال الأول
٢٣٤	• المقال الثاني
٢٤٥	• المقال الثالث
٢٥٤	• حزبان في تركيا من الوجهة الإسلامية
٢٥٦	• تعليق الشيخ مصطفى صبري
٢٥٧	• عداء الاتحاديين والكماليين للدين
٢٧١	• المقال الرابع: أزمير تسترد من الأعداء فتخرب

